

الإنسان والبحث عن المعنى

معنى الحياة والعلاج بالمعنى

تأليف : فيكتور فرانكل (جامعتا فيينا وهارفرد)

تقديم : جوردون أولبورت (جامعة هارفرد)

ترجمة : طلعت منصور (جامعة عين شمس)



الإنسان والبحث عن المعنى

معنى الحياة والعلاج بالمعنى

تأليف : فيكتور فرانكـــل (جامعتا فيينا وهارفرد)
تقديم : جوردون أولبورت (جـــامعة هارفـــرد)
ترجمة: طلعت منصـــور (جـامعة عـين شمس)



مكتبـــة الأنجلـــو المصريـــة



هذه ترجمة لكتاب:

Viktor W. Frankl:
Man's Search for Meaning: An introduction to logotherapy.
New York: Simon & Schuster, 1959.

المحتـويات

الجزء الثاني
المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى

تقديم الترجمة

لقــد رأيــنا أن نقــدم للمكتبة العربية وللقارئ العربي هذا الكتاب الذي يعكس مدرســة علمــية وعملية متميزة وغير تقليدية بقدر ما تحمل فلسفةً وفكراً، وتأملاً ونــزوعاً نابعاً من صميم الطبيعة البشرية – في حقيقتها وصدقها، عمقها وعُلُوّها، ومعاناتهــا ولذة معاناتها، وفي ضعفها وقوتها؛ وثقةً في مصادر ومكامن كنوزها، واستلهاماً لآفاق نموها وتنميتها بلا حدود أو قيود.

وإزاء هــذا الــتقديم، لعــل من الأنسب ابتداءً أن نستبين طبيعة العصر الذي بــزغت فــيه هــذه المدرسة وتنامت من خلال أشكال المعاناة والضعف والانهيار والموت، وما يقابل هذا من التحمل والقوة والصلابة والانتصار..

ثــم الحــياة.. و "نَعَــمْ للحياَة"، المستحقة الجديرة أن تُعاش بعظمة قوى الخير وطاقــات البناء، ومصادر الارتقاء والتقدم الكامنة في جوهر طبيعة الإنسان.. سعياً وخيــراً.. عمــلاً ومعاملــةً.. إنتاجاً وبناءً.. إيجابية وإبداعية.. وفي صيرورة نمو وسمو!.

لقــد عاش "فرانكل"، ذلك الطبيب النفسي النمساوي، حقبة متميزة في تاريخ الإنسانية، وهي فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما اتسمت به من مناخ عام يسود فيه الحرب والدمار والموت، والجشع والظلم، ومن نشوء نماذج للطغاة فــي الــتاريخ الــذين جروا العالم وساقوا مجتمعاتهم إلى الخراب والدمار؛ ولعل نمــوذج تلك المجتمعات هو ما أبرزه "إيريك فروم" في كتابه "المجتمع العاقل أو الراشــد" Sane society فــي مقابــل "المجمع غير العاقل أو المجتمع المجنون" Insane society. وإذا كنا لنعتبر أن لكل نظرية من نظريات علم النفس خلفيتها التاريخــية الثقافــية وفقاً لمبدأ اجتماعية المعرفة، فإننا لنرى أن هذا المناخ القاتم المتشائم قد انعكس بشكل مباشر وواضح على نظرية التحليل النفسي، التي نشأت فــي فيينــا في نفس موطن ميلاد مدرسة "فرانكل"، وحيث يقدم التحليل النفسي، واعتــباراً لقيمــته كمدرســة علمية في تاريخ الفكر السيكولوجي، صورة قاتمة ومتــشائمة عن الإنسان المكبل بغرائزه وبنزعاته اللاشعورية وصراعاته كما لو أن الإنــسان مــن داخلــه شــرير بطبيعته، ومن خارجه كما لو أنه ذئب لأخيه الإنــسان؛ ولــذا كان نموذج "المرض" ودينامياته هو الإطار العام الذي تطورت

بداخلـــه مـــدارس التحلـــيل النفسي واستخدامها في العلاج. ناهينا عن تأثير فكر التحليل النفسي في مجالات شتى تجاوزت حدود علم النفس إلى السياسة والمجتمع والحرب والأدب والعلاقات الاجتماعية، أو في الدين الذي كان لـــ "فرويد" موقف مناهض له.

وفـــي هـــذه الحقـــبة كذلك، كانت المدرسة السلوكية تأخذ طريقها إلى العلوم النفـــسية بـــدءً بأعمـــال عالم الفسيولوجيا "إيفان بافلوف" في روسيا عن فسيولوجيا الجهـــاز العصبي إلى أعمال عالم النفس "جون واطسون" في أمريكا عن السلوكية الكلاســـيكية التي بالغت في الموضوعية واقتدت بنموذج علم الفيزياء في المنهجية والتجـــريب، وما استتبع ذلك من نظرية آلية للإنسان توسم بالاختزالية أو الخفضية حتـــى لقد صارت في بعض الأحيان تعرف بنظريات المثير – الاستجابة. ومما قد يجـــدر ذكـــره أن "بافلوف" نفسه كان له موقفاً من السلوكية في دارسة نشرت عام ١٩٣٢ في (Psychological Review) وتحمل عنواناً له مغزاه وهو "رد عالم في الفـــسيولوجيا على علماء النفس" (The reply of physiologist to psychologists)، وحـــيث ذهـــب إلى أنه قد نشأ مع السلوكية "علم نفس بدون نفس" (Psychology without psyche).

في هذا السياق التاريخي الثقافي، وفي إطار تطور الفكر السيكولوجي وتناميه كعلـــم يسعى إلى أن يكون له مكان ومكانة بين الأنظمة العلمية الأخرى، يمكننا أن نتـــناول مدرســـة "فـــرانكل" وما قدمته من إسهامات على مستوى التنظير والبحث والتطبيق.

من هو "فرانكل"؟

"فيكـــتور فرانكل" هو صاحب "مدرسة فيينا الثالثة في العلاج النفسي" (وكانت المدرسة النمساوية الأولى هي مدرسة "سيجموند فرويد"، والثانية هي مدرسة ألفريد آدلـــر)، حـــيث قدم "فرانكل" آفاقاً جديدة في العلاج النفسي، وهي "العلاج بالمعنى" Logotherapy". ولقـــد تجاوزت هذه النظرية أيضاً حدود العلاج النفسي إلى فلسفة فـــي علم النفس ونظرة صادقة إلى الإنسان والطبيعة البشرية والشخصية الإنسانية، بـــل إننا لنرى في كل ما قدمه من فكر وعمل، ونظر وتطبيق تطوراً لذلك التوجه المتنامـــي فـــي الصحة النفسية والمعروف بـــ "الصحة النفسية الإيجابية Positive mental health"، الأمر الذي مهد السبيل إلى تطور "القوة الثالثة" Third force أو

"الــثورة الثالثة" Third revolution في علم النفس، وهي "الاتجاه الإنساني في علم الــنفس" Humanistic psychology، وصــولاً أيــضاً إلى "علم النفس الإيجابي" Positive Psychology. فتلك كلها روافد متدفقة في مجرى ينحو صوب الإيجابية في علم النفس.

ولــد "فــرانكل" فــي مديــنة فيينا في ٢٦ مارس عام ١٩٠٥، وحصل على الدكــتوراه في الطب في عام ١٩٣٠، وعمل طبيباً نفسياً لعلاج الحالات المستهدفة للانــتحار فــي مركز لعلاج الإناث، وظل يمارس هذه المهنة حتى وصل الحزب النازي إلى الحكم في عام ١٩٣٨. ولقد صار "فرانكل" آنذاك رئيساً لقسم الأعصاب بمستــشفى روتــشيلد بفييــنا، وظل هكذا حتى اقتيد في عام ١٩٤٢ إلى معسكرات الاعــتقال الــنازي بدءً من معكسر "ثيريشينشتات" Theresienstadt بجوار مدينة بــراغ بتــشيكوسلوفاكيا ومعــسكري "داشاو" Dachau و "آوشويتز" Auschwitz بألمانيا.

وفــي ذلــك يقول "جوردون أولبورت" أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد في تقديمــه لكتاب "فرانكل": "لقد وجد "فرانكل" نفسه، كسجين مخضرم في معسكرات رهيــنة للاعتقال، متجرداً متعرياً في وجوده. فوالداه وأخاه وزوجته قد لقوا حتفهم فــي معــسكرات الاعتقال أو أرسلوهم إلى أفران الإعدام بالغاز، أي أن كل أسرته عــدا أخته قد هلكت في هذه المعسكرات. إن كل ما يملكه قد ذهب أدراج الرياح، وكــل قيمة قد تحطمت ليعاني من الجوع والبرد والقسوة، ومن توقع الإبادة في كل لحظــة – إنسان هذا شأنه كيف يجد في الحياة ما يجعلها جديرة بالبقاء؟ هذا العالم النفــسي الــذي واجه شخصياً تلك الظروف الشاذة لهو جدير بأن نصغى إليه. لقد كــان، بــل إن كــل شــخص ينبغي أن يكون، قادراً على أن يرى ظروف الحياة الإنسانية بنظرة ملؤها الحكمة والرحمة. لقد جاءت كلمات الدكتور "فرانكل" لتدوي بمنتهــى الأمــان والــصدق وبغاية العمق، لأنها تستند على خبرات عميقة لدرجة تجعلها بعيدة عن الغش والخداع".

وإذ يقدم "فرانكل" خبرته في معسكرات الاعتقال، فإنه بالأحرى يَعْرِض فلسفته عــن العــلاج بالمعنى، وحيث نتحقق في نهاية تلك الخبرة أننا أمام دراسة أو علم مــوغل فــي العمــق، وليس مجرد حكاية مفجعة.. بل إن "فرانكل" في أحد كلماته الأخيــرة، مــن منظور وقاية الإنسانية من شرورها ومن استهدافها للدمار، يقرر: "يــوجد فقط نوعان من الجنس البشري: جنس الناس الفاضلة أو المهذبة Decent

People، وجـنس الـناس غير الفاضلة أو البذيئة Indecent People.. وكل دولة قادرة على أن يكون بها معسكرات الهلوكوست".

فـي عـام ١٩٤٥ عـاد "فـرانكل" إلـى فيينا، وعمل رئيساً لقسم الأعصاب بمستشفى فيينا البوليكلينيكي، وظل هكذا لمدة خمسة وعشرين عاماً. في عام ١٩٦١ انـتقل إلـى الـولايات المتحدة الأمريكية، وحيث شغل خمسة مواقع مهنية رئيسة بجامعـات هارفـارد وستانفورد، وكذلك بجامعات دالاس وبيتسبرج وسان دييجو. ولقـد عـاش مـع زوجـته "إليانور" وابنته "جابرييل فرانكل – فيسلي،" وتأسست لـه فـي فييـنا مؤسـسة ذائعـة الصيت تعرف بـ "معهد فيكتور فرانكل" بفيينا" (Vienna Viktor Frankl Institute)، تـداركاً لمـا لقيه من إغفال لفترة طويلة في وطـنه (النمـسا)، وتواصلاً مع تعاظم مدرسته في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد توفى فيينا في يوم الثلاثاء ٢ سبتمبر ١٩٩٧ عن عمر يناهز الإثنين وتسعين عاماً.

لقـد ترك "فرانكل" للتراث الإنساني، العلمي والحضاري، ٣٢ كتاباً، وترجمت مؤلفاته إلى ٢٦ لغة في العالم.

ويمـثل كتابه هذا "الإنسان والبحث عن المعنى" – معنى الحياة، أعظم مؤلفاته وأكثرها إمتاعاً ووضوحاً كما يقرر "أولبورت". وقد حصل أيضاً على ٢٩ دكتوراه فخرية من جامعات عديدة في العالم.

القسمات الرئيسة لنظرية "فرانكل" في العلاج بالمعنى :

يـتحدد جوهر هذه النظرية في أن الإنسان إذا وجد في حياته معنى أو هدفاً، فـإن ذلك يعنى أن "وجوده" له أهميته وله مغزاه، وأن حياته جديرة بأن تعاش، بل أنها حياة يسعى صاحبها لاستمرارها والاستمتاع بمغزاها.

وقـد تـبدو الـصورة واضـحة لنا إذا قارنا بين اتجاه "فرانكل" في نظريته وتطبـيقاتها بأعمال سالفه "سيجموند فرويد". فكلاهما عالمان نفسيان تكرسا أساساً للبحث في طبيعة الأمراض النفسية وعلاجها.

يجـد "فـرويد" جذور هذه الاضطرابات المضنية في القلق الذي تسببه الدوافع اللاشـعورية والمتصارعة. أما "فرانكل" فإنه يميز أشكالاً عدة من المرض النفسي، وحـيث يبـرز فئة منها يطلق عليها مصطلح جديد وهو "العُصاب معنوي المنشأ" Noögenic neurosis الـذي يعزوه إلى فشل الشخص صاحب المعاناة في أن يجد

معنـــى وإحـــساساً بالمـــسئولية إزاء وجـــوده؛ هذه الفئة من الأعصبة لا تتولد من الصراعات بين الحوافز والغرائز وإنما بالأحرى من الصراعات بين القيم المختلفة، أي مـــن الـــصراعات المعـــنوية الأخلاقـــية؛ أو "بعبارة أكثر عمومية – كما يقول "فرانكل" – تتولد هذه الأشكال من العصاب من المشكلات الروحية"، ومن بين تلك المـــشكلات مـــا يـــسميه "فرانكل" بالإحباط الوجوديExistential frustration أو الفـــراغ الوجودي Existential vacuum. ومن هنا، فإن العلاج الملائم والفعال لا يكـــون هو العلاج النفسي بصورة عامة، وإنما يكون بالتحديد هو العلاج بالمعنى – وهـــو ذلك العلاج الذي يجرؤ على الدخول إلى البعد المعنوي الروحي من الوجود الإنساني.

وإذا كـــان "فـــرويد" قـــد اهتم بالإحباط في الحياة الجنسية، فإن "فرانكل" يهتم بالإحـــباط الـــذي يـــتعلق بما يسميه "إرادة المعنى"The will to meaning. فهناك الوجـــود ذاتـــه، أي أسلوب الوجود المميز للإنسان، وثانياً معنى الوجود؛ ثم السعي للتوصل إلى معنى حقيقي، محسوس وملموس، في الوجود الشخصي، أي التوصل إلى إرادة المعنى.

ولقـــد وجد "فرانكل" معنى في المعاناة، معنى يعيش الإنسان من أجله. بل لقد وجـــد "فـــرانكل" معنـــى في الموت، إذ يموت المرء سعياً من أجل معنى ديني أو روحـــي أو وطنـــي. يقول "فرانكل" أنه في الظروف القاسية التي يخبرها الإنسان "تكـــون هـــناك علـــى الدوام اختيارات مما يأتي به الشخص. ففي كل وقت تتأتى الفرصـــة لاتخـــاذ قرار، وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تخضع أو لا تخـــضع لـــتلك القوى التي تهدد بأنه تسلبك من ذات نفسك.. من حريتك الداخلية! فـــنمط الاســـتجابة إزاء تلـــك الظـــروف إنما هو نتيجة لقرار داخلي، وليس نتيجة لمؤثرات تلك الظروف وحدها".

فـــأي إنـــسان يستطيع، حتى في أبشع الظروف، أن يقرر ماذا يريد أن يكون عقلـــياً وروحـــياً، ومـــا مـــوقفه من ذاته ومن العالم. وذلك ما يسميه "فرانكل" بـــ "العظمـــة الداخلية" Inner greatness، ويسوق مقولة "دوستويفسكي" في هذا الشأن: "يـــوجد شيء واحد فقط يروعني، وهو: "ألا أكون جديراً بآلامي".. فألوان المعاناة والعـــذاب تفـــصح عـــن تلـــك الحقيقة بأن الحرية الداخلية الأخيرة لا يمكن فقدها. فالطـــريقة التي يتحمل بها الإنسان آلامه ومعاناته تمثل إنجازاً داخلياً أصيلاً.. تلك هي الحرية الروحية، وهي التي لا يمكن سلبها من الإنسان، وهي التي تجعل الحياة ذات معنى وذات هدف.

ومما يميز نظرية "فرانكل" أنها نظرية متسامحة، فهي لا تنبذ "فرويد"، ولكنها تبنـــى بـــسرور فـــوق إسهاماته، كما أن "فرانكل" لا يدخل في عراك مع الأشكال الأخرى من العلاج الوجودي والإنساني، وإنما يرحب بالتفاعل معها.

وفـــي ذلك يقدم "فرانكل" أيضاً مفهومه عن "تسامي الذات أو التسامي بالنفس" Self – transcendence، ويعني به التوجه نحو المعنى، باعتباره مدخلاً لتعديل أو تغييـــر الكثيـــر من المفاهيم الرئيسة في نظريات علم النفس، حيث يعتبر أن معظم نظـــريات علم النفس تقوم على أساس "مبدأ استعادة التوازن" Homeostasis. فوفقاً لهذه النظريات، يسعى الإنسان إلى الاحتفاظ بحالة من الاتزان الداخلي وإلى خفض التوتر، وما يتعلق بذلك من نظريات تقوم على اللذة Hedonistic theories.

ويـــرتبط تسامي الذات بالمسئولية وبمعنى الحياة. يقرر "فرانكل" أن ما يعوزنا حقـــيقة هو تغيير أساسي في اتجاهنا نحو الحياة؛ إذ كان علينا أن نعلم أنفسنا، وأن نعلـــم الأشخاص الذين يستبد بهم اليأس، بأن ما هو متوقع من الحياة ليس في واقع الأمـــر هو موضع الأهمية، بل إن ما يعنينا هو ما الذي تتوقعه الحياة منا. علينا أن نـــتوقف عـــند معنى الحياة، وأن نفكر إزاء ذلك في أنفسنا كما لو أنها في موضع تـــساؤل من قبل الحياة، وأن إجابتنا ينبغي أن تقوم، لا على الكلام أو التأمل، ولكن علـــى العمـــل الحق والمسلك الحق. فالحياة تعني في النهاية الاضطلاع بالمسئولية لكي يجد الإنسان الإجابة الصحيحة لمشكلاته.

تلـــك بعض قسمات نظرية "فرانكل" كما قدمها في كتابه "الإنسان والبحث عن المعنـــى" – معنـــى الحياة، التي يعتبرها "أولبورت" درة نفيسة، بقدر ما تقدم مدخلاً حتمياً لأعظم حركة في علم النفس في عالمنا المعاصر.

*

إن العلاج بالمعنى – فلسفةً ونظريةً، واستراتيجيات وفنيات – يقدم لعلم النفس والطـــب النفـــسي بخاصـــة ولعلوم الاجتماع والتربية والسياسة بعامة آفاقاً في بناء الإنـــسان وتنميـــته، وحمايته وعلاجه، تتميز بالتفاؤل بالإنسان وبالإيجابية في فهم طبيعته وأصالتها؛ تركيزاً على قابلية الإنسن لتجاوز متناقضات الحياة وأضدادها – بالأمل رغم الألم، وبالحرية رغم العبودية، وبالإرادة رغم القهر، وبالإبداع والذكاء رغـــم الغـــباء والعمـــاء، وبالـــصدق والأصالة رغم الزيف والضلالة. ولعل هذه المتناقـــضت هـــي مـــا يدركها القارئ لهذا الكتاب ويعيشها في تواصل طبيعي مع مـــتقابلاتها مـــن الإيجابية والتسامي مما هو كامن في معنى الحياة لدى الإنسان –

إرادةً للمعنى واكتشافاً للمعنى وبناءً للمعنى في وجود كريم يستحقه الإنسان ويعيشه باقتدار لكونه قيمةً عليا، فيما ميزه بها الله سبحانه وتعالى وجعله مستخلفاً له في عمارة هذا الكون بالخير والتقدم والرفاهة.

ولقد حرصنا لذلك، ومنذ أوائل الثمانينات، على أن نقدم هذا المنحى المتميز في الصحة النفسية والإرشاد/ العلاج النفسي للباحثين والدارسين بكلية التربية جامعة عين شمس، وإشرافنا على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه سواء في بحوث تجريبية تستند إلى برامج واستراتيجيات للتدخل الإرشادي/ العلاجي وفقاً لهذا المنحى، أو بحوث وصفية تبحث في المتغيرات والمتلازمات النفسية والاجتماعية المتعلقة بمعنى الحياة. ثم امتداد هذا التوجه إلى بحوث قام بها زملاء أفاضل أو أشرفوا عليها في بعض الجامعات المصرية والعربية.

وتتوفر من النتائج المستمدة من هذه البحوث بينة علمية تؤكد على قيمة هذا المنحى وجدواه في تناول قضايا الصحة النفسية، والتحقق تجريبياً وتجربياً من فاعلية العلاج بالمعنى والإرشاد القائم على المعنى. فلقد استخدم هذا المنحى، على سبيل المثال، في بعض الرسائل العلمية في علاج بعض الاضطرابات النفسية كالاكتئاب والقلق والرُهاب والوحدة النفسية والضغوط النفسية والاغتراب واضطرابات الشخصية والتوافق.

أضف إلى ذلك، فقد كان استخدام هذا المنحى في إعداد استراتيجيات وتقديم برامج إرشادية/ إنمائية/ علاجية ذات فاعلية ووظيفية في التعامل مع ضغوط ما بعد الصدمة وبعض الاضطربات النفسية الناجمة عن أحداث مروعة من الحروب والعدوانات في منطقتنا العربية وخاصة في الكويت وفلسطين ولبنان، وحيث تقدم نتائج استخدام العلاج بالمعنى في التعامل مع الأزمات والصدمات والكوارث، ومع أحداث الحياة الضاغطة، دلائل علمية عملية عن "الصدق الإكلينيكي" لاستخدام استراتيجيات وفنيات العلاج بالمعنى.

وإننا لنتطلع وندعو، وقياساً على ذلك، إلى استثمار هذه الحركة العلمية في بحوث ذات توجه إيجابي تركز على التنمية – تنمية الإمكانات البشرية والقوى الشخصية ودعم مقومات الصحة النفسية الإيجابية وجودة الحياة لدى الأفراد والأسر والمؤسسات.

وتواصلاً مع هذه التطلعات، ومواصلة لهذه الدعوة، وابتداءً ومبادرة بترجمة هذا الكتاب (الإنسان والبحث عن المعنى) إلى العربية وتأسيساً عليه، نقدم في

مؤلــف خــاص، وبمــزيد من التفصيل والتعمق، إسهامات نظرية العلاج بالمعنى واســتخداماتها، مــع تركيز خاص على مرحلة "ما بعد فرانكل" وما استثارته تلك الحركة من آفاق شتى في الصحة النفسية والإرشاد والعلاج النفسي.

دكتور طلعت منصور
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية – جامعة عين شمس
القاهرة

تقديم الكتاب
جوردون أولبورت
(أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد)

دكـــتور "فـــرانكل"، مؤلف هذا الكتاب، كان في بعض الأحيان يوجه كطبيب نفـــسي إلـــى مرضاه، ممن يعانون من عديد من ألوان العذاب القاسية أو الضئيلة، الـــسؤال التالـــي: "لماذا لم تنتحر"؟ ومن إجاباتهم يستطيع غالباً أن يجد الخط الذي يهديـــه إلى علاجه النفسي: ففي حياة البعض، كان هذا الخط هو الحب الذي يربط الـــشخص بأبـــنائه؛ وفـــي حـــياة البعض الآخر، كانت هي الموهبة التي عليه أن يـــستخدمها؛ وبالنـــسبة للـــبعض الـــثالث، ربمـــا كانت هي الذكريات التي تستحق الاســـتبقاء. وتتمـــثل محاولـــة المعالج في أن ينسج من هذه الخطوط الواهية لحياة محطمـــة نمـــوذجاً مُحْكماً من المعنى والمسئولية – وهذه هي غاية العلاج بالمعنى وتحدياته، وهو الصيغة التي قدمها "فرانكل" للتحليل الوجودي الحديث.

يعـــرض "فـــرانكل" فـــي هذا الكتاب للخبرة التي آلت به إلى اكتشافه للعلاج بالمعنـــى. لقد وجد نفسه، كسجين مخضرم في معسكرات رهيبة للاعتقال، متجرداً متعرياً في وجوده. فوالداه وأخاه وزوجته قد لقوا حتفهم في معسكرات أو أرسلوهم إلـــى أفـــران الإعـــدام بالغـــاز، أي أن كـــل أســـرته عدا أخته قد هلكت في هذه المعـــسكرات. إن كل ما يملكه قد ذهب أدراج الرياح، وكل قيمة قد تحطمت ليعاني من الجوع والبرد والقسوة، ومن توقع الإبادة في كل ساعة – إنسان هذا شأنه كيف يجد في الحياة ما يجعلها جديرة بالبقاء؟

هـــذا الطبيب النفسي الذي واجه شخصياً تلك الظروف الشاذة لهو عالم ومفكر وطبـــيب نفسي جدير بأن نصغى إليه. لقد كان، بل إن كل شخص ينبغي أن يكون، قـــادراً علـــى أن يرى ظروف الحياة الإنسانية بنظرة ملؤها الحكمة والرحمة. لقد جاءت كلمات الدكتور "فرانكل" لتدوي بمنتهى الأمان والصدق وبغاية العمق، لأنها تستند على خبرات عميقة لدرجة تجعلها بعيدة عن الغش والخداع. فما قرره يحظى بمكانـــة عظـــيمة وذلـــك بسبب موقعه الحالي في كلية الطب بجامعة فيينا، وبسبب شـــهرة عـــيادات العلاج بالمعنى وصيتها في أماكن كثيرة من العالم، وبسبب أنها تأسست على غرار نموذج "العيادة العصبية الشاملة" في فيينا.

ولا نملـك فـي هـذا الصدد إلا أن نقارن إتجاه "فيكتور فرانكل" في نظريته وعلاجـه بأعمال سالفه "سيجموند فرويد". فكلاهما طبيبان تكرسا أساساً للبحث عن طبـيعة الأمراض النفسية وعلاجها. يجد "فرويد" جذور هذه الاضطرابات المضنية في القلق الذي تسببه الدوافع اللاشعورية والمتصارعة.

أما "فرانكل" فإنه يميز أشكالاً عدة من المرض النفسي، وتتبع بعضاً منها، مثل (الأمـراض النفسية معنوية المنشأة)، ويعزوها إلى فشل الشخص صاحب المعاناة فـي أن يجـد معنـى وإحساساً بالمسئولية إزاء وجوده. وإذا كان "فرويد" قد اهتم بالإحـباط في الحياة الجنسية، فإن "فرانكل" يهتم بالإحباط في "إرادة المعنى". ونجد فـي أوروبـا والعـالم تحـولاً ملحوظاً عن "فرويد"، وفي المقابل نجد تبنياً واسع الانتشار لما يعرف بـ "التحليل الوجودي" الذي يأخذ أشكالاً متعددة متقاربة – ومن بينها مدرسة العلاج بالمعنى. ومما يميز نظرية "فرانكل" أنها نظرية متسامحة، فهي لا تنـبذ "فرويد"، ولكنها تبنى بسرور فوق إسهاماته؛ كما أن "فرانكل" لا يدخل في عراك مع الأشكال الأخرى من العلاج الوجودي، وإنما يرحب بالتفاعل معها.

إن القـصة الحالـية، رغـم أنها قصيرة، لكنها مبنية بإحكام وبفن. لقد قرأتها مـرتين في جلسة واحدة، ولم أستطع أن أتركها لبرهة واحدة. في ثنايا هذه القصة يعـرض "فرانكل" لفلسفته عن العلاج بالمعنى، ويقدمها برفق وتدرج مع استمرار القصة. وحين ينتهي القارئ من الكتاب، فإنه يتحقق من أنه كان أمام دراسة موغلة في العمق، وليست مجرد حكاية مفجعة خَبِرها "فرانكل" في معسكرات الاعتقال.

فالقارئ يتعلم الكثير مما يحويه هذا الكتاب عن السيرة الذاتية للمؤلف. يعرف القارئ ما الذي يفعله الكائن الحي الإنساني حينما يتحقق فجأة من أنه "لا يملك شيئاً يفقـده عـدا حياته المتعرية بطريقة تبعث على السخرية". وما يقدمه "فرانكل" من وصـف للـتدفق المختلط للانفعال والبلادة، إنما يستوقفنا كي ندرك كنهه. ففي هذه الحالـة ينـتاب الـشخص فـي البداية برود مشوب بالدهشة إزاء قدره. ثم تراوده بـسرعة أيـضاً إستراتيجيات هادفة إلى المحافظة على بقايا حياته، رغم أن فرص الـبقاء ضـئيلة. وما يخبره المرء في هذه الحالة من جوع ومذلة وخوف وغضب عميق من الظلم، قد أضحى أعباءً يمكن تحملها بواسطة الصور التي تراود مخيلته عـن الـشخص المحـبوب، أو بواسطة الدين، أو بواسطة إحساس عميق بالمرح والدعابـة، أو حتى بواسطة النظرة إلى الجمال البرئ للطبيعة كشجرة أو كغروب شمس.

لكـن لحظات الارتياح هذه لا توفر الأساس لبناء إرادة الحياة إلا إذا ساعدت الـشخص على أن يتوصل إلى إحساس أكبر إنطلاقاً من معاناته المشوبة بالبلادة. هـنا نقف على الفكرة الرئيسية للوجودية: فلكي تعيش عليك أن تعاني، ولكي تبقى علـيك أن تجـد معنى للمعاناة. وإذا كان هناك هدف في الحياة، فإنه يوجد بالتالي هدف في المعاناة وفي الموت. ولكن لا يوجد شخص يستطع أن يُخْبِر الآخر بماهية هـذا الهـدف أو يـسأله عن هذا الهدف. فعلى كل شخص أن يكتشف هذا الهدف لنفسه، وأن يتقبل المسئولية التي تحددها إجابته عن ماهية هدفه. وإذا نجح في ذلك، فإنـه سـوف يستمر في النمو رغم كل الهوان. وفي هذا الصدد نجد أن "فرانكل" تـواق إلى أن يقتبس عن "نيتشه" عبارته التي تقرر: "أن من يجد سبباً يحيا به، فإن في مقدوره غالباً أن يتحمل في سبيله كل الصعاب بأية وسيلة من الوسائل".

إن كـل موقف في معسكر الاعتقال من شأنه أن يهدد السجين بفقدانه لتماسكه بنفـسه. كـذلك قـد تخضع كل الأهداف المألوفة في الحياة للمسخ والأفول. أما ما يتبقـى فهو "آخر ما في الحريات الإنسانية" – قدرة الإنسان على "أن يختار اتجاهه مـن بـين مجموعة من الظروف". هذه الحرية الغائية، التي اعترف بها الفلاسفة الـرواقيون القدامـى وكـذلك الوجوديـون المحدثون، تحتل مكانة مهمة في قصة "فـرانكل". فـإذا كـان المسجونون هم أشخاص عاديون فحسب فإن بعضهم على الأقـل، باختيارهم أن يكونوا "جديرين بمعاناتهم"، قد أثبتوا مقدرة الإنسان على أن يعلو فوق قَدرَه الخارجي.

والمؤلـف – كمعـالج نفـسي – يريد، بطبيعة الحال، أن يعرف كيف يمكن مـساعدة الإنـسان على الوصول إلى هذه المقدرة الإنسانية المتميزة، ويفهم كيف يـستطيع أن يوقظ في المريض الشعور بأنه مسئول أمام الحياة، مهما بدت ظروفه قاسـية؟ يقدم لنا "فرانكل" أيضاً بعض طرق العلاج الجمعي التي جربها مع زملائه المسجونين.

يـضيف "فرانكل"، بناء على رجاء من الناشر، إلى سيرته الذاتية عن خبراته في معسكر الاعتقال جزءاً آخر يعرض فيه للمبادئ الرئيسة للعلاج بالمعنى. وقبل ذلـك كانت معظم الكتب والدراسات المنشورة عن "مدرسة فيينا" الثالثة في العلاج النفـسي (قـبلها مدرستا "فرويد وآدلر") تصدر باللغة الألمانية أساساً. لذلك سوف يرحب القارئ بهذا الجزء المضاف عن المبادئ الرئيسة للعلاج بالمعنى.

ويعتبـر "فرانكل"، خلافاً للكثير من الوجوديين الأوربيين، ليس مفكراً متشائماً ولا معادياً للدين. وعلى العكس من ذلك، فإن القارئ الذي يواجه كل المعاناة وقوى

الـشيطان، إنمـا يخـرج بنظرة مفعمة بالرجاء والأمل في مقدرة الإنسان على أن يسمو فوق حالته ومتاعبه وأن يكتشف الحقيقة الملائمة الموجهة له.

وأنـي لأوصي من كل قلبي بقراءة هذا الكتاب الصغير، لأنه عبارة عن درة نفيـسة لقـصة درامية، تلقي الضوء على أعمق المشكلات الإنسانية. ولهذا الكتاب جدارتـه العلمية والفلسفية؛ ولذا يقدم لنا مدخلاً حتمياً لأعظم حركة في علم النفس في عالمنا المعاصر.

جوردون أولبورت
أستاذ علم النفس
جامعة هارفرد

١

الجزء الأول

خبرات في معسكر اعتقال

الجزء الأول
خبرات في معسكر اعتقال

لا ندعـــي بهـــذا الكتاب أن نقدم عرضاً لعدد من الحقائق والوقائع وإنما نقدم لخبـــرات شخـــصية ... خبرات يعانيها ملايين المسجونين من وقت لآخر. الكتاب الحالـــي قصة داخلية لخبرات في معسكر اعتقال. رواها أحد نزلائه الذين بقوا فيه علـــى قـــيد الحياة. وهي قصة لا تهتم بأحداث الرعب والفزع الهائلين، مما جرى وصـــفه بالفعـــل بدرجـــة كافية (رغم أنها قلما تُصَدقّ)، وإنما تهتم بألوان التعذيب الـــصغيرة والمتعددة. وبقول آخر، تحاول هذه القصة أن تجيب عن السؤال التالي: كيف كانت الحياة اليومية في معسكر الاعتقال تنعكس في عقل السجين؟

لـــم تقـــع معظم الأحداث الموصوفة هنا في المعسكرات الكبيرة والمشهورة، ولكنها وقعت في المعسكرات الصغيرة حيث تجري معظم عمليات الإبادة الحقيقية. هذه القصة ليست عن موت الأبطال والشهداء العظام ومعاناتهم، ولا عن رجال الـــ "كابـــو" Capo المشهورين وهم المسجونين المعروفين جيداً. لذا لا تهتم هذه القصة كثيـــراً بمعانـــاة العظماء، ولكن تهتم بالتضحيات والمحن والموت لجيش ضخم من الـــضحايا غيـــر المعروفين وغير المسجلين. لقد كانوا أولئك المسجونين العاديين، الـــذين لـــم يحملوا أية علامات مميزة على أكمامهم، وإنما كانوا في الواقع موضع ازدراء رجال الكابو. وبينما كان لدى هؤلاء المسجونين العاديين القدر الضئيل مما يأكلونه أو لم يكن لديهم ما يقتاتونه، فإن رجال الكابو لم يتعرضوا للجوع قط؛ وفي الحقـــيقة أن الكثير من الكابو قد صارت حالتهم في المعسكر أحسن مما كانوا عليه فـــي حـــياتهم بـــصفة عامة. وغالباً ما كانوا أشد ضراوة من الحراس في معاملة المـــسجونين، فكانوا يكيلون لهم الضربات بقسوة مبرحة أكثر مما كان يفعل رجال الـــــ "س. س" (S.S). وهؤلاء الكابو كانوا يُختارون بالطبع من أولئك المسجونين الـــذين كانت أخلاقهم وطبائعهم تقدم أساساً كافياً لقيامهم بتلك الإجراءات على نحو ملائـــم ومقبول؛ وإذا لم يذعنوا لما هو متوقع منهم، فإنهم ينتقصون من رتبهم على الفـــور. لـــذا سرعان ما غدوا أشبه برجال الـــ "س. س" وآمري المعسكر، وربما يمكن تقييمهم وفقاً لأساس سيكولوجي مماثل.

قد يكون من السهل بالنسبة للشخص الخارجي أن يحصل على تصور خاطئ لحـياة المعسكر؛ وهو تصور يقوم على مزيج من العطف والشفقة، وعلى المعرفة القلـيلة ممـا يحدث من الكفاح الشاق من أجل البقاء؛ وهو الكفاح الذي يحتدم بين المـسجونين، ويكون في العادة نضالاً قاسياً من أجل الخبز اليومي ومن أجل الحياة ذاتها؛ كل ذلك في سبيل الشخص ذاته أو في سبيل صديق حميم.

*

ولنأخذ حالة الإقصاء والنقل التي كان يعلن عنها رسمياً لترحيل عدد معين من المسجونين إلى معسكر آخر؛ وهي حالة تنطوي على تخمين صادق إلى حد ما بأن المـصير النهائي لهذا النقل هو غرف الإعدام بالغاز. كان يجري انتقاء للمسجونين المرضـى أو الـضعاف غيـر القادرين على العمل ليرسلوا إلى أحد المعسكرات الرئيـسة الكبيـرة المعـدة إعداد جيداً بغرف الإعدام بالغاز وبأفران إحراق جثث الموتـى. وكانـت عملـية الانـتقاء هـذه بمثابة إشارة لقيام حرب حرة بين كل المسجونين، أو بين مجموعة ومجموعة. فكل ما كان يرجوه الواحد هو أن يشطب اسـمه واسـم صديقه من قائمة الضحايا، رغم أن كل فرد كان يعرف أنه مع كل شخص يتم إنقاذه توجد ضحية أخرى تحل محله.

وقـد كان هناك عدد محدد من المسجونين لابد أن يذهب مع كل عملية ترحيل ونقل. ولم يكن مُهماً من الذي يقع عليه الاختيار بالترحيل، طالما أن كل واحد منهم لـيس إلا رقماً من الأرقام. فعند إدخالهم المعسكر (وكانت هذه هي الطريقة المتبعة علـى الأقل في معسكر آوشويتز) كانت تؤخذ منهم كل وثائقهم، وأي أشياء أخرى تكـون في حوزتهم. لذا كان أمام كل سجين فرصة لكي ينتحل لنفسه اسماً أو عملاً أو مهـنة وهمـية؛ ولأسباب عديدة لجأ كثير منهم إلى ذلك. وكان اهتمام السلطات مـوجهاً إلى أرقام الأسرى دون غيرها. وهذه الأرقام كانت تطبع غالباً كوشم على جلـدهم، كما تحاك أيضاً على موضع معين من سراويلهم أو معاطفهم أو أي سترة يـرتدونها. وأي حارس يود أن يوجه اتهاماً ما أو ضربة ضد سجين، فما عليه إلا أن يحلـق فقـط فـي رقمه (وكم كنا نفزع لتلك النظرات القاسية)؛ ولم يكن ليسأل الشخص أبداً عن إسمه، فالرقم هو المهم.

نعود الآن إلى قافلة الرحيل، ونبدأ أول ما نبدأ بأن نذكر أنه لم يكن هناك وقت ولا رغـبة في أن توضع المسائل المعنوية أو الأخلاقية في الاعتبار. فكان يسيطر علـى كل شخص فكرة واحدة فقط، وهي: أن يظل على قيد الحياة من أجل الأسرة التـي تنتظره في المنزل، وأن ينقذ أصدقاءه. لذلك كان عليه ألا يتردد في أن يتخذ

التـــرتيبات اللازمـــة لإعـــداد ســـجين آخر، أو (رقم) آخر، ليأخذ مكانه في عملية الترحيل.

وقـــد كانت عملية اختيار رجال الكابو، كما سبق أن ذكرت، عملية سلبية؛ فلم يكـــن يُخْـــتار لهذه المهمة إلا أكثر المسجونين شراسة ووحشية (رغم وجود بعض الاستثناءات الطيبة). ولكن بجانب عملية انتقاء الكابو مما كان يجري تحت إشراف الـــــ "س س"، كانـــت هـــناك عملـــية انـــتقاء ذاتي مستمرة طيلة الوقت بين كل المـــسجونين. وبـــصفة عامة، كان أولئك المسجونين الذين بقوا على قيد الحياة بعد ســـنوات مـــن التنقل من معسكر لآخر – هم فقط أولئك الذين فقدوا كل رجاء في نضالهم من أجل الوجود. لقد كانوا على استعداد لاستخدام كل وسيلة، شريفة وغير شـــريفة، وللجـــوء إلى القوة الوحشية، والسرقة أو الخيانة لأصدقائهم، وذلك لأجل إنقاذ أنفسهم. أما نحن الذين قدرت لهم العودة، بفضل مصادفات سعيدة أو معجزات كبيرة – مهما سميناها – فإننا نعرف: أن أفضل الأشخاص منا لم تقدر لهم العودة.

بين الذاتية والموضوعية :

والواقع أن الكثير من الأوصاف الحقيقية عن معسكرات الاعتقال محفوظة في ســـجلات بالفعـــل. غير أن هذه الحقائق لن تكون ذات دلالة إلا بقدر ما ينظر إليها كجـــزء من خبرات الشخص؛ وما يحاول هذا السرد في هذا الكتاب أن يصفه لهو الطبيعة الحقيقية لهذه الخبرات.

وســـوف يحـــاول هذا السرد تفسير خبرات نزلاء المعسكر في ضوء المعرفة اليومـــية الجاريـــة. أما أولئك الذين لم يخبروا حياة المعسكرات، فقد يساعدهم هذا الـــسرد علـــى فهـــم خبرات نسبة مئوية ضئيلة من المسجونين الذين بقوا على قيد الحـــياة والذين يجدون الحياة الآن صعبة للغاية. وغالباً ما يقول هؤلاء المسجونين الـــسابقون: "أننا نبغض الحديث عن خبراتنا. ومن كان بداخل هذه المعسكرات ليس بحاجة إلى إيضاحات أو تفسيرات، أما الآخرون فسوف لا يفهمون ما كنا نشعر به آنذاك ولا كيف نشعر به الآن".

من الصعب جداً أن نحاول تقديم عرض منهجي للموضوع، ومعروف أن علم الـــنفس يـــتطلب قدراً خاصاً من التجرد العلمي. ولكن هل يمكن للشخص السجين الـــذي يأتـــي بملاحظاته عن نفسه وهو سجين أن يمتلك هذا القدر الضروري من التجـــرد؟ إن مـــثل هذا التجرد موكول إلى الشخص الخارجي؛ وهذا الشخص بعيد عن الموقف ومعزول عنه لدرجة تجل تعبيره بعيداً عن المطابقة للواقع وبذلك يفتقد

قيمة الصدق؛ ولهذا فإن تجرد الشخص الخارجي يستبعد تماماً إمكانية التوصل إلى تقريـرات ذات قـيمة حقيقـية. فالذي يعرف الواقع هو الشخص الموجود بداخل المعـسكرات. وهذا قد يعني أنه لا يكون موضوعياً في أحكامه أو معتدلاً ومعقولاً فـي تقييماته. ولكن هذا أمر لا مفر منه. ومع ذلك، فلابد من القيام بمحاولة لتجنب أي تحيز شخصي – وتلك هي الصعوبة الحقيقية لكتاب من هذا النوع.

ففي بعض الأوقات سيكون من الضروري أن نتذرع بالشجاعة كي نحكي عن خبـرات شخـصية للغايـة. ولقد قصدت أن أكتب هذا الكتاب خالياً من الأسماء، مـستخدماً رقمي في السجن لا غير. ولكن حينما تم استكمال هذا المخطوط، رأيت أنـه سوف يفقد نصف قيمته إذا نشر خالياً من الأسماء، وأنه لذلك ينبغي أن تكون لـدى الـشجاعة أن أذكـر ما اقتنعت به بصراحة تامة. ومن ثم، فقد أحجمت عن شطب أية فقرة من الفقرات، رغم كراهيتي الشديدة للاستعراضية.

وسـوف أترك هذا الكتاب للآخرين كي يقوموا بتقطير محتوياته وباعتصارها إلـى نظـريات خالـية من التحيز. وقد تصبح هذه النظريات إسهاماً لسيكولوجية المعانـاة والقهـر، ومـثالها حياة السجن. وهذه النظريات قد خضعت للبحث بعد الحرب العالمية الأولى، وعرفتنا بمتلازمة "مرض الأسلاك الشائكة"(١). أما الحرب العالمـية الثانـية، فإننا مدينون لها لأنها قد أغنت معرفتنا بـ "علم النفس المرضي للجماهيـر" أو "سيكوباثولوجيا الجماهير"(٢)، لأن الحرب قد أعطتنا حرباً للأعصاب كما أعطتنا معسكراً للاعتقال.



إرادة الحياة :

ولمـا كانـت هذه القصة عن خبراتي كسجين عادي، فمن الأهمية أن أذكر، ولـيس بـدون فخـر، أنـي لم أُستخدم للعمل كطبيب نفسي في المعسكر، أو حتى كطبيب عام، إلا في الأسابيع القليلة الأخيرة. ولقد كانت هناك قلة من زملائي على درجة من الحظ كافية بأن تستخدم في مواقع رديئة التدفئة لتعمل في تقديم إسعافات أولـية عن طريق عمل ضمادات من قصاصات فضلات الورق. ولكني أنا لم أكن

---

(1) Bared wire sickness

(2) Psychopathology of the Masses

يمثل هذا المصطلح شكلاً مختلفاً لعبارة مشهورة ولعنوان كتاب من تأليف "ليبون Le Bon"، وذلك إذا كان لي أن أشتقه على هذا النحو.

سوى "الرقم" ١١٩ و١٠٤، وكنت في معظم الأوقات أقوم بالحفر لوضع العوارض الخشبية اللازمة لمد الخطوط الحديدية. وكان عملي في وقت من الأوقات هو أن أحفر نفقاً، بدون أية مساعدة، لممر مائي تحت طريق من الطرق. وهذا العمل البطولي لم يذهب هباء بلا جزاء؛ فقبل عيد الميلاد في عام ١٩٤٤، تلقيت هدية يطلق عليها "جائزة الكوبونات". وقد منحت هذه الكوبونات لنا شركة للبناء، كان المعسكر قد باعنا فعلاً إليها كعبيد: فقد دفعت الشركة لسلطات المعسكر سعراً ثابتاً كل يوم عن كل سجين. وكانت الكوبونات تكلف الشركة خمسين "فنخ" (جزء صغير من المارك الألماني) لكل سجين، ويمكن أن تستبدل جميعها بست سجائر تبقى لعدة أسابيع، رغم أنها في بعض الأحيان كانت تفقد قيمتها بصفة نهائية. ولقد صرت الرابح الفخور بجزاء إستحق اثنتا عشر سيجارة. ولكن ما هو أهم من ذلك، أن السجائر يمكن استبدالها بإثنى عشر طبقاً من الحساء، وغالباً ما كان هذا القدر من الحساء إرجاء حقيقياً للموت من الجوع.

أما ميزة تدخين السجائر بالفعل فقد احتفظ بها رجل "الكابو" الذي كانت له حصته المضمونة من الكوبونات الأسبوعية؛ ومن الممكن للسجين الذي يقوم بعمل يشبه عمل رجل الإطفاء في إطفاء منزل أو متجر مشتعل مثلاً، أن يتلقى بعضاً من السجائر القليلة في مقابل إتيانه بأعمال خطرة.

والاستثناءات الوحيدة من ذلك كانت أولئك الذين فقدوا إرادة الحياة وابتغوا أن "يستمتعوا" بأيامهم الأخيرة. لذلك، فعندما كنا نرى زميلاً يدخن سجائره، فإننا كنا نعرف أنه قد فقد الثقة في قدرته على المواصلة؛ وعندما تُفقد الثقة، فإن إرادة الحياة نادراً ما تعود.

الصدمة هي الطور الأول لردود الأفعال النفسية

حينما يتفحص شخص ذلك القدر الهائل من المادة التي تكومت نتيجة لملاحظات كثيرة من المسجونين وخبراتهم، تتضح أطوار ثلاثة تمر بها ردود الأفعال العقلية لدى النزيل حيال حياة المعسكر، وتتحدد هذه الأطوار بفترات ثلاث، وهي: الفترة التي تعقب إدخاله المعسكر مباشرة؛ والفترة التي يكون فيها قد اندمج تماماً في نظام المعسكر؛ ثم الفترة التي تعقب إطلاق سراحه وتحرره.

تتمثل الأعراض التي تميز الطور الأول فيما يمكن أن نسميه بمرحلة الصدمة. وفي ظروف معينة قد يسبق الصدمة الإيداع الشكلي للسجين بالمعسكر. وسأعرض، على سبيل المثال، ما أحاط بي شخصياً من ظروف عند إدخالي إلى المعسكر.

فقد جرى ترحيل خمسة عشر آلاف سجين بالقطار لعدة أيام وعدة ليال: وكان في كل عربة ثمانون شخصاً. وكان على الجميع أن يستلقوا على حقائبهم، وهي البقايا القليلة المتبقية لهم من ممتلكاتهم الشخصية. وكانت العربات مكتظة، ولم يبق إلا الأجزاء العليا من النوافذ مما يسمح بدخول بصيص من ضوء الفجر. وقد توقع كل شخص أن يتوجه القطار إلى أحد مصانع الذخيرة، حيث نستخدم للقيام بعمل بالإكراه. ولم نكن نعرف ما إذا كنا لا نزال في "سيليسيا" أم أننا نوجد بالفعل في بولندا. وكان لصافرة القاطرة صوت غريب، أشبه بصرخة من أجل النجدة تطلق كرثاء لحشد غير سعيد من الآدميين يُساق كل منهم إلى الهاوية. ثم تحول خط القطار، ليقترب بوضوح من محطة رئيسية. وفجأة تفجرت صرخة من بين صفوف المسافرين القلقين: "هناك ما يوحي بأننا في الآوشويتز!" في هذه اللحظة تهاوت ضربات قلب كل فرد. "الآوشويتز" – إسم ينطوي على كل رعب وهلع: غرف الإعدام بالغاز، محرقات الجثث، والمذابح. وببطء، وغالباً بتردد، تحرك القطار كما لو أنه يريد أن يخفف عن ركابه ذلك المصير المفزع لأكبر فترة ممكنة بقدر الإمكان: الآوشويتز!.

ومع توالي ضوء الفجر، غدت معالم معسكر هائل بادية للعيان: طرقات عديدة طويلة ممتدة ذات سياج من الأسلاك الشائكة؛ أبراج للمراقبة؛ أضواء كاشفة؛ وصفوف طويلة من نماذج بشرية تَمَكّن منها الوهن والتمزق، تبدو باهتة في ضوء الفجر الشاحب، تتحرك عبر الطرق الممتدة المقفرة إلى مصير لا نعرفه. وكانت تتعالى صيحات الأوامر وصفير القيادة، ولم نكن ندرك معناها. وقد وصل بي

تخيلـــي إلـــى أن أرى مـــشانق يتدلـــى أشخاص منها. وتملكني الرعب؛ ولكن هذا الإحـــساس أخـــذ ينجلـــي، لأنـــه كان علينا أن نتعود تدريجياً على الرعب والفزع الهائلين.

وفـــي النهاية تحركنا داخل المحطة. وأخذت الصيحات المتتالية بالأوامر تقطع مـــا عهـــدناه من سكون. وكان علينا من الآن فصاعداً أن نسمع تلك النبرات الفظة الصاخبة، ونسمعها على نحو متكرر مستمر في كل أرجاء المعسكر. وكان صوتهم فـــي الغالب أشبه بالصيحة الأخيرة التي يوجهونها لضحية من الضحايا، وإن كان يوجد اختلاف في ذلك. فهو صوت أجش ذو خشونة فظة مثيرة للأعصاب، كما لو أنـــه يأتـــي مـــن حنجرة شخص تعود على مثل هذا الصياح... شخص اعتاد القتل لمـــرات متكـــررة. وفجأة انفتحت أبواب العربة بعنف، وبدت مجموعة صغيرة من المـــسجونين فـــي الانـــدفاع داخل العربة. وكانوا يرتدون زياً مجرداً من الألقاب؛ رؤوســـهم محلـــوقة، ولكنهم كانوا يبدون حسني التغذية. ويتكلمون بكل لغة أوربية ممكـــنة. وهم جميعاً يبدون بقدر معين من المرح، وذلك مظهر غير طبيعي بالنسبة لهـــذه الظروف. وكإنسان غريق يتعلق بقشة، تشبث تفاؤلي الفطري (وهو إحساس غالـــباً مـــا أدى إلـــى ضبط مشاعري حتى في معظم المواقف الباعثة على اليأس والقـــنوط) بهذه الفكرة: أن هؤلاء المسجونين يبدون في حالة حسنة، وبروح طيبة مرحة. فمن يعلم؟ ربما كان عليّ أن أتدبر كيف أشاركهم وضعهم الطيب.

الوَهْم:

في الطب النفسي توجد حالة معينة تعرف بمصطلح "وَهْم الإبراء"(١). في هذه الحالـــة يتملك الشخص المُدان، فوراً قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، شعور عام غامض يـــشبه الوهم بأنه سوف يجري إنقاذه من الإعدام في اللحظة الأخيرة. ونحن أيضاً كنا نتعلق بكل ما كان يوحي بالأمل، وكنا نعتقد في اللحظة الأخيرة بأنها لن تكون خاتمـــة سيئة. وقد كان مجرد إلقاء نظرة على الخدود المتوردة والأوجه المستديرة لهـــؤلاء المـــسجونين باعثاً كبيراً على التشجيع. ولم نكن نعلم عندئذ إلا لُماماً بأن هـــؤلاء الأشـــخاص يؤلفون صفوة مختارة بصفة خاصة، ظلت لعدة سنوات بمثابة الـــشرذمة التي تستقبل النزلاء المنفيين الذين يتدفقون على المحطة يوماً بعد الآخر. وكانـــوا يتولون أمر العناية بالوافدين الجدد وبأمتعتهم، بما في ذلك الأشياء النادرة والمجوهـــرات المخبأة المهربة.. لقد كان معسكر آوشويتز بقعة غريبة في أوروبا

(1) Delusion of Reprieve

فـي الـسنوات الأخيـرة للحرب، وذلك لما كان يحويه من كنوز فريدة من الذهب والفـضة والبلاتـين والماس، ولم يقتصر هذا على ما في المستودعات والمخازن الضخمة، وإنما كان كذلك في أيدي رجال الـ "س س".

لقد كان على ألف وخمسمائة من الأسرى المقيدين أن يتجمعوا تحت سقيفة لم يقصد بها عند بنائها أن تتسع لأكثر من مائتي شخص. وقد تمكن البرد والجوع منا تمكـناً شديداً، ولم يكن هناك موضع لقدم يسمح لكل فرد بأن يجلس القرفصاء على الأرض المكـشوفة أو يضجع عليها. وكان نصيبنا من الطعام في أربعة أيام كاملة هـو عبارة عن قطعة من الخبز تزن حوالي خمس أوقيات. وقد سمعت المسجونين القدامـى المشرفين على هذه السقيفة يساومون أحد أعضاء شرذمة الاستقبال على دبـوس لـرباط العنق مصنوع من البلاتين والماس... وقد كان يجري في النهاية مقايـضة معظم المكاسب بأنواع معينة من الخمور، ولا أتذكر كم كان مطلوباً من آلاف الماركـات الألمانية لشراء الكمية من الخمور اللازمة لإقامة "سهرة مرحة"، ولكني أعلم أن هؤلاء المسجونين المخضرمين كانوا في احتياج شديد لهذه الخمور. ومن ذا الذي يستطيع أن يلقي باللائمة عليهم في مثل ظروفهم لانغماسهم في إدمان الخمـور؟ وكان هناك مجموعة أخرى من المسجونين الذين يحصلون على الخمور بكمـيات غيـر محدودة وذلك بواسطة رجال الـ "س س": هؤلاء المسجونين هم أولـئك الأشـخاص الـذين يعملون جيداً في غرف الإعدام بالغاز ومحرقات جثث الموتـى، والذين يعلمون جيداً أنهم سوف يستبدلون بغيرهم، وأنه عليهم التخلي عن دورهم القوي كمنفذين وأن يصبحوا هم أنفسهم الضحايا.

إن كل فرد تقريباً من النزلاء المنفيين كان يعيش تحت سيطرة وَهْم بأنه سوف يفرج عنه وبأن كل شيء سوف يكون على ما يرام. ولم نكن لندرك المعنى الكامن وراء المـشهد الذي يلي الموقف الحاضر. فقد أمرونا بأن نترك أمتعتنا في القطار وبـأن نصطف في طابورين – النساء في جانب والرجال في جانب آخر – وذلك لكي يستعرضهما ضابط كبير من رجال الـ "س س". ومما يبعث على الدهشة تلك الشجاعة التي واتتني، حين قمت بتخبئة جراب المؤونة تحت معطفي. ومر الطابور الـذي كنت فيه أمام الضابط رجلاً بعد الآخر. وأدركت أنه من الخطر أن يكتشف الـضابط حقيبتـي. وأقـل مـا كان سيفعله بي هو أن يطرحني أرضاً ويصرعني بوحـشية – وهـذا مـا أعرفه من خبرتي السابقة. وبدافع غريزي، تمالكت نفسي واسـتجمعت شـجاعتي حينما أوشكت على الاقتراب من الضابط، حتى لا يرى ما معـي مـن حمل ثقيل. ثم أصبحت أمامه وجهاً لوجه. لقد كان رجلاً طويل القامة،

يـــبدو نحيلاً ومنضبطاً في زيه الملائم له. وكم كان ذلك على النقيض منا، فقد كان الوسخ والإهمال باديين بوضوح علينا بعد رحلتنا الطويلة! ولقد اصطنع هذا الرجل مظهراً يوحي بالطمأنينة وعدم الاضطراب، سانداً ساعده الأيمن على يده اليسرى. أما يده اليمنى فكانت مرفوعة؛ وكان يشير بإصبعه السبابة من اليد اليمنى في تؤدة وهـــدوء ذات اليمـــين أو ذات اليـــسار. ولم يستطع أي شخص منا أن يتوصل إلى أبـــسط فكرة عن المعنى الشرير وراء تلك الحركة الصغيرة التي يأتيها هذا الرجل بإصـــبعه، مـــشيراً تـــارة صوب اليمين وأخرى صوب اليسار، وإن كان يشير في الغالب نحو اليسار.

جاء دوري. وقد همس أحد الأشخاص لي بأن إرسالي إلى الجانب الأيمن إنما يعنـــي العمـــل، فـــي حين أن الجانب الأيسر كان للمرضى والعاجزين عن العمل، وهؤلاء يرسلون إلى معسكر خاص. وما كان مني إلا أن انتظر حتى تأخذ الأشياء مجـــراها. كـــان جراب المؤونة الذي أخفيه ثقيلاً بحيث جعلني أميل قليلاً إلى جهة اليـــسار، ولكنـــي اســـتجمعت كل قواي حتى أسير معتدلاً في مشيتي. وتفحصني الـــضابط بنظرة بدا منها تردده، ثم وضع كلتا يديه على كتفي. وحاولت جاهداً أن أبدوا متماسكاً، وأدار الضابط كتفي ببطء شديد حتى صارت وجهتي صوب اليمين الذي تحركت في اتجاهه.

إن مغزى حركة الإصبع قد جرى شرحه لنا في المساء؛ إذ كان هذا هو الفرز الأول أو الحكـــم الأول الذي صدر بشأن الوجود أو العدم. لقد كان هذا الحكم يعني الموت بالنسبة للغالبية العظمى من الأسرى – ما يقرب من ٩٠% منهم. وكان تنفيذ الحكـــم يتم في غضون الساعات القليلة التالية. فأولئك الأشخاص الذين أرسلوا نحو اليسار جرى تسييرهم من المحطة رأساً إلى المحرقات. ولقد كان يعرف هذا المبنى الـــذي يتـــضمن المحرقات – كما ذكر لي أحد الأشخاص الذين عملوا به – بكلمة "حَمَّـــام"، وهـــي مكـــتوبة على أبوابه بلغات أوربية عديدة. وعند دخوله، كان كل مسجون يحمل في يده قطعة من الصابون – ولكني إشفاقاً مني على القارئ لا أريد وصف الأحداث التي تتبع ذلك. فهناك الكثير من الكتابات عن هذا الرعب.

أمـــا نحـــن الـــذين كُتبت لهم النجاة – وهي القلة من الأسرى – فإننا اكتشفنا الحقـــيقة في المساء. وقد سألت مسجونين هناك لبعض الوقت إلى أين أرسل زميلي وصديقي "ب". فسألوني: "هل أرسل إلى الجانب الأيسر؟ فأجبتهم: "نعم".

فقالوا: "إذن تستطيع أن تراه هناك".

فـسألت: "هناك.. أين؟" فأشارت يد إلى مدخنة على بعد مسافة قريبة، ترسل عموداً من اللهب في سماء بولندا القاتمة، وسرعان ما ينفك اللهب إلى سحابة كئيبة من الدخان.

"ذلك هو مكان صديقك، فهو يسبح صاعداً إلى السماء" – وتلك كانت الإجابة. ولكنـــي بقيت عاجزاً عن الفهم والإدراك حتى شرحوا لي الحقيقة بكلمات صريحة واضحة.

ولكني حين أحكي، فإني أسرد أشياء بغير ترتيبها الصحيح. فمن وجهة النظر النفـسية، كـان أمامنا طريق طويل وطويل جداً بدءً من مطلع ذلك الفجر بالمحطة حتى أول ليلة لنا للبقاء بالمعسكر.

تحـت حراسة مدججة بالسلاح، دَفَعنا الحراس إلى الهرولة من المحطة، عبر أسلاك شائكة مكهربة، واجتزنا المعسكر إلى محطة التنظيف – وبالنسبة لمن اجتاز منا الاختيار الأول كانت محطة التنظيف هذه حَمَّاماً حقيقياً واقعياً. ومرة أخرى نجد تأيـيداً لوهم الإبراء الذي يسيطر علينا. فقد بدى رجال الـ "س س" بشوشين غالباً. وسـرعان مـا اكتـشفنا سبب ذلك. فهم يظهرون لطفاً إزاءنا طالما يرون ساعات نلبسها في أيدينا، وهم يستطيعون إقناعنا بنبرات ذات معان طيبة لكي نعطيهم إياها. ولماذا لا نناولهم كل ممتلكاتنا؟ فقد يأتي يوم يقدمون فيه لنا خدمة مقابل ذلك.

وانتظـرنا في سقيفة تبدو كمكان انتظار يؤدي إلى حجرة للتنظيف والتطهير. وهنا ظهر رجال الـ "س س" وبسطوا على الأرض مناديل كان علينا أن نلقي فيها بكـل مـا لديـنا مـن ممـتلكات وساعات ومجوهرات. وكان من بيننا بعض من المـسجونين الـسذج تساءلوا عما إذا كانوا يستطيعون الاحتفاظ بخاتم زواجهم أو بميدالـية أو بقطعـة تذكاريـة مكتوب عليها "حظ سعيد". ولم يكن أحد منا يدرك الحقيقة بعد – فالحقيقة أن كل شيء سوف يؤخذ منه.

وقد حاولت أن أكسب ثقة أحد المسجونين القدامى. اقتربت منه بخفة ومهارة، وأشـرت إلـى لفافـة مـن الورق بالجيب الداخلي من معطفي وقلت: "أنظر، هذا مخطـوط لكتاب علمي، وأعلم بما ستقوله؛ ولكني أكون شاكراً لو أنجو بهذا الكتاب مع حياتي؛ فهو كل ما يمكن أن انتظره من قَدَري، ولا أستطيع إزاءه أن أتحكم في نفسي. وينبغي أن احتفظ بهذا المخطوط مهما كلف ذلك؛ فهو يتضمن كل عملي في الحياة. هل تفهم ذلك؟".

"نعـم" – لقد بدأ يفهمني. وظهرت على وجهه ببطء تكشيرة ساخطة، امتزجت في البداية بالشفقة، ثم الاستغراب، ثم الدهشة، ثم الاستهزاء، ثم السباب، حتى جأر

بكلمـــة لي إجابة عن سؤالي، وهي كلمة تشيع كثيراً في الألفاظ المتداولة بين نزلاء المعسكر "إخرس". وفي تلك اللحظة رأيت الحقيقة المؤلمة وفعلت ما يتوج المرحلة الأولـــى من استجابتي النفسية: لقد ألقيت جانباً بكل حياتي السابقة ومحوته رغم كل إرادتي.

وفجأة صدرت حركة وسط زملائي المسافرين، الذين كانوا واقفين وكان يعلو وجـــوههم الـــوهن والخوف، ويتفكرون في الأمر مع إحساس بالعجز. ونسمع مرة أخرى صياح الأوامر التي تصدر بأصوات غليظة فظة. وساقونا بالركل واللطمات إلـــى حجـــرة قريبة موصلة إلى الحمام. وهنا تجمعنا حول رجل من الـــ "س س" الـــذي انتظـــر حتى وصلنا جميعاً. ثم قال: "سوف أعطيكم دقيقتين، وسوف أحسب الـــوقت بساعتي. وفي غضون هاتين الدقيقتين عليكم أن تخلعوا كل ملابسكم وتلقوا بكـــل شيء على الأرض حيث تقفون، وإنكم سوف لا تأخذون منها أي شيء معكم عدا الحذاء والحزام أو حمالة البنطلون. وها الآن سوف أبدأ في حساب الوقت!".

وبـــسرعة لا يمكـــن تصورها، قام هؤلاء الأشخاص بالتخلص من ملابسهم. وكلمـــا اقتـــرب الوقت، ازدادت عصبيتهم وصاروا يشدون الأحزمة إلى ملابسهم الداخلـــية في حركات مضطربة، وكذلك يشدون أربطة الحذاء. ثم سمعنا الأصوات الأولـــى الصادرة عن الجلد بالسياط؛ فهناك سياط جلدية كانت تنهال على الأجسام العارية.

بعـــد ذلك ساقونا كقطيع إلى حجرة أخرى لغرض الحلاقة: ،هنا لم يمح الشعر مـــن علـــى رؤوسنا فحسب، بل لم يتركوا أيضاً شعرة واحدة على كل أجسادنا. ثم اقـــتادونا إلـــى الدش، حيث تجمعنا في طابور مرة أخرى. وصار من الصعب أن يتعـــرف أحدنا على الآخر. وبارتياح كبير لاحظ بعضنا أن ثمة ماء حقيقياً يتساقط من الدش.

الوجود المتعري:

وبيـــنما كـــنا ننتظر الدش، أدركنا كنه عُرْيِنا: ففي الحقيقة ليس من شيء لدينا الآن عدا أجسامنا العارية – وهي أجساد متجردة حتى من شعرها – فكل ما نملكه علـــى وجـــه التحديد هو وجودنا المتعري أو المتجرد. وهل هناك من أشياء أخرى تبقت لنا كوصال مادي مع حياتنا السابقة؟ بالنسبة لي كان كل ما تبقى هو نظارتي وحزامي؛ وفيما بعد كان على أن استبدل حزامي بقطعة من الخبز. أما أولئك الذين يشدون على بعض مواضع من أجسادهم أحزمة، كأحزمة الفتق مثلاً، فقد تعرضوا

لإثارة زائدة. ففي المساء جاء السجين الأقدم المسئول عن مجموعتنا ليرحب بنا في كلمة ألقاها وأقسم فيها بأنه سوف يقوم شخصياً بشنق أي شخص "على هذا العامود الخشبي" – مشيراً إلى عارضة خشبية – بمن تسول له نفسه أن يخبئ نقوداً أو مجوهرات أو أحجاراً كريمة في حزامه. وأعلن باعتزاز أنه كنزيل مخضرم قد منحته قوانين المعسكر صلاحية لأن يقوم بذلك.

ثم جاء دور الأحذية، حيث لم تكن الأمور بكل هذه البساطة. فرغم افتراضنا بأننا سوف نحتفظ بها، فقد كان على أولئك الذين يمتلكون زوجاً جيداً من الأحذية أن يسلموه ليأخذوه بدلاً منه زوجاً من الأحذية غير الملائمة. أما الصعوبة الحقيقية في ذلك فقد تعرض لها المسجونين الذين استمعوا إلى نصيحة حسنة المقصد من المسجونين القدامى في الحجرة التي تجمعنا فيها قبل دخول الحمام، والتي بناء عليها قاموا بتقصير الأحذية الطويلة والثقيلة بواسطة قطع الأجزاء العليا منها، ثم أزالوا آثار القطع لكي يخفوا ما فعلوه. أما رجال الـ "س س" فقد بدوا كما لو كانوا ينتظرون هذه الفعلة. فكل من قام بارتكاب هذه الجريمة كان عليه أن يذهب إلى حجرة مجاورة. وبعد فترة سمعنا مرة أخرى ضربات السياط، وصرخات التعذيب لهؤلاء الأشخاص. وقد استغرق ذلك فترة غير وجيزة.

نمط غريب من المرح :

وبهذا فإن الأوهام التي كانت لا تزال تراود بعضنا قد أخذت تتحطم واحدة بعد الأخرى، ليحل بدلاً منها عند معظمنا – وعلى نحو غير متوقع تماماً – إحساس مروع بالفكاهة والمرح. فقد أيقنا تماماً أن ليس لدينا ما نفقده عدا حياتنا المتعرية بشكل يبعث على السخرية.

فحينما بدأ الدش يقطر ماءً، حاولنا جميعاً بصعوبة كبيرة أن نصطنع المرح، سواء نحو أنفسنا أو نحو بعضنا الآخر. فبعد كل ما حدث، فهناك ماء حقيقي ينساب من فتحات الدش!

من حب الاستطلاع إلى الدهشة :

وخلافاً لهذا النوع الغريب من المرح، كان ثمة إحساس آخر يتملكنا: ألا وهو حب الاستطلاع. وكنت قد خبرت هذا النوع من حب الاستطلاع من قبل، وكان ذلك كرد فعل أساسي حيال ظروف غريبة معينة. فحينما تعرضت حياتي ذات مرة للخطر من جراء حادثة حيث كنت أتسلق الجبل، شعرت آنذاك بإحساس واحد في

تلــك اللحظــة الحــرجة، وهــو حب الاستطلاع، وهو إحساس يتعلق بما إذا كنت ســأخرج مــنها حياً أو أن رأسي سوف تدق فيها أو غير ذلك من الإصابات التي يمكن أن تنالني.

لقــد سيطر علينا حب الاستطلاع البارد حتى في هذا المعسكر. وهو إحساس يعــزل العقل على نحو ما من الظروف التي تحيط به والتي يجري اعتبارها بسبب هذا على أنها نوع من الموضوعية. وفي وقت كهذا كان يلجأ الإنسان إلى استزراع هــذه الحالة العقلية كوسيلة للوقاية. ولقد كنا تواقين بقلق لكي نعرف ماذا يمكن أن يحــدث بعــد ذلك؛ وما الذي سينتج، مثلاً، عن وقوفنا في الهواء الطلق أو في برد نهاية فصل الخريف، بأجسادنا العارية المبللة من الدش وهي تكاد أن تتخشب. وفي غــضون الأيــام القليلة التالية كان قد تحول حب استطلاعنا إلى نوع من الدهشة: دهشة تتعلق بالتساؤل التالي: "لماذا لم نصب بالبرد في كل هذه الظروف؟".

وثمة أمثلة كثيرة مماثلة من الدهشة التي كانت تتملك النزلاء الجدد. فقد عرف مــن كــان بيننا من رجال الطب أولاً وقبل كل شيء: "أن الكتب تحكي الأكاذيب"! يقال مثلاً أن الإنسان لا يمكنه البقاء بدون نوم لعدد مقرر من الساعات. وهذا خطأ تمامــاً! لقــد اقتنعت أن هناك أشياء معينة لا أستطيع أن أعملها: لا أستطيع النوم بــدون هذا، أو لا أستطيع الحياة بدون هذا أو ذاك. ففي الليلة الأولى بهذا المعسكر خلــدنا إلــى النوم في فراش يتألف من طبقات، وعلى كل طبقة (ومقاسها من ستة ونــصف قــدم إلــى ثمانية أقدام) يرقد تسعة رجال على الألواح الخشبية مباشرة. ويشترك كل تسعة في الغطاء ببطانيتين. وكان لزاماً علينا، بطبيعة الحال، أن نرقد فقط على جنبنا، متزاحمين ومتراصين في مواجهة بعضنا الآخر. وكان لهذا بعض المزايا بسبب البرد القارس. ورغم أنه كان من المحظور علينا أن نأخذ الأحذية إلى أمــاكن مبيتنا، فإن بعضنا قد استخدمها سراً كوسادة دون مراعاة لتلطخها بالطين. وخلافــاً لــذلك كــنا نــضجع برؤوسنا على أذرعنا المعقوفة. ومع ذلك كان النوم يراودنا، وكنا نجد فيه النسيان للألم ونلوذ بالتخفف منه ولو لساعات قليلة.

وأود أن أذكــر أمــثلة قليلة أخرى تتعلق بالدهشة من قدرتنا على التحمل: فلم يكــن باســتطاعتنا تنظــيف أسناننا، وأنه حتى رغم هذا، ورغم النقص الشديد في الفيتاميــنات، فقــد كانت اللثة والأسنان عندنا أكثر صحة مما كان من قبل. وكان علينا أن نرتدي نفس قمصاننا لمدة نصف عام، إلى درجة أنها كانت تفقد كل معالم كــونها قمــصاناً. وكانت تمر علينا أيام كثيرة لا نستطيع فيها أن نغتسل، حتى ولو جــزئياً، بسبب تجمد المياه في الصنابير؛ ومع ذلك لم تتعرض الأيدي للتقرح برغم

انتـــشار البـــثور علـــيها وحَكّها، وبرغم قذارتها من العمل في التراب. مثال آخر: الـــشخص خفـــيف الـــنوم، والذي اعتاد على أن يضطرب نومه حال سماعه لأقل ضوضـــاء قريبة، يجد نفسه الآن راقداً في التصاق مع زميل له يبعث بشخيره في صـــوت عال على بعد مسافة قصيرة من أذنه؛ ومع ذلك فإنه يسلم نفسه للنوم تماماً رغم كل هذه الضوضاء.

إذا ســـألنا أحـــد الآن عن عبارة "دوستويفسكي" وعن درجة مطابقتها للواقع، وهي العبارة التي تعرف الإنسان بصراحة على أنه كائن حي في مقدوره أن يتعود أي شيء، فإنه يمكن أن نرد عليه بالإجابة التالية:

"نعم، يستطيع الإنسان التعود على أي شيء، ولكن لا تسألنا كيف يتأتى ذلك". فبحوثـــنا النفسية لم تصل بنا حتى الآن إلى تفسير ذلك، كما أننا نحن المسجونين لم نـــصل بعد إلى ذلك الحد الذي تشير إليه عبارة دوستويفسكي. فقد كنا ولا زلنا في المرحلة الأولى من ردود أفعالنا النفسية.

فكرة الانتحار والإحساس بالعدم :

أما فكرة الانتحار، فقد راودت كل شخص منا تقريباً لفترة قصيرة. وقد تولدت هـــذه الفكرة من الإحساس بالعجز حيال الموقف الذي نحن فيه، وتولدت كذلك مما يحـــدق بـــنا من خطر الموت المستمر في كل يوم وفي كل ساعة، ومن دنو سفك دماء الكثيرين.

ولقد أخذت على نفسي منذ الليلة الأولى بالمعسكر عهداً أكيداً، وصلت إليه عن اقتـــناع شخـــصي ســـوف أشير إليه فيما بعد، بأني سوف لا ألجأ إلى "أن اصطدم بالأســـلاك". وتلك كانت العبارة المتداولة في المعسكر لتصف أكثر طرق الانتحار شيوعاً – وهي لمس سياج الأسلاك الشائكة التي تسري فيها الكهرباء. ولم يكن من الصعب بالنسبة إلى أن اتخذ هذا القرار.

فالنـــسبة للنـــزلاء بـــصفة عامة كانت هناك نقطة بسيطة تتعلق بالإقدام على الانـــتحار، وهي أن توقع الحياة كان ضئيلاً للغاية وأن هذا التوقع كان قد بُني على حـــساب موضـــوعي لكـــل الفرص المحتملة. فالنزيل لا يستطيع أن يتوقع مع أي ضـــمان أن يكـــون مـــن بين النسبة المئوية الضئيلة من الرجال الذين اجتازوا كل أشـــكال الاختيار وقُدِّر لهم البقاء. فلم يكن سجين هذا المعسكر، في المرحلة الأولى مـــن الـــصدمة لكل هذه الأسباب، يخاف الموت. وبعد الأيام القليلة الأولى نجد أن غرف الإعدام بالغاز هي بدورها قد فقدت ما تبعثه في السجين من رعب.

أخبرنـــي أصـــدقاء ممـــن قابلتهم فيما بعد أني لم أكن واحداً من أولئك الذين هـــزتهم كثيراً صدمة الدخول. فالابتسامة لم تكن تفارقني حينما توالت الأحداث في الـــيوم التالي بعد تلك الليلة الأولى في المعسكر. وبالرغم من الأوامر الصارمة بألا نبارح مكاننا، فقد استطاع زميل لي، كان قد وصل قبلنا إلى المعسكر بعدة أسابيع، أن يأتـــي إلـــى مكاننا خلسة. لقد أراد أن يخفف من روعنا ويخبرنا ببعض الأشياء القلـــيلة. هـــذا الزميل قد غدا نحيلاً إلى درجة لم نستطع معها أن نتعرف عليه من أول وهلـــة. ولقـــد ســـعى، بنوع من إدعاء المرح ومن الاستخفاف، أن يدلي إلينا ببعض المعلومات السريعة المفيدة: "لا تخافوا! لا تهابوا عمليات الاختيار! فالدكتور "م" – (كبيـــر أطباء الـــ س س) يعامل الأطباء برقة". (وقد كان هذا غير صحيح؛ وكانـــت الكلمـــات الطيبة التي وجهها إلينا هذا الصديق مضللة. فقد أخبرني سجين آخر، وهو طبيب يبلغ من العمر ستين عاماً ومسئول عن الرعاية الطبية لمجموعة مـــن الحجرات، كم توسل إلى الدكتور "م" هذا حتى يخلي سبيل إبنه الذي حكم عليه بالإعدام بالغاز. ولكنه رفض بكل برود).

"لكـــن شـــيئاً واحداً أرجوه منكم" – واستمر الزميل في حديثه إلينا – "هو أن تحلقـــوا ذقونكم يومياً، حتى ولو استلزم ذلك منكم أن تستخدموا قطعة من الزجاج.. وحتـــى لـــو اضـــطررتم إلى تقديم آخر قطعة من الخبز في سبيل ذلك. فأنتم بذلك ســـوف تـــبدون صـــغار السن، ثم أن عملية الكشط هذه سوف تجعل وجناتكم تبدو مـــتوردة اللـــون. وإذا أردتم البقاء أحياءً، فهناك طريق واحد لا غيره: أن تُظهروا قـــدرة كافية على العمل. فإذا عرجتم أثناء المشي بسب وجود جرح بسيط في عقب القـــدم، وإذا لاحـــظ ذلك أحد رجال الـــ "س س"، فإنه سوف ينحيكم جانباً، وسوف يكـــون نـــصيبكم الإعـــدام بالغاز في اليوم التالي. فمن يبدو بائساً وبصحة معتلة، ويعجـــز عن القيام بالأعمال التي تستلزم مجهوداً جسمياً، فإنه سوف يوجه إن آجلاً أو عـــاجلاً إلـــى غـــرف الإعدام بالغاز، لذلك تذكروا ما يلي: احلقوا ذقونكم، قفوا وامـــشوا وأنتم متملكين – في هذه الحالة لن تهابوا الإعدام بالغاز. إن كل من يقف منكم هنا، حتى لو كان قد مضى عليه هنا أربع وعشرون ساعة فقط، لا يجوز أن يخاف الإعدام بالغاز، فيما عدا أنت غالباً. ثم يشير إليَّ ويقول: "أرجو ألا أكون قد ضـــايقتك بصراحتي". ثم يكرر كلامه للآخرين: "إنه من بينكم جميعاً هو الشخص الوحيد الذي ينبغي أن يخاف من عملية الاختيار القادمة. لذا، لا تنزعجوا!".

وابتـــسمت، مقتـــنعاً بـــأن شخص في مكاني في ذلك اليوم لابد أن يسلك كما سلكت.

رد الفعل غير الطبيعي إزاء موقف غير طبيعي هو رد فعل طبيعي :

اعــتقد أن "لسنج" هو الذي قال ذات مرة: "توجد أشياء تؤدي بك إلى أن تفقد عقلــك، وإلا فإنه لا يوجد لديك ما تفقده". ثم إن رد الفعل غير الطبيعي إزاء موقف غيــر طبيعــي هو رد فعل طبيعي. بل إننا الأطباء النفسيون نتوقع أن تكون ردود أفعــال الإنسان إزاء موقف غير عادي، كأن يحول إلى مستشفى للأمراض العقلية، تكون ردود أفعال غير سوية قياساً إلى درجة سوائه. وفي ذلك يمثل أيضاً رد فعل الإنــسان إزاء إدخاله معسكر اعتقال حالة غير سوية للعقل؛ ولكن إذا حكمنا عليها موضوعياً فإنها تعتبر حالة سوية، وأنها – كما سنشير إلى ذلك فيما بعد – رد فعل طبيعــي تجــاه مثل هذه الظروف. هذه الاستجابات قد بدأت تتغير في غضون أيام قليلة. يتضح ذلك في انتقال السجين من الطور الأول إلى الثاني؛ وهو طور البلادة النسبية، حيث يصل به إلى نوع من الموت الانفعالي.

البلادة والموت الانفعالي
هما الطور الثاني لردود الأفعال النفسية

بجانب هذه الاستجابات، يعيش السجين الوافد حديثاً ألواناً من الانفعالات المؤلمة التي يحاول أن يميتها، وفي مقدمتها تشوقه العارم لبيته ولأسرته. وغالباً ما يغدو هذا الإحساس حاداً إلى درجة يشعر معها بالاستنفاذ والوهن من هذه اللهفة. ويعقب ذلك حالة من الاشمئزاز والتقزز من كل ما يحيط به من قبح وبشاعة، حتى في مجرد أشكالهما الخارجية.

لقد تلقى المسجونون بزة من ثياب رثة مهلهلة، ومع ذلك فإنها بدت أنيقة بالنسبة للظروف التي نعيشها. وبين الأكواخ التي ننزل فيها بالمعسكر تتراكم القاذورات؛ وكلما نعمل على التخلص منها، نغدو أكثر التصاقاً بها. وكان من الأساليب المفضلة أن يوكل للسجين الجديد مهمة تنظيف المراحيض والبالوعات. فإذا حدث أن بعضاً من البراز قد تناثر على وجهه أثناء نقله عبر أراضي وعرة، وإذا حدث أنه أبدى أية علامة من الاشمئزاز أو حاول إزالة هذه القاذورات، فإنه سوف يتعرض للعقاب بالصفع من رجال الحرس. وهكذا كان يجري التعجيل بإماتة أي رد فعل سوي.

ولا يستطيع السجين في البداية إلا أن يدير وجهه إذا رأى عملية استعراض توقيع العقاب بمجموعة أخرى من المسجونين؛ فهو لا يستطيع أن يتحمل أن يرى زملاءه المسجونين يسيرون صعوداً ونزولاً في مستنقع من الوحل، وتتوجه حركاتهم بواسطة الصفعات التي تُكال إليهم. ولكن الأشياء كانت تتغير بعد أيام أو أسابيع. ففي الصباح الباكر، والدنيا لا تزال ظلاماً، كان السجين يقف في مواجهة البوابة مع كتيبته، استعداداً للسير. وكان يسمع صراخاً ويرى كيف أن زميله يطرحوه أرضاً، ويجروه من قدمه مرة أخرى، ثم يطرحوه أرضاً ثانية – ولماذا كل هذا؟ لقد كان مصاباً بالحمى، وكان محولاً إلى مستشفى في وقت غير ملائم. ولهذه المحاولة غير المنظمة للتخلص من واجباته، كان يلقي هذا العقاب أو هذا التعذيب.

أما السجين الذي يدخل المرحلة الثانية من ردود أفعاله السيكولوجية، فإنه لم يعد يدير وجهه عن مثل هذه المشاهد. فقد صارت مشاعره متبلدة، ولا يبدي حراكاً إزاء ما يلاحظه. مثال آخر: سجين وجد نفسه منتظراً بالمستشفى، آملاً أن يمنحوه يومين من العمل الخفيف داخل المعسكر بسبب إصاباته أو ربما بسبب الحمى أو

غير ذلك من الأمراض. يقف بلا حركة بينما يسوقون طفلاً عمره إثنى عشر عاماً بالمعسكر ليجبروه على الوقوف في حالة انتباه لعدة ساعات في الثلج أو يرغموه على العمل بقدمين حافيتين لأنه لا توجد له أحذية بالمعسكر. لقد أصبحت أصابع قدميه مصابة بالتجمد من الصقيع، ويقوم الطبيب المناوب ببتر الأجزاء المصابة وبتنظيفها بمقص صغير، جزءاً جزءاً. ولم يعد المشاهد بعد هذا أن يشعر بانفعالات الاشمئزاز أو الرعب أو الشفقة. ويغدو هؤلاء المعذبون، والموتى، والأحياء ممن ينازعون الموت، مناظر شائعة بالنسبة للمشاهد في هذه المرحلة الثانية. فبعد بضعة أسابيع من الحياة في المعسكر، لم تعد هذه المناظر تحرك مشاعره أكثر من ذلك.

قضيت فترة من الوقت داخل كوخ للمرضى المصابين بالتيفوس ممن يتعرضون للحرارة العالية والهذيان؛ وغالباً ما يموت الكثير منهم. وبعد أن لقي واحد منهم حتفه، صرت أشهد هذا المنظر بدون أي تأثر وألاحظه وما يتبعه من مشاهد تتكرر كل مرة مع كل موت. وكان المسجونون يدنون الواحد تلو الآخر من الجسد الذي كان لا يزال دافئاً: يقوم أحدهم حينذاك بسرقة بقايا قطعة قذرة من البطاطس؛ وآخر يقرر الاستيلاء على أحذية الشخص المتوفي؛ وثالث على معطفه؛ بينما يكون سجين رابع مسروراً لأنه سوف يتمكن من الحصول على مسبحة يراها ثمينة بحسب تخيله.

كنت أرقب هذا كله بغير اكتراث. وفي النهاية طلبت من "الشخص القائم بالتمريض" أن يُبعد الجثة. وحينما قرر أن يفعل ذلك، سحب الجثة من رجليها، لتقع في الممر الصغير بين صفي اللوائح الخشبية التي كانت معدة كفراش لخمسين مريضاً بالتيفوس، وجرها على الأرضية الوعرة نحو الباب. أما الدرجتان اللتان تؤديان إلى الهواء الطلق، فتمثلان دائماً مشكلة بالنسبة لنا، وذلك بسبب ما يتمكن منا من الوهن والهزل وبسبب النقص الشديد في الغذاء. فبعد بضعة أشهر من البقاء في المعسكر لم نكن نستطيع أن نصعد هاتين الدرجتين، إلا إذا أمسكنا بأيدينا عارضة الباب لكي نرقى إلى أعلى، وكان ارتفاع كل درجة منها حوالي ست بوصات.

واقترب "الممرض" الذي كان يسحب الجثة إلى هاتين الدرجتين، ودفع بضجر نفسه إلى أعلى، ثم دفع الجثة: القدمين أولاً، ثم الجذع، وفي النهاية – وبصوت غريب جداً – سمعنا كركرة الرأس ترتطم بالدرجتين.

كان مكاني في الجانب الخلفي من الكوخ، بالقرب من النافذة الصغيرة الوحيدة والتي كانت مبنية بالقرب من الأرضية. وبينما كانت يداي الباردتان تمسكان

بـسلطانية من الحساء الساخن الذي كنت ارتشفه بشراهة، حدث أن اتجهت عيناي خـارج الـنافذة، وإذا بـي أجـد الجـثة التي أخذوها من دقائق تحملق في بعينين جاحظتـين لامعتـين. وقلـت لنفسي حينذاك أنني من ساعتين فقط كنت أتكلم مع الشخص الذي صار هذه الجثة. والآن أواصل ارتشاف حسائي.

والواقـع أنـه لو لم يكن هذا النقص الانفعالي قد أثار دهشتي من وجهة نظر اهتماماتـي المهنية، لما كنت قد تذكرت هذه الحادثة الآن، لأنه لم توجد حينذاك إلا مشاعر ضئيلة للغاية قد اندمجت معها.

*

كانـت الـبلادة ومـا يـصحبها من تبلد الانفعالات والشعور باللامبالاة هي الأعـراض المسيطرة خلال المرحلة الثانية من ردود أفعال السجين النفسية، وهي التـي جعلته في النهاية غير حساس لألوان الخطوب التي يتعرض لها في كل يوم وفي كل ساعة. وبسبب فقدان القدرة على الحساسية؛ فإنه سرعان ما يحيط السجين نفسه بقوقعة لابد منها من أجل حماية الذات.

الألم النفسي:

لقد كان الجَلْد بالسياط يوقع علينا لأبسط أشكال الاستفزاز، وفي بعض الأحيان دون مـا أسباب على الإطلاق. فعلى سبيل المثال، حدث ذات مرة أن كان الطعام يـوزع علينا في موقع العمل، وكان علينا أن نصطف لأجل الحصول عليه. وحدث أن الشخص الذي كان يقف خلفي مباشرة خرج قليلاً عن الصف وبذلك اختل تماثل الطابـور فـي نظر الحارس. كل هذا لم يرق في عيني الحارس. ولم أكن أنا على علـم بمـا يجري في الصف الذي ورائي، ولا بما يدور في عقل الحارس، ولكني تلقـيت فجـأة صفعتين شديدتين على وجهي. ثم اكتشفت فقط وجود الحارس على جانب مني مستخدماً عصاه. وعند هذه اللحظة لم يكن الألم الجسمي هو الذي يسبب إيـذاءً فـي الغالب (وينطبق ذلك على الكبار وكذلك على الأطفال الذين يتعرضون للعقـاب)؛ وإنمـا هـو الألم النفسي(١) مما ينتج عن الشعور بالظلم ويتسبب عن اللامعقولية.

وممـا ليبعث على الاستغراب، أن الصفعة التي لا تترك على الوجه علاماتها تـستطيع، تحـت ظروف معينة، أن تسبب إيلاماً وإيذاءً أكثر من تلك الصفعة التي

---

(1) Mental Agony

تتـــرك أثراً على الوجه. لقد كنت واقفاً ذات مرة على خط للسكة الحديدية في وسط عاصـــفة ثلجـــية. وبالـــرغم من هذا الجو، كان على مجموعتنا أن تواصل العمل، وكنت أعمل باجتهاد لإصلاح الخط الحديدي بواسطة دَكّة بالحصى، وأقنعت نفسي بـــأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يحافظ بها الفرد على دفئه. ولدقيقة واحدة فقط تـــوقفت لكـــي الـــتقط أنفاســـي ولأتكئ لحظة على جاروفي. ولسوء الحظ استدار الحـــارس من حوله في هذه اللحظة واعتقد أني أتلكأ في العمل. ولم يكن الألم الذي سببه لي مصدره السباب أو الصفعات. فلم يكترث ذلك الحارس في أن يقول شيئاً، ولا حتـــى كلمة سباب، لذلك المخلوق الواهن الهزيل الذي يقف أمامه، والذي ربما يذكره بشكل إنساني بطريقة ما. ولكنه بدلاً من أن يقول شيئاً، تناول مستهتراً قطعة مـــن الحجر وقذفني بها. لقد بدى ذلك، بالنسبة لي، على أنه الطريقة التي يلفت بها شـــخص انتباه حيوان، أو التي يعيد بها حيواناً منزلياً إلى موقعه؛ وهذا الحيوان هو مخلـــوق لا نشبهه ولا يشبهنا في قليل أو كثير، ولهذا لا يخطر على بالنا حتى أن نعاقبه.

إن أكثـــر جوانب هذه اللطمات إيذاءً هو ما تتضمنه من إهانة. ومما حدث أن كـــان علينـــا فـــي بعض الأوقات أن نحمل ألواحاً خشبية طويلة وثقيلة عبر طرق مغطـــاة بالجلـــيد، بحيث إذا انزلقت قدم أحدنا، فإنه لا يعرض للخطر نفسه فحسب ولكـــن يعـــرض كـــذلك كل زملائه الآخرين الذين يشاركونه في حمل هذا اللوح الخـــشبي. ولقد كان لي صديق قديم من بين المجموعة يعاني من قصور خِلْقي في ســـاقه. ومـــع ذلـــك فقد كان مسروراً لتمكنه من القيام بالعمل رغم هذا القصور، خـــصوصاً وأن الأشخاص العاجزين جسمياً كانوا يُرْسلون غالباً إلى الموت حينما تتم عملية الفرز.

وصـــار يعـــرج هـــذا الصديق عبر الطريق وهو يحمل عارضة خشبية ثقيلة بصفة خاصة، وبدا أنه كان على وشك السقوط وعلى وشك أن يجر الآخرين معه. لم أكن عندئذ أحمل عارضة، ولذا نهضت لمساعدته بدون تردد وعلى الفور تلقيت ضربة على ظهري، وسمعت تأنيباً بفظاظة، وتلقيت أمراً بالعودة إلى مكاني. وهذا الحـــارس نفـــسه، الذي انهال عليَّ بالضرب، كان منذ دقائق قد قال لنا باحتقار أننا نحن الخنازير تعوزنا روح الزمالة.

وفـــي مـــرة أخرى، كنا في غابة، وكانت درجة الحرارة حوالي إثنتي درجة فهـــرنهيت، ثم بدأنا في حفر التربة السطحية وكانت متجمدة بدرجة صلبة، لكي نمد أنابيب للمياه. وكنت أشعر في ذلك الوقت بالوهن الجسمي. وجاء إلى رئيس العمال

بخديه الورديين المكتنزين لحماً. وذَكَّرني وجهه تماماً برأس الخنزير. ولاحظت أنه كـان يلـبس قفازات جيدة تعطيه كثيراً من الدفء في هذا الجو القاسي. لقد صار يرقبنـي بـصمت لفترة من الوقت. وشعرت أن هناك متاعب في طريقها إليَّ، فقد كان أمامي على سطح الأرض كومة أو رابية تبين بالضبط مقدار ما قمت بحفره.

ثـم بـدأ: "أنت يا خنزير، لقد كنت أراقبك طيلة هذا الوقت! سوف أعلمك أن تعمل، هكذا! انتظر حتى تحفر القاذورات بأسنانك – وسوف تموت كالحيوان! وفي خـلال يومـين سوف أجهز عليك! إنك لم تبذل أبداً أي جهد للعمل في حياتك ومن تكون أنت أيها الخنزير؟ رجل أعمال؟".

لقـد كنت حينذاك حذراً إلى أبعد حد. ولكن كان عليّ أن آخذ تهديده لي بالقتل مأخـذ الجـد، لذا استقمت في وقفتي وحملقت مباشرة في عينيه. "لقد كنت طبيباً – إخصائياً". "ماذا؟ طبيب، أنا واثق أنك كنت تجمع المال وتبتزه من الناس".

"ومـا حـدث في حقيقة الأمر، هو أني قد قمت بمعظم عملي بلا مقابل على الإطـلاق، فكان جُلّ عملي في عيادات للفقراء". ولكني شعرت الآن أنني قد تكلمت أكثـر من اللازم وسرعان ما ألقى بنفسه على ودقني أرضاً، محدثاً جلبة وصياحاً كتلك التي تصدر عن مجنون، ولم أعد بعد ذلك أتذكر ما الذي كان يصيح به.

لقد أردت أن أبين بهذه الحكاية التافهة في ظاهرها أنه توجد في حياة الإنسان لحظـات يمكن أن تظهر فيها نقمته – وهي نقمة تتجه لا إلى القسوة أو الألم، ولكن إلـى الإهانة المتضمنة فيها والمرتبطة بها. ففي ذلك الوقت، اندفع الدم إلى رأسي لأنه كان عليَّ أن أسمع إلى رجل يصدر أحكامه عليَّ حياتي دون أن تكون لديه أية فكـرة عنها، وهو شخص "يبدو متخلفاً وشرساً بحيث أن الممرض الذي يقف على الـبوابة الخارجية بالمستشفى الذي كنت أعمل فيه لم يكن ليسمح له بالدخول حتى إلـى حجرة الانتظار". (وهنا ينبغي أن اعترف بأن هذه الملاحظة التي أسريت بها إلـى زملائـي المسجونين بعد هذه الواقعة قد منحتني نوعاً من الارتياح الصبياني "الطفلي").

ولحسن الحظ أن رجل الكابو في جماعة العمل التي اشترك فيها كان يدين لي بالفـضل؛ فقد صار ميالاً إليّ لأني كنت أصغي إلى حكاياته الغرامية وإلى متاعبه الـزوجية مما كان يمطرني به أثناء السير إلى موقع عملنا. لقد تركت فيه انطباعاً طيباً لما قمت به من تشخيص لطباعه ولما قدمته له من نصيحة علاجية نفسية. بعد هـذا كـان يـشعر بالامتـنان إزاء ذلك. وكان لهذا بالفعل قيمته بالنسبة لي. ففي مناسـبات عديدة كان يحتفظ لي بمكان خلفه في واحد من الصفوف الخمسة الأولى

بكتيبتنا التي كانت تتألف عادة من مائتين وثمانين رجلاً. وكانت تلك الحُظْوة مهمة لي. فلقد كان علينا أن نصطف في الصباح الباكر والدنيا لا تزال مظلمة. وكان كل شخص يخشى أن يتأخر وأن يطلب منه أن يقف في الصفوف الخلفية. فإذا كانوا بحاجة إلى أشخاص يقومون بعمل غير سار أو غير مرغوب، فإن رئيس الكابو يظهر ويختارهم عادة من بين الصوف الخلفية. وفي هذه الحالة يسير هؤلاء الأشخاص بعيداً إلى نوع آخر من الأعمال المروعة تحت إمرة حراس غرباء. ويحدث أحياناً أن يختار الرئيس رجالاً من الصفوف الخمس الأولى، كي يضع يده على أولئك الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر "الشطارة" والمهارة. وكانت إذ ذاك تُخْرس أفواه المحتجين والمتآمرين برفسات قليلة مصوبة تصويباً جيداً، ويساق الضحايا المنتقون إلى مكان التجمع بالصياح والضربات.

ولكن طالما أن رجل الكابو هذا كان يشعر بالحاجة إلى أن يفرغ بما في قلبه، فإن هذه الضربات لم تكن لتقع لي. لقد كان لي مكان مضمون من الشرف يلي هذا الحارس. ولكن كانت هناك أيضاً ميزة كبيرة أخرى – فلقد كنت أعاني، شأني في ذلك شأن كل نزلاء المعسكر، من مرض تورم الرجلين وتمدد الجلد الذي يصير مشدوداً عليهما بحيث يتعذر إنثناء الركبتين. وكان على أن أترك حذائي غير مربوط لكي يتلاءم مع قدمي المتورمتين، كما كان يتعذر لنفس الأسباب ارتداء الجوارب. لذا كانت قدماي العاريتان تقريباً مبللتين دائماً، وكان حذائي دائماً غاصاً بالثلج. وقد تسبب عن هذا ما يعرف بقضمة الصقيع وبتقرح القدمين من البرد والرطوبة. وصارت لذلك كل خطوة أخطوها عذاباً مبرحاً. وكانت تراكمات الجليد على أحذيتنا تتجمع أثناء سيرنا على الأراضي المغطاة بالثلوج. وكانت أقدام الرجال تزل باستمرار، ويتساقط فوقهم الأشخاص الذين يعقبونهم في الطابور. وقد يؤدي ذلك إلى توقف الطابور لفترة، ولكن ليس لمدة طويلة. وقد اتخذ لذلك أحد الحراس إجراءً بأن ينهال على الأفراد بكعب بندقيته حتى ينهضوا بسرعة. ومن ثم فإنه بقدر ما يكون الشخص منا في مقدمة الطابور، تقل احتمالية تعرضه للإيذاء من جراء توقف الطابور ثم تقل احتمالية الجري على قدمين معلولتين لتعويض الوقت الضائع. وكم كنت سعيداً أن أكون أنا الطبيب المُعَينّ شخصياً من قبل "جلالة" هذا الحارس، وأن أسير بخطوة متئدة في الصف الأول على مقربة منه.

كانت هذه الحُظْوة بمثابة أجر إضافي لخدماتي واتضح أثرها في أنه حينما كان يأتي دوري عند تناول طعام الغذاء في موقع العمل، كان الرجل يغوص بالمغرفة في قاع القدرة لكي يظفر لي مع الحساء ببعض البازلاء الراقدة في القاع.

وكـــان لـــدى رجل الكابو هذا، وهو ضابط سابق بالجيش، شجاعة بأن يهمس إلى رئـــيس العمال الذي تشاجرت معه قبلاً، ويقول له بأني عامل مجتهد بطريقة غير عاديـــة كما عرفني. ولكن هذا لم يغير من الأمور شيئاً، ومع ذلك فقد تدبر أن ينقذ حياتـــي (وتلك واحدة من المرات الكثيرة التي أُنقذت فيها حياتي). ففي اليوم التالي لحادثتي مع رئيس العمل هذا، نقلني بطريقة خفية إلى جماعة عمل أخرى.

*

لقد كان هناك من رؤساء العمل ممن يشعرون بالأسى حيالنا ويبذلون قصارى جهدهم لكي يخففوا عنا، على الأقل في موقع العمل.

ولكـــنهم مع ذلك كانوا يذكروننا دائماً بأن "العامل العادي" يعمل أكثر منا وفي وقـــت أقـــل. ولكن فاتهم أن العامل العادي لا يعيش على حوالي ١٠,٥ أوقية من الخبـــز (هـــذا من الناحية النظرية، وإن كان الوزن من الناحية الفعلية أقل من هذا غالـــباً)، وعلى مغرفة من الحساء الخفيف كل يوم؛ كما أن العامل العادي لا يعيش تحت وطأة الضغط النفسي الذي علينا أن نخضع له، ولا تنقطع عنه أخبار أسرته، ولا يجـــري ترحيله إلى معسكر آخر أو إعدامه بالغاز. والعامل العادي لا يتعرض فـــي كل يوم وفي كل ساعة للتهديد بالموت بصفة مستمرة. ولقد تجرأت ذات مرة فقلـــت لحـــارس طـــيب: "إذا كنتم تستطيعون أن تتعلموا مني كيف تجرون عملية جـــراحية بالمخ في وقت قصير مثلما تعلمت منكم العمل في تمهيد الطرق، فسوف أنظـــر إليكم باحترام شديد". وما كان من الحارس إلا أن استجاب بابتسامة عريضة صامتة".

البلادة كآلية للدفاع عن الذات :

كانت البلادة – وهي العَرَض الرئيسي للمرحلة الثانية – هي الآلية (الميكانزم) الـــضرورية للـــدفاع عن الذات. لقد أصبح الواقع مظلماً، وغدت كل الجهود وكل الانفعـــالات متمركـــزة حول مهمة واحدة: المحافظة على الحياة – حياة الفرد ذاتها وحـــياة زمـــيله. لقد كان من المتواتر أن تسمع المسجونين، بعد عودتهم في المساء إلـــى المعـــسكر من مواقع عملهم، يتنهدون بارتياح قائلين: "حسناً، لقد انقضى يوم آخر".

مـــن المفهـــوم إذن أن مـــثل هذه الحالة من التوتر، وما يصحبها من الشعور بالحاجـــة المـــستمرة إلى التركيز على هدف بقاء الشخص حياً، قد تقهقرت بالحياة

الداخلية للسجين إلى مستوى بدائي. ولهذا فكثيراً ما كان زملائي بالمعسكر ممن تلقوا تدريباً على التحليل النفسي يتحدثون عن ظاهرة "النكوص" عند نزيل المعسكر – وهذه الظاهرة هي التقهقر إلى أشكال من الحياة النفسية أكثر بدائية من تلك التي يعيشونها. ويتضح ذلك فيما تتضمنه أحلام السجين من أماني ورغبات.

ما الذي كان يحلم به السجين في معظم الحالات؟ لقد كانت أحلامه تدور حول الخبز والكعك والسجاير والحمامات الساخنة اللطيفة. ولقد أدى به نقص إشباع هذه الرغبات البسيطة إلى السعي إلى إشباعها في الأحلام. وسواء أكان لهذه الأحلام تأثير طيب أم لا، فإن هذا موضوع آخر؛ فلقد كان على السجين الحالم أن يستيقظ من أحلامه إلى واقع حياة المعسكر، وإلى التناقض المريع بين حقيقة الواقع ووهم الأحلام.

ولست أنسى أبداً كيف أني استيقظت ذات ليلة على أنين أحد المسجونين الزملاء، وكان يطرح نفسه متقلباً هنا وهناك أثناء نومه، وكان واضحاً أنه كان يعاني حينذاك من كابوس مفزع، ولما كنت أشفق دائماً بصفة خاصة على أولئك الذين يعانون من أحلام مفزعة أو من هذيان عنيف، فقد أردت أن أوقظ هذا الإنسان المسكين. وفجأة غيرت رأي وسحبت يدي التي كانت مستعدة أن تهزه، وخشيت حينذاك من الشيء الذي كنت على وشك أن أفعله. ففي تلك اللحظة صرت واعياً بالحقيقة التي نعيشها وهي أنه لا الحلم ولا أي موضوع آخر مهما بلغت درجة الرعب التي يثيرها، يمكن أن يكون سيئاً كواقع المعسكر الذي يحيط بنا، والذي كنت على وشك أن أعيده إلى ذهنه.

كان السجين يعاني من درجة عالية جداً من سوء التغذية، وبسبب هذا كان من الطبيعي أن تكون الرغبة في الطعام هي الغريزة البدائية الرئيسة التي تتمركز حولها حياته النفسية. فإذا لاحظنا غالبية المسجونين حينما يعملون بالقرب من بعضهم الآخر، إذا تغيبت عنهم رقابة الحارس لفترة وجيزة، فإنهم على الفور يبدأون التحدث معاً حول شئون الطعام. فهذا زميل يسأل آخر يعمل بالقرب منه في خندق عن الأطباق المفضلة لديه من الطعام. ثم يتبادلان أطراف الحديث في طرق إعداد الطعام وفي التخطيط لقائمة طعام يجتمعان عليها في ذلك اليوم الذي يلم شملهما – ويكون ذلك في المستقبل البعيد حينما يتحقق تحررهما وتتم عودتهما إلى منزلهما. ويسترسلان في الحديث، ليصورا كل ما يتخيلانه بالتفصيل، حتى تسري في الخندق همسات التحذير: "الحارس قادم".

لقــد كــنت دائماً اعتبر الحديث عن الطعم مدعاة للخطر. هل استثارة الكائن الحي بتلك الصور التفصيلية والانفعالية عما لذ وطاب من ألوان الطعام ليس مسلكاً خاطــئاً، في وقت من المفروض فيه أن يكيف الكائن الحي نفسه لقدر ضئيل للغاية من الطعام ومن السعرات الحرارية؟ فعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا المسلك من ارتــياح نفــسي وقتــي، فإنه ليس إلا وهماً يترتب عليه ولاشك مخاطر كثيرة من الناحية الفسيولوجية.

لقــد صـــارت مؤونتنا من الطعام، في الفترة التالية بالسجن، عبارة عن حساء خفيف للغاية يقدم إلينا مرة واحدة في اليوم، وكسرة الخبز الضئيلة المعتادة. علاوة علـــى ذلــك، كان هناك ما يعرف بـــ "الحصة الإضافية"، وتتألف من ثلاثة أرباع أوقــية مـــن الــزبد الصناعي، أو شريحة من السجق الردئ، أو قطعة ضئيلة من الجــبن، أو لحسة من عسل نحل اصطناعي، أو ملعقة من المربى غير المركزة – وهــذه الحصة الإضافية تختلف من يوم لآخر. إن وجبة كهذه، من ناحية السعرات الحــرارية، لــم تكن ملائمة على الإطلاق، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار العمل الــيدوي المــضني الذي نقوم به، والتعرض المستمر للجو البارد مع ما نرتديه من ملابــس غير كافية وغير ملائمة. أما المرضى الذين كانوا "تحت رعاية خاصة" – وهــم أولئك الذين سُمح لهم بالرقاد في الأكواخ بدلاً من الخروج إلى العمل – فإنهم كانوا بالرغم من ذلك أسوأ حالاً فيما يصيبهم من طعام.

وحيــنما زالت الطبقات الأخيرة من الشحم الموجود تحت الجلد، وصرنا أشبه بالهــياكل العظــيمة المغطاة بجلد وخرق بالية، كنا نلحظ كيف أن أجسامنا قد بدأت تلــتهم نفــسها وأخــذت في التلاشي والانعدام. فقد أخذ الجسم يستهلك ما فيه من مخـــزون البروتين، وبدت العضلات في الضمور والاختفاء. ومن ثم لم يعد بالجسم قـــوة للمقاومة. وصار أفراد جماعتنا يتساقطون موتاً واحداً تلو الآخر. وأصبح في مقدور أي سجين منا أن يحسب بدقة على من يأتي الدور في الموت، ومتى سيأتي دوره. فــبعد ملاحظـــات كثيـــرة صرنا نعرف الأعراض جيداً، الأمر الذي جعل تنبؤاتنا الشخصية صحيحة تماماً. "لقد دان أجله"، أو "هذا هو الشخص التالي".

تلــك أمثلة من العبارات التي كنا نهمس بها بعضنا للآخر. وبينما كنا ننشغل فـــي كل مساء بالبحث عن القمل العالق بنا، نرى أجسادنا العارية، وتراودنا أفكار مـــثل: هــذا الجسد هنا، جسدي، هو في الحقيقة جثة بالفعل. ما الذي أَلَمَّ بي؟ إني لست إلا جزءاً ضئيلاً من حشد هائل من اللحم البشري... مما يتجمع وراء أسلاك

شـــائكة، مكدســـاً فـــي بضعة أكواخ من الطين؛ وهو حشد تتناقص منه يومياً نسبة معينة لتأخذ في التعفن لأنها قد صارت بلا حياة.

لقـــد ذكـــرت من قبل كيف أنه كان محتماً أن تفرض الأفكار الخاصة بالطعام وبالأطـــباق المفـــضلة نفسها على وعي السجين، حينما يجد لحظة يختلي فيها إلى نفـــسه. وربمـــا يكون من المفهوم إذن، أنه حتى أكثرنا قوة كان يتشوق إلى الوقت الـــذي يمكـــن فيه أن يحظى بطعام طيب مرة ثانية، ولكن ليس هذا من أجل التلذذ بالطعـــام الطيب نفسه فحسب، وإنما من أجل معرفة هذا الوجود شبه الإنساني، مما يجعلـــنا عاجـــزين عن التفكير في أي شيء عدا الطعام؛ وذلك ما سوف يصل إلى العدم في خاتمة المطاف.

ولاشـــك أنـــه مـــن الـــصعب على من لم يمر بمثل هذه الخبرات أن يتصور الصراع النفسي المدمر للروح وأن يحس بالاصطدامات التي ترتطم بها قوة الإرادة ممـــا يخبـــره إنسان جائع هزيل. كما أنه من الصعب أن يدرك ماذا يعني أن يظل الإنـــسان واقفاً يعمل في حفر خندق، منصتاً فحسب إلى الصافرة لكي تعلن الساعة التاسعة والنصف أو العاشرة قبل الظهر – وهي فترة تستغرق نصف ساعة لتناول الغـــذاء – حينما يجري توزيع الخبز (هذا إذا كان متاحاً)؛ أو يسأل المشرف مرات عن الوقت إذا لم يكن المشرف فظاً. وبرقة يتلمس هذا الإنسان الهزيل قطعة الخبز الموجودة في جيب معطفه، وبأصابعه المتجمدة العارية يمر عليها أولاً ثم بعد ذلك يقـــتطع مـــنها كِـــسْرة ويضعها في فمه، وأخيراً ومع ما تبقى لديه من قوة الإرادة يـــضعها في جيبه مرة ثانية، موعزاً إلى نفسه في ذلك الصباح بأمل أن يتماسك بها وأن يصمد حتى بعد الظهر.

وكـــم كنا نتناظر في طرق تناول قطعة الخبز التي كانت تُعْطى لنا مرة واحدة فـــي الـــيوم خـــلال الجزء الثاني من فترة سجننا. وكان الحوار يجري في معقولية الطـــريقة أو عـــدم معقوليتها، وكنا في ذلك ننقسم إلى مدرستين: الأولى تؤيد التهام مـــؤونة الخبز على الفور، وكان لهذا الاتجاه ميزة ذات شقين تتمثل في إشباع حالة الجوع القارس لفترة قصيرة جداً من الوقت على الأقل مرة في اليوم، وتتمثل كذلك فـــي الوقاية ضد احتمال سرقة هذه المؤونة أو فقدانها. أما الجماعة الثانية، فكانت تـــرى تقـــسيم قطعـــة الخبـــز على مراحل من تناولها، مستندة في ذلك على حجج مختلفة. ولقد شاركت أصحاب هذا الاتجاه الثاني في النهاية وجهة نظرهم.

كانـــت لحظة الإيقاظ هي أكثر اللحظات بشاعة في الساعات الأربع والعشرين مـــن حياة المعسكر. وذلك حينما كانت تمزق الصافرة سكون الليل وهدوءه بما كان

يـصدر عنها من أصوات ثلاثة هي أشبه شيء بالعاصفة المدوية – وكان هذا يقع فـي ساعة هي في الواقع جزء من الليل، وذلك لتهتك السكون ولتوقظنا بلا رحمة مـن نومنا المثقل بالتعب والإنهاك، ولتنتزعنا من بعض ما نصبو إليه في أحلامنا. عـندئذ نـبدأ التصارع مع أحذيتنا المبللة، حيث ندفع فيها أقدامنا المتقرحة المتآكلة بمعاناة وألم ومشقة.

وكـان مـن المعتاد أن نسمع في ذلك الوقت أنيناً وعويلاً من جراء صعوبات تافهة، مثل وخز الأسلاك التي حلت محل أربطة الحذاء. ذات صباح سمعت زميلاً لـي، ممـن كنت أعرف فيه الشجاعة والاعتزاز بالنفس، يصيح كالطفل لأنه كان مـضطراً في النهاية أن ينزل حافي القدمين إلى أرض الطابور المغطاة بالثلج، لأن حـذاءه قد انكمش حيث تعذر عليه أن يدخل قدميه فيه. في تلك اللحظات المروعة كـنت أجـد بعضاً من السلوى؛ وهي عبارة عن كسرة من الخبز أستلها من جيبي وأنهمك في مضغها واستحلابها بتلذذ واستغراق.

اختفاء الدافع الجنسي :

ولعـل سوء التغذية، بالإضافة إلى كونه مسئولاً عن الانشغال والقلق العامين بشأن الطعام، إلا أنه يفسر أيضاً حقيقة اختفاء الدافع الجنسي بصفة عامة. وبصرف النظـر عـن التأثيرات الأولية للصدمة، فإن هذا يبدو هو التفسير لظاهرة كثيراً ما يلاحظهـا الأخـصائي الاجتماعي في تلك المعسكرات التي يكون كل نزلائها من الذكـور: فخلافـاً لكـل المؤسـسات التي لا تحوي إلا الذكور فحسب، كالثكنات العسكرية، كانت هناك انحرافات جنسية قليلة. بل إن السجين، حتى في أحلامه، لم يكن يبدي اهتماماً بالجنس، رغم أن انفعالاته المحبطة ومشاعره الرفيعة الراقية قد وجدت تعبيراً محدداً في أحلامه.

بالنـسبة لغالبية المسجونين، كان من شأن الحياة البدائية والجهود المبذولة من أجـل اهتمام السجين فحسب بأن "يفلت بجلده"، أن تؤدي إلى عدم اكتراث كُليٍّ بأي شـيء لا يخـدم هـذا الغـرض؛ وبذلك يمكن أن يفسر النقص التام للعاطفة عند المـسجونين. وهـذا مـا قد تبين لي عندما جرى نقلنا من معسكر "أوشويتز" إلى معـسكر آخـر بالقرب من "داشاو". فالقطار الذي حملنا – وفيه ما يقرب من ألفين من المسجونين – قد مر من خلال فيينا. وفي حوالي منتصف الليل وصلنا إلى أحد محطات السكك الحديدية بفيينا. وكان على القطار أن يمر بنا بمحاذاة الشارع الذي

وُلــدت فــيه، وبالقرب من المنزل الذي عشت فيه في الواقع معظم سنوات حياتي حتى دخولي السجن.

لقــد كانــت عــربة الــسجن تقل خمسيناً منا، ولها فتحتان صغيرتان مدعمتان بالقــضبان. وكــان بالعربة مكان يسع مجموعة واحدة لكي ترقد على الأرض، بينما الآخرون الذين كان عليهم أن يقفوا لساعات قد تزاحموا حول الفتحتين. وكانوا يقفون على أصابع أقدامهم ويسترق الواحد منهم النظر عبر رؤوس الآخرين المتزاحمة من خــلال قــضبان النافذة الصغيرة. وإذ فعلت ذلك اختلست نظرة خاطفة على مدينتي. وتملكــنا آنذاك جميعاً شعور بأننا أقرب إلى الأموات منا إلى الأحياء، لأننا اعتقدنا أن تــرحيلنا كان موجهاً إلى معسكر في "ماوتسهاوزن" وأن ما تبقى لنا من أيام في الدنيا لا يــتجاوز أســبوعاً أو أســبوعين. لقــد تملكني شعور محدد بأنني رأيت الشوارع والمــيادين والمنازل، التي عشتها في طفولتي، كما لو أن ذلك من خلال عيني إنسان ميت قد عاد لتوه من عالم آخر ويجول ببصره في مدينة من مدن الأشباح.

بعد ساعات من التأخير غادر القطار المحطة. ثم جاء الشارع – الشارع الذي عشت فيه! وصار المسجونون الصغار في السن، ممن سيقضون عدداً من السنوات بالمعــسكر والذين تمثل الرحلة بالنسبة لهم حدثاً عظيماً، يحدقون بتفرس من خلال فــتحة الــنافذة. أخذت أتوسل إليهم، واستعطفهم، كي يدعوني أقف في المقدمة لمدة دقــيقة واحدة فقط. وحاولت أن أشرح لهم كم تعني بالنسبة لي نظرة من خلال تلك النافذة في هذه اللحظة. ولكنهم رفضوا رجائي بكل فظاظة وسخرية: "إنك قد عشت هنا كل تلك السنوات؟ حسناً، لقد رأيت إذن ما يكفيك بالفعل".

السُبات الثقافي :

وبــصفة عامــة، اتــسمت حــياة المعــسكر بما يمكن أن يسمى بــ "السُبات الثقافــي"[(١)]. ولكــن كــان لهذه الحالة استثناءان: السياسة والدين. لقد كنا نتكلم في الــسياسة فــي كل مكان بالمعسكر، وبصفة مستمرة غالباً. وكانت المناقشات، التي تحــتدم فــيها بينــنا بــشدة، تستند على الشائعات أساساً. وعادة ما كانت الشائعات المتعلقة بالموقف العسكري متناقضة.

لقــد كانت الشائعات تسري بسرعة واحدة تلو الأخرى، واقتصر إسهامها في إثــارة حــرب الأعــصاب التــي اشتعلت في عقول كل المسجونين. وكان نصيب

---

(1) Cultural hibernation

المـــرات الكثيرة، التي علقنا فيها آمالاً كباراً والتي كانت تُستثار بالشائعات المتفائلة بـــسرعة نهاية الحرب، هو خيبة الأمل. ومع ذلك، فإذا كان بعض الرجال قد فقدوا كـــل أمـــل ورجاء، إلا أن الزملاء المتفائلين بشدة كانوا هم في الواقع الفئة الأكثر إثارة للأعصاب.

أما الاهتمام الديني لدى المسجونين، والذي نمى بسرعة وبشدة، فقد كان أكثر الاهـــتمامات صدقاً. وغالباً ما عَمَّق الإيمان الديني وشدته مما يبعث على دهشة أي وافـــد جديـــد يدعو إلى تحريك مشاعره. وأكثر المواقف تأثيراً في هذا الصدد هو الـــصلوات الارتجالية أو الخدمات الدينية التلقائية مما كان يقع في ركن من أركان كـــوخ، أو في الظلام داخل عربة نقل للمواشي حيث كنا نعود فيها من موقع عمل بعيد، ونحن متعبون وجائعون ومتجمدون من البرد وعلينا ملابسنا المهلهلة.

فـــي شتاء ١٩٤٥ تفشى مرض التيفوس وامتد إلى الربيع، وقد أصاب تقريباً كـــل المسجونين. وكانت نسبة الوفيات عالية بين الضعاف منهم ممن كان عليهم أن يستمروا في عملهم الشاق لأطول فترة ممكنة. وكانت الأماكن المخصصة للمرضى غيـــر ملائمة على الإطلاق، ولم يكن هناك من الناحية العملية علاج أو معالجون. واتخـــذت أعراض المرض مظاهر كريهة للغاية: العزوف غير المسئول حتى عن كـــسرة من الطعام (وفي هذا خطورة مضاعفة على الحياة)، والنوبات الرهيبة من الهـــذيان. ومـــن أسوأ حالات الهذيان تلك التي عاناها صديق لي أعتقد أنه يموت، وأنـــه لـــذلك في حاجة إلى أن يصلي؛ ولم يستطع في هذيانه أن يجد الكلمات التي يصلي بها. ولكي أتجنب نوبات الهذيان، حاولت – كما فعل كثيرون آخرون – أن أظل يقظاً معظم الليل. ولساعات نظمت الكلام في عقلي. وفي النهاية بدأت في أن أكـــتب مـــن جديـــد المخطوط الذي فقدته في حجرة التطهير بالمعسكر، وكتبت في عُجالة الكلمات الرئيسة مختزلة على قصاصات رقيقة من الورق.

ولقد كانت تنشأ في المعسكر، من آن لآخر، مناظرات عملية. وقد شهدت في أحـــد المـــرات شيئاً لم أره، حتى في حياتي العادية، رغم أنه قريب إلى حد ما من اهتماماتـــي المهنـــية: جلـــسة استحضار للأرواح. وقد دعاني الطبيب المسئول في المعسكر (وهو سجين أيضاً) لحضور هذه الجلسة، وكان يعلم أنني اختصاصي في الطـــب النفـــسي. وقد جرى الاجتماع في حجرة خاصة صغيرة بأماكن المرضى، حيث تجمعت حلقة صغيرة، كان من بينهم بطريقة غير مشروعة الضابط المسئول في فرقة الرعاية الصحية.

وبـــدأ أحـــد الأشخاص في استدعاء الأرواح بصلاة معينة. وجلس رجل الدين بالمعـــسكر أمـــام ملاءة بيضاء من الورق، دون أية نية واعية في الكتابة. وخلال العـــشر دقائـــق التالية (والتي بعدها انتهت الجلسة بسبب فشل الوسيط في استدعاء الأرواح إلى الظهور) أخذ قلمه يجر خطوطاً ببطء على الورقة، لتشكل بوضوح تام الحـــروف التالـــية "VAE V". وكان من المؤكد أن رجل الدين هذا لا يعرف اللغة اللاتينـــية وأنـــه لـــم يسمع من قبل بالكلمات التالية: "Vae Victis" – وتعني "ويل للمغلـــوب". واعـــتقد أنه قد سمع بها ذات مرة في حياته، بدون أن يتذكرها، وأنها كانت في ميسور "الروح" (روح عقله غير الواعي) في ذلك الوقت، أي في الأشهر القليلة السابقة على تحررنا ونهاية الحرب.

علـــى الـــرغم كـــل مظاهـــر الانحطاط الجسمي والعقلي للحياة في معسكر الاعـــتقال، فإنـــه كان من الممكن للحياة الروحية أن تقوى وتعمق. أما الأشخاص الحـــساسون الـــذين تعودوا على الحياة العقلية الغنية ربما قد عانوا الكثير من الألم (وغالـــباً ما كان تكوينهم رقيقاً)، ولكن درجة تعرض ذواتهم الداخلية للأذى كانت أقـــل. فقد كان في مقدورهم أن يتخلوا عن الواقع المفزع المحيط بهم إلى حياة من الثـــراء الداخلـــي والحـــرية الروحية. وبهذه الطريقة فحسب يمكن تفسير التناقض الظاهـــري بأن بعض المسجونين ذوي التكوين النفسي الأقل قدرة على الاحتمال قد أبـــدوا غالـــباً قدرة على معايشة حياة المعسكر بدرجة أفضل من أولئك الأشخاص ذوي الطبيعة القوية.

ولكـــي استوضـــح كـــل هـــذه المواقـــف لنفسي، ينبغي أن أعود إلى خبرتي الشخصية. وسأتكلم عما حدث في الصباح الباكر من تلك الأيام حينما كان علينا أن نسير إلى موقع عملنا.

لقد دوت الأوامر: "كتيبة، إلى الأمام سر! إلى اليسار ٢ – ٣ – ٤! إلى اليسار ٢ – ٣ – ٤! الـــشخص الأول، إلى اليسار وإلى اليسار وإلى اليسار وإلى اليسار! إخلعوا قبعاتكم! "هذه الكلمات لازالت تدوي في أذني حتى الآن. وعند توجيه الأمر "اخلعـــوا قـــبعاتكم" اجتزنا بوابة المعسكر، وأخذت الأضواء الكاشفة تصوب علينا. ومـــن لم يمش بطريقة معتدلة يلقي ركلة. وكان أسوأنا ذلك الشخص الذي عمد – بسبب البرد – إلى تغطية أذنيه بقبعته قبل أن يأذنوا بذلك.

وتعثـــرنا فـــي الظـــلام، في أحجار ضخمة وعبر مستنقعات مائية على طول الطـــريق المنحدر من المعسكر. أما الحراس المرافقون لنا فقد توقفوا عن الصياح

فيــنا، وأخــذوا يسوقوننا بكعوب بنادقهم. وعندما كان الألم المبرح يتمكن من أي شخص منا، فإنه كان في العادة يتكئ على ذراع جاره. وبصعوبة نبس أحد الزملاء بكلمـــة بيننا، رغم أن الريح الثلجية لم تكن لتشجع على الكلام. فقد همس لي فجأة هــذا الزميل الذي يسير خلفي، وهو يخبئ فمه خلف ياقة معطفه، قائلاً: "ماذا لو أن زوجاتــنا رأينــنا الآن! أرجو أن يكنَّ أحسن حالاً في معسكراتهن وألا يعلمن بما يجري لنا".

هــذا الكـــلام قــد ذكرني بزوجتي. فرغم أننا في هذه اللحظات كنا نسير متعثــرين لأميال، وتنزلق أقدامنا على الجليد، ونساعد بعضنا البعض بين وقت وآخــر، ويجــذب بعضنا البعض الآخر على هذا الطريق، ولم ينبس واحد منا بكلمة، إلا أن كلانا كان يعرف ما يفكر فيه الآخر – فكلانا يعرف: أن كلاً منا يفكــر فـــي زوجته. وبين الفينة والأخرى كنت أنظر إلى السماء، حيث النجوم تخــبو والــصباح يــبدأ فـــي أن ينتــشر بصيص ضوئه خلف السحب القاتمة المتــراكمة، ولكـــن عقلي تعلق بصورة زوجتي، متخيلاً إياها بدقة غريبة. لقد ســمعتها تجيب عليَّ، ورأيت ابتسامتها، ونظراتها الصريحة والمشجعة. وسواء أكان ذلك حقيقياً أم غير حقيقي، فقد كانت طلعتها عندئذ أكثر إشراقاً وتألقاً من الشمس التي بدأت في الظهور.

خلاص الإنسان هو من خلال الحب وفي الحب :

لقــد استحوذت عليَّ آن ذاك فكرة مهيمنة: فلأول مرة في حياتي أرى الحقيقة كمـــا يتغنى بها الكثير من الشعراء، وكما ينادي بها الكثير من المفكرين على أنها الحكمـــة العظمى: الحقيقة هي أن الحب هو الهدف الغائي والأسمى الذي يمكن أن يطمح إليه الإنسان. ثم أدركت معنى السر الأعظم الذي ينبغي أن يفصح عنه الشِعْر الإنــساني والفكــر الإنـــساني والإيمان الصادق: أن خلاص الإنسان هو من خلال الحب وفي الحب. لقد فهمت كيف أن الإنسان، الذي لم يتبق له شيء في هذه الدنيا، لا يــزال يعــرف السعادة، ولكن للحظة قصيرة فقط، من خلال التأمل والتفكير في المحــبوب. إن الإنـــسان في موقف يحرم فيه من التعبير اللفظي عن نفسه بطريقة إيجابــية، ويكـــون فــيه إنجازه الوحيد هو تحمله لما يعانيه بالطريقة الصحيحة – بطــريقة جديــرة بالاحترام –يستطيع هذا الإنسان، من خلال تأمله الحاني للصورة التي يحملها عن المحبوب، أن يتوصل إلى مراده. ولأول مرة في حياتي كنت قادراً

علـــى فهـــم معنى الكلمات التالية: "إن الملائكة قد انطلقت مستغرقة في تأمل أبدي للمجد اللانهائي".

فـــي هذه اللحظات تعثر أمامي شخص ووقع فوقه المسجونون الذين يسيرون خلفـــه. وســـرعان ما اندفع الحارس نحوهم وانهال عليهم بالسياط. وقد ترتب على ذلـــك أن انقطعـــت أفكاري لبضع دقائق. ولكن سرعان ما وجدت روحي طريقها حـــيث تـــركت الوجود الذي يعيشه السجين لتحلق في عالم آخر، فيه تحدثت معي محبوبتي: لقد سألتها سؤالاً، وأجابتني؛ ثم سألتني بدورها، وأجبت عليها.

"قف!" لقد وصلنا إلى موقع عملنا. واندفع كل شخص إلى المخزن المظلم بغية الحصول على أداة جيدة للعمل. وحصل كل سجين على مجراف أو معول.

"ألا تـــستطيعون الجـــري، يا خنازير؟" وعلى الفور استأنفنا العمل في مواقع العمـــل الـــسابق بالخـــندق. وصارت الأرض المتجمدة تتكسر تحت دق المعاول، والشظايات تتطاير منها. وكان الرجال صامتين، وكانت عقولهم فاقدة الحس.

ولكـــن عقلـــي لا يـــزال متعلقاً بصورة زوجتي. وجالت بعقلي فكرة: أنني لا أعرف ما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. ولكني أعرف شيئاً واحداً فقط – وهو مـــا أعـــرفه الآن جيداً: هو أن الحب يذهب إلى ما هو أبعد في غايته من الشخص البدنـــي للمحبوب. هذا الحب يجد معناه الأعمق في الوجود الروحي لهذا الشخص المحـــبوب، أي فـــي ذاتـــه الداخلية. وسواء أكان الشخص بالفعل حاضراً أو غير حاضـــر، وســـواء أكان لا يزال على قيد الحياة أم لا، فإن هذه أمور تفقد في ذاتها بعض أهميتها.

لـــم أكـــن أعرف ما إذا كانت زوجتي على قيد الحياة أم لا، كما أنني لم أملك الوســـائل التي بها يمكن أن أعرف ذلك (ففي خلال كل حياتي بالسجن انقطعت كل مراســـلاتنا ولم يكن هناك بريد يرد إلينا من خارج السجن كما أننا لم نكن نستطيع إرســـال خطابات)؛ ولكن كل ذلك قد فقد أهميته في تلك اللحظة. فلم تعد بي حاجة إلى أن أعرف ما يجري؛ فليس هناك من شيء يستطيع أن ينال من قوة حبي، ومن أفكـــاري، ومـــن صورة محبوبي. ولو كنت قد عرفت عندئذ أن زوجتي قد ماتت، فإننـــي كنت سأستمر في أن أطلق العنان لنفسي – غير مضطربة بتلك المعرفة – وكـــنت سأسترسل في ذلك التأمل في صورتها، وفي التحدث العقلي معها بأسلوب يتسم بالحياة والحيوية والإشباع. فالحب هو الخاتم الذي يبصم نفسه على القلب وهو في قوته كالموت.

الهروب إلى الماضي :

ومن شأن هذه التقوية للحياة الداخلية أن تعين السجين على أن يجد ملاذاً يلجأ إليه هرباً من الفراغ والدمار والفقر الروحي لوجوده، وذلك بأن تجعله يهرب إلى الماضي. فحينما يطلق العنان لخياله، فإن هذا الخيال يتفاعل مع أحداث ماضيه، وهي غالباً ما تكون أحداثاً غير مهمة، ولكنها وقائع صغيرة وأشياء تافهة. وتقوم ذاكرته التواقة إلى الماضي بتعظيم تلك الأحداث، وتصبح ذات طابع غريب. فعالمها ووجودها بعيدان للغاية، وتتوق إليها الروح باشتياق: ففي عقلي تواترت أحداث عن الحافلة (الباص) التي ركبتها وهي تسير، وعن عدم قيامي بإغلاق الباب الأمامي لشقتي، وعن ردي على التليفون، وعن إشعال النور بالمفاتيح الكهربية. وغالباً ما كانت أفكارنا تتمركز حول هذه التفاصيل؛ كما أن هذه الذكريات تحرك فينا الانفعال والأسى.

وكلما صارت الحياة الداخلية للسجين أكثر عمقاً، صار السجين أيضاً أكثر نزعة إلى أن يخبر جمال الفن والطبيعة بطريقة لم يعهدها أبداً من قبل. فبتأثيرهما كان ينسى في بعض الأحيان ظروفه الباعثة على الفزع. ولو أن شخصاً ما كان قد رأى وجوهنا في الرحلة من آوشويتز إلى معسكر بافاريا حينما شاهدنا جبال سالزبورج بقممها المتألقة في أشعة الشمس، من خلال النوافذ القليلة المدعمة بالقضبان في عربة السجن، فإنه لن يصدق أبداً أن تلك كانت وجوه أولئك الأشخاص الذين سبق لهم أن فقدوا كل أمل في الحياة والحرية. وبالرغم من ذلك العامل – أو ربما بسببه – فقد استولى جمال الطبيعة على أفئدتنا، بعد أن كنا قد افتقدناه مدة غير قصيرة.

الإحساس بالجمال :

وفي المعسكر أيضاً قد يوجه الشخص انتباه زميل له يعمل بالقرب منه حتى يمكن أن يرى المنظر الخلاب لغروب الشمس وتخلل أشعتها للأشجار الجميلة الطويلة بغابات بافاريا؛ وهي تلك الغابات عينها التي بنينا فيها مستودعاً سرياً هائلاً للذخائر والعتاد الحربي.

ذات مساء، حينما كنا نركن إلى الراحة على أرض كوخنا، وقد أضنانا التعب، ونحن ممسكون بأوعية الحساء في أيدينا، دخل علينا أحد الزملاء مندفعاً وطلب منا أن نهرع إلى الأراضي المحيطة بنا لنرى المنظر العجيب لغروب الشمس. وقفنا خارج الكوخ، وأبصرنا السحب تتقد في الغروب، والسماء كلها تتألق بالسحب التي

يتغيــر أشكالها وأنواعها باستمرار، من اللون الأزرق المشوب بالرمادي إلى اللون الأحمــر الدمــوي. أمــا منظر الطين الكئيب فقد أعطى تناقضاً حاداً، حيث كانت المــستنقعات المنتشرة على الأرض الطينية تعكس السماء المتألقة. وبعد دقائق من الصمت، قال سجين لآخر "كم يمكن أن تكون الدنيا جميلة!".

وذات مرة كنا نعمل في خندق. وكان الفجر رمادياً من حولنا والسماء رمادية فوقــنا،؛ والــثلج رمــادي فــي ضوء الفجر الشاحب؛ والخرق المكسوة بها أجساد زملائي المسجونين وكذلك وجوههم كانت رمادية اللون. ومرة أخرى كنت أتحدث في صمت مع زوجتي، أو ربما كنت أجاهد كي أتوصل إلى سبب آلامي وعذابي، موتي البطئ. وأحسست في آخر احتجاج عنيف ضد اليأس المصاحب لموت وشيك – بروحــي تختــرق حالــة الكآبة التي تتملكني. فقد شعرت بها تسمو بذلك العالم المــشوب باللامعنى وبفقدان الأمل والرجاء، وسمعت من مصدر ما "نعم" الظافرة كإجابــة عن سؤالي الخاص بوجود هدف غال. وفي تلك اللحظة تألق ضوء منبعث مــن بيت في مزرعة بعيدة، ترامي في الأفقٍ كما لو كان مرسوماً على ذلك الأفق المترامــي، وفــي وسط ذلك اللون الرمادي الكئيب لفجر الصباح في بافاريا. "إن الــضوء يتألق في الظلام"[1]. ولساعات وقفت على الأرض الجليدية محركاً قدمي علــيها. ومــر الحارس بالقرب مني، ونهرني بالشتائم والسباب، ولكن سرعان ما عدت إلى التحادث مع المحبوب مرة أخرى. وتملكني شعور متزايد بأنها موجودة، وبأنهــا معــي؛ بــل إننــي شعرت بأني قادر على أن ألمسها، وبأن أمد يدي إليها وأعانقها. هذا الشعور كان قوياً للغاية: إنها "هناك". وفي تلك اللحظة هبط طائر في سكون، وحط أمامي، على كومة التراب التي تجمعت مما حفرت من الخندق وأخذ يحدق فيَ بنظرة حانية مثابرة.

لقد أشرت من قبل إلى الفن. وهل يوجد ذلك الشيء في معسكر للاعتقال؟ إن ذلــك يــتوقف أكثــر ما يتوقف على ما يختاره المرء ليسميه فناً. فمن وقت لآخر يــتجمع بعــض المــسجونين في نوع من الملهى، حيث كان يجري تنظيف الكوخ مؤقــتاً، وتُــصَفُّ بعــض المقاعد الخشبية القليلة أو تثبت بالمسامير ويبدأ برنامج للترويح. وفي المساء كان يتجمع هناك أولئك الأشخاص الذين يحظون بمكانة طيبة في المعسكر – مثل رجال الكابو والعاملون الذين لا يبارحون المعسكر إلى مسافات بعــيدة ســيراً علــى الأقــدام. وهــم يأتون لكي يتمتعون بضحكات قليلة أو ربما يتصايحون قليلاً؛ وكل هذا بهدف النسيان بأي طريقة من الطرق. وفي هذا التجمع

(1) "Et Lux in tenebris lucet".

توجد الأغاني والأشعار والنكات، وبعضها كان ينطوي على تعريض بالمعسكر أو حتـــى هجاءه ونقده. وكان القصد من كل ذلك مساعدتنا على النسيان؛ وقد ساعدنا بالفعـــل. وكانت هذه التجمعات فعالة إلى درجة أن بعض المسجونين كانوا يذهبون لـــرؤية هـــذا الملهى رغم التعب البادي عليهم، ورغم افتقادهم لنصيبهم اليومي من الطعام إذا ذهبوا إلى هذا التجمع.

أثـــناء فترة النصف الساعة لتناول الغذاء حينما يُرْجى توزيع الحساء في موقع عملـــنا، كـــان يـــسمح لـــنا بالتجمع في حجرة لماكينات لم يتم الانتهاء منها. وعند الدخول لهذه الحجرة، كان كل شخص يأخذ مغرفة من الحساء غير المركز. وبينما كـــنا نرتـــشفها بنهم، كان مسجون يعتلي حوضاً ويغني ألحاناً إيطالية. وكنا نستمتع بالأغاني، وكانوا يمنحوني معونة مضاعفة من الحساء، "من القاع" مباشرة – وهذا يعني حساء ذاخراً بالبازلاء.

لـــم يكن ما يعطى من الجزاء في المعسكر قاصراً على التسلية فحسب، وإنما كـــان يعطي كذلك على التصفيق. ولقد كان في ذلك، على سبيل المثال، حماية لي من أكثر رجال الكابو في المعسكر إرهاباً، والذي كان يُعْرف لأكثر من سبب على أنـــه "الكابو القاتل". وكيف حدث ذلك؟ في مساء يوم من الأيام كان لي شرف كبير أن أدعـــى مـــرة أخـــرى إلى الحجرة التي يجرى فيها استحضار الأرواح. هناك تجمعت نفس مجموعة الأصدقاء المقربين إلى كبير الأطباء والضابط المسئول عن فـــريق الرعاية الصحية. وبالصدفة دخل الكابو القاتل إلى الحجرة، وطلبوا منه أن يـــردد إحدى أشعاره التي غدت مشهورة (أو غير مشهورة) في المعسكر. ولم يكن بحاجـــة إلـــى أن يطلـــب مـــنه ذلك مرتين، فبسرعة أخرج نوعاً من دفاتر تدوين اليوميات وبدأ يقرأ منها عينات من فَنِّه. وصرت أعض على شفتي حتى آلمتني كي أمنع نفسي من الضحك على أحد أشعاره عن الحب، ومن المحتمل تماماً أن هذا قد أنقـــذ حياتي. ولما كنت أيضاً كريماً في تصفيقي له، فإن حياتي قد كتبت لها النجاة حتـــى ولو مسجلاً بمجموعة العمل عنده ليوم واحد – وهو يوم كاف تماماً بالنسبة لـــي. فكان من المفيد، بأية طريقة، أن أكون معروفاً من زاوية مفضلة لدى الكابو القاتل. لذا كنت أصفق بقدر ما أوتيت من قوة.

ويمكنـــنا بطبـــيعة الحال أن نقول بصفة عامة أن أي لون من ألوان الفن في المعـــسكر لا يخـــرج عـــن كـــونه شيئاً غريباً أو مثيراً لدرجة ما لبعض السخرية والـــضحك. وأستطيع أن أقول أن الانطباع الحقيقي عن أي شيء يتصل بالفن إنما ينـــشأ فقـــط مـــن التناقض الشبحي بين الأداء الترويحي وبين خلفية حياة المعسكر

الكئيــبة. فلن أنسى أبداً كيف استيقظت من نوم عميق استغرقت فيه نتيجة للإجهاد فـــي الليلة الثانية في معسكر آوشويتز، على أصوات موسيقى، حيث كان الحارس الأكبـــر لجناحـــنا قد أجرى احتفالاً في حجرته التي كانت قريبة من مدخل جناحنا. وكانت الأصوات المترنحة سُكارى تتعالى بنغمات مبتذلة. وفجأة خيَّمَ الصمت على المكـــان وأخذ الكمان يشدو في سكون الليل بنغمة حزينة (هي نغمة رقصة التانجو) باعثة على اليأس؛ وهي نغمة غير عادية لم يفسدها تكرار عزفها. على هذه النغمة بكـــى الكمان وكان يبكي جزءٌ منيِّ معه، لأنه في ذلك اليوم نفسه كان عيد الميلاد الـــرابع والعـــشرين لشخص ما. ذلك الشخص يرقد في مكان آخر بالمعسكر، ومن المحتمل أن يرقد على بعد مئات قليلة من الياردات أو لألف ياردة بعيداً عني، ومع ذلك فإن الوصول إليه مستحيل تماماً. ذلك الشخص كان زوجتي.

تنمية روح المرح كحيلة دفاعية للمحافظة على الذات :

ممـــا قد يبعث على الدهشة أن يكتشف الشخص من خارج المعسكر أنه يوجد مظهر من مظاهر الفن في معسكر للاعتقال، ولكن ربما يكون أكثر مدعاة للدهشة أن نسمع كذلك بوجود إحساس بالمرح والدعابة. كان المرح في الواقع سلاحاً آخر مـــن أســـلحة الـــروح فـــي نضالها من أجل البقاء أو المحافظة على الذات. ومن المعروف جيداً أن المرح يستطيع أن يزود المرء بالانعزال عن أي موقف وبالقدرة على أن يعلو فوقه، حتى ولو لثوان قليلة فقط. والمرح يتفوق في هذا على أي شيء آخر في التكوين البشري. ولقد دَرّبت بطريقة عملية صديقاً لي كان يعمل في موقع قريب مني على أن ينمي روح المرح. واقترحت عليه أن يتعهد كل منا أمام الآخر بـــأن يبـــتدع كل واحد منا على الأقل حكاية واحدة تبعث على الضحك مما يتعلق بـــواقعة مـــا يمكـــن أن تحدث في أحد الأيام بعد فك أسرنا. وقد كان هذا الصديق جـــراحاً يعمـــل ضمن هيئة الأطباء بمستشفى كبير. وقد حكيت له الدعابة التالية، اســـتناداً إلـــى ما كان يجري في موقع العمل، حيث كان الحارس يحثنا على العمل بـــشكل أســـرع بواسطة صياحه فينا: "اشتغل! اشتغل!": "في أحد الأيام سوف تعود إلـــى حجرة العمليات لتجري عملية جراحية كبيرة في البطن. وفجأة يقتحم الحجرة أحد المشرفين معلناً وصول كبير الجراحين بصياحه "اشتغل! اشتغل!".

وفـــي بعض الأحيان كان يبتدع أشخاص آخرون أحلاماً مسلية عن المستقبل، مـــثل التنبؤ بأنه عليهم في المستقبل أثناء تناول طعام الغذاء أن ينسوا أنفسهم حينما يقدم الحساء ويطلبوا من ربة البيت أن تصب لهم حساءً "من القاع".

المعاناة حالة نسبية :

إن محاولة تنمية روح المرح ورؤية الأشياء من منظور مرح يعتبر نوعاً من الحـيل الدفاعـية المـتعلمة من خلال التمكن من فن الحياة. إلا أنه من الممكن أن يجـري التدرب على فن الحياة حتى ولو كان في معسكر اعتقال، رغم أن المعاناة موجودة في كل مكان. ويمكننا أن نشبه معاناة الإنسان بما يفعله الغاز. فلو أن كمية معيـنة مـن الغـاز جرى ضخها في حجرة فارغة، فإنها سوف تملأ الحجرة كلية بالتـساوي، بصرف النظر عن حجم الحجرة. وعلى هذا النحو، فإن المعاناة تغمر الـروح الإنسانية كلها والعقل الواعي بأكمله، بصرف النظر عما إذا كانت المعاناة كبيرة أم صغيرة. إن "حجم" المعاناة الإنسانية إذن هو مسألة نسبية تماماً.

يتبع ذلك أيضاً أن الشيء التافه قد يسبب بهجة عارمة. ولنأخذ لذلك مثالاً مما حدث لنا في رحلتنا من معسكر آوشويتز إلى المعسكر الواقع في منطقة داشاو. فلقد تملكـنا جمـيعاً خـوف من أن تكون سفرتنا متجهة صوب معسكر ماوتسهاوزن. وصـرنا جميعاً نزداد توتراً كلما اقتربنا من قنطرة معينة على نهر الدانوب يعبرها القطار لكي يصل إلى ماوتسهاوزن، وفقاً لما قرره زملاؤنا ذوو الخبرة في السفر. وأي إنـسان لـم ير أبداً شيئاً مماثلاً لمثل هذه المواقف لا يستطيع أن يتخيل رقص الـزملاء من الفرح داخل عربة القطار حينما رأوا أن القطار لم يعبر القنطرة وإنما اتجه رأساً إلى منطقة داشاو.

مـرة أخـرى، مـا الـذي حدث عند وصولنا إلى ذلك المعسكر، بعد رحلة اسـتغرقت يومـين وثـلاث لـيال؟ لم يكن هناك مكان يكفي لكل فرد لكي يجلس القرفـصاء علـى أرض العربة في ذلك الوقت. فكان على معظمنا أن يقفوا طوال الطـريق، بيـنما اتجهت القلة إلى تناوب الجلوس في وضع القرفصاء على كومة خفـيفة من القش الغارق في البول. كانت أولى الأنباء المهمة التي تسربت إلينا من المـسجونين القدامى عند وصولنا أنه في هذا المعسكر الأصغر نسبياً (وعدد نزلائه ٢٥٠٠ سـجيناً) لا تـوجد أفران، ولا محرقات، ولا غاز. ومعنى هذا أن الشخص الـذي يـصير هزيلاً جسمياً لا يرسل إلى حجرات الإعدام بالغاز، ولكن عليه أن ينتظـر حتـى يـتم إعـداد ما يعرف بـ "فرقة المرضى" التي يجري إعادتها إلى معـسكر آوشويتز. وهذه الأنباء المفاجئة السارة قد أوجدت فينا جميعاً حالة مزاجية طيـبة. وتحققت بذلك رغبة المشرف الأكبر على مجموعتنا في آوشويتز: بأننا قد جئـنا، بأسرع ما يمكن إلى معسكر لم يكن له "مدخنة" – خلافاً لمعسكر آوشويتز.

وأخـــذنا في الضحك وإطلاق النكات رغم ما علينا أن نمر به خلال الساعات القليلة التالية.

وحيـــنما قاموا بإحصائنا نحن الوافدين الجدد، كان هناك واحد منا مفقوداً. لذا كـــان علينا أن ننتظر خارجاً في المطر والريح الباردة حتى يعثروا على الشخص المفقـــود. وقـــد اكتشفوه أخيراً في جناح، حيث خر نائماً من التعب. عندئذ تحولت عملـــية تفقد الأسماء إلى استعراض عقابي، فكان علينا جميعاً أن نقف طوال الليل وحتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، في العراء متجمدين من البرد بعد عناء رحلتـــنا الطويلة. ورغم ذلك، فقد كنا جميعاً مسرورين للغاية! فلا توجد مدخنة في هذا المعسكر، كما أن معسكر آوشويتز بعيد عنا تماماً.

وفي مرة أخرى، رأينا مجموعة من الأشخاص المحكوم عليهم بالسجن يمرون أمـــام موقـــع عملـــنا. واتضحت لنا النسبية في ألوان المعاناة التي بدت لنا عندئذ! وأخـــذنا ننظر بعين الحسد لأولئك المسجونين على ما يتمتعون به نسبياً من الحياة المـــنظمة الآمـــنة والسعيدة. وكان واضحاً بما لا يدعو للشك أنهم يحظون بفرص مـــنظمة للاســـتحمام؛ وقـــد كنا نفكر في ذلك بحزن. وكانت لديهم الفرش لتنظيف الأسنان والملابس النظيفة والفراش المريح – فراش مستقل لكل واحد منهم، وكانوا يـــتلقون الرســـائل مرة كل شهر مما كان يحمل إليهم أخبار ذويهم، أو على الأقل يعـــرفهم مـــا إذا كانـــوا على قيد الحياة. أما نحن فقد حرمنا من ذلك كله منذ فترة طويلة.

كـــذلك كم كنا نحسدهم على ما كانوا يتمتعون به من فرص للعمل في مصنع فـــي أمـــاكن مهيأة مسقوفة! وكانت رغبة كل شخص منا أن يحظى بذلك القدر من الحـــظ الذي معه تكتب لحياته النجاة. هذا المقياس من الحظ النسبي يتسع حتى إلى مـــا هو أبعد من ذلك. كان بين تلك المجموعات التي تعمل خارج المعسكر (وكنت عـــضواً في واحدة منها) بعض الوحدات التي اعتبرت أسوأ من غيرها. فقد يحسد شـــخص زمـــيلاً له على أنه لا يخوض في الوحل العميق على منحدر عال ليقوم بتمهـــيد خطـــوط حديدية لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً. وفي هذا العمل كانت تقع معظم الحوادث اليومية، وكانت في الغالب حوادث مميتة.

وفي جماعات عمل أخرى كان المشرف يتبع تقليداً يبدو أنه كان تقليداً محلياً؛ فهـــو يعمد إلى توجيه الضربات واللطمات لمسجونيه، الأمر الذي يجعلنا نتكلم عن الحـــظ النـــسبي وعن أننا لحسن الحظ لسنا تحت إمرته أو ربما تحت إمرته لفترة مؤقتة فقط. في أحد المرات، وبالصدفة غير السعيدة، ألحقوني بمثل تلك المجموعة.

ولـــو لم يحدث أن صافرة الإنذار بالمعسكر قد حولت انتباهه عني بعد ساعتين من ذلك (وقد كان في هذه الفترة يترقبني بصفة خاصة)، حيث كان عليه أن يعيد تنظيم الجماعـــة بعـــد هذه الفترة، فإني أعتقد أني كنت سأعود إلى المعسكر محمولاً على ناقلـــة تقـــل أولئك الأشخاص الذين وافتهم المنية أو أشرفوا على الموت من وطأة الـــتعب والإجهـــاد. ولا يستطيع أحد أن يتخيل مدى الارتياح الذي يمكن أن تحدثه الـــصافرة فـــي هذا الموقف؛ ذلك الارتياح الذي يفوق إحساس الملاكم الذي يسمع الجرس معلناً نهاية الشوط والذي يكون بذلك قد نجا في الدقيقة الأخيرة من خطورة ضربة قاضية.

ولـــذلك، كـــنا شـــكورين علـــى أقـــل ما يصيبنا من نعمة ومن رحمة. وكنا مـــسرورين حينما نجد وقتاً لإزالة القمل العالق بملابسنا قبل أن نأوى إلى مضاجع النوم، رغم أن هذا لم يكن في ذاته مدعاة للسرور، إذ أنه كان يعني الوقوف عرايا فـــي مكان منعدم التدفئة تتدلى من سقفه بلورات المياه المتجمدة. ومع ذلك، فقد كنا شكورين إذا لم تدو صافرة الإنذار بالمعسكر لتعوقنا عن القيام بهذه العملية، وإذا لم تـــنقطع الإضاءة عنا. إذ لو حدث أننا لم نقم بهذه المهمة كما ينبغي، فسوف يتملكنا الأرق نصف الليل.

هـــذا الـــسرور الزهيد لحياة المعسكر قد ولّد فينا نوعاً من السعادة السلبية – "ســـعادة الخلاص من المعاناة" كما يقررها "شوبنهاور" – وحتى هذا فإنه لم يكن إلا علـــى نحو نسبي. أما الأشكال الإيجابية الحقيقية للسرور، وحتى الأشكال الصغيرة مـــنه، فقـــد كانـــت ضـــئيلة للغاية. أتذكر أني قد قمت في أحد الأيام بكتابة فترات السرور في حياتي بالمعسكر، فوجدت أنه في الأسابيع الكثيرة الماضية خَبِرْتُ فقط لحظتـــين باعثتين على السرور: الأولى عندما كنت عائداً من العمل، وحين سمحوا لـــي بأن أحصل على طعامي من طابور الطباخ السجين "ف"، الذي كان يقف خلف وعـــاء ضـــخم ويـــصب الحساء في الأواني التي تمتد بها أيدي المسجونين الذين يـــسيرون واحـــداً تلـــو الآخر. فلقد كان هو الطباخ الوحيد الذي لا يتفحص وجوه المـــسجونين أثناء صبه الحساء لهم؛ كما كان هو الطباخ الوحيد الذي يوزع الحساء بالتـــساوي، دون اعتبار للرشاوي، أو دون محاباة لأصدقائه أو أهل بلده، كما يلتقط لهـــم قطع البطاطس من قاع الوعاء، بينما الآخرون من المسجونين يحصلون على حساء مائي منزوع من السطح.

لكن ليس لي أن أطلق حكماً على أولئك المسجونين الذين يفضلون معارفهم أو أهلهـــم على أي شخص آخر. من يستطيع أن يقذف بالحجر شخصاً يؤثر أصدقاءه

تحـت ظروف الحياة أو الموت، إن آجلاً أو عاجلاً؟ فليس من حق أي شخص أن يصدر حكمه على فعل ما إلا إذا سأل نفسه بأمانة مطلقة عما إذا كان سيسلك نفس السبيل في موقف مماثل.

حدث بعد فترة من استعادتي لحياتي العادية مرة ثانية (أي بعد فترة طويلة من إطـلاق سـراحي مـن المعسكر) أن قدم لي شخص مجلة أسبوعية تحوي صوراً لمـساجين متـزاحمين علـى أسِرَّتهم غير المريحة، وهم يحملقون في أحد الزوار بإحـساس متـبلد أو بغباء. قال هذا الشخص: "أليس هذا منظراً رهيباً؟ تلك الأوجه المحدقة بنظرات الهلع – فكل شيء في هذا المنظر يبعث على الفزع".

فـبادرت زميلي بالسؤال: "ولماذا؟" – لأني بصدق لم أفهم ما يقرره من وحي هذه الصورة. ففي تلك اللحظة رأيت كل هذا المنظر مرة ثانية: في الساعة الخامسة صـباحاً، حيث كانت الدنيا لا تزال غارقة في الظلام الدامس. وكنت أضجع على ألـواح خـشبية قاسية في جناح أرضي حيث تجمع حوالي سبعين سجين منا "تحت الـرعاية". لقـد كنا مرضى، ولا نبارح المعسكر إلى مواقع العمل، ولا نسير في طوابير العرض، وكنا نستلقي طيلة اليوم في ركن صغير من الجناح، ونستغرق في نـوم خفـيف، انـتظاراً لـتوزيع المؤونة اليومية من الخبز (والتي تُنْقَص بالنسبة للمرضـى بطبـيعة الحال) ومن الحساء (المخفف والناقص من حيث الكمية). ومع ذلـك، فقـد كنا نشعر بالرضا وبالسرور رغم كل شيء. وبينما كنا نتكوم وننكمش التصاقاً ببعضنا البعض لكي نتجنب أي تسرب للدفء من بيننا، وحيث كان الكسل والتبلد آخذين منا بحيث لم تكن لدينا رغبة لأن نحرك إصبعاً بدون ما ضرورة، إذا بنا نسمع صفيراً وصياحاً صاخبين صادرين من أحد الجوانب حيث عادت الدورية الليلـية وتجمعـت للمناداة على الأسماء للتأكد من تواجدنا. وانفتح الباب بقوة على مـصراعيه، وانـدفعت الـرياح الثلجية العاصفة داخل جناحنا. ودخل أحد الرفقاء المنهكـين، والـثلوج تغطـيه، إلى الجناح لكي يجلس لدقائق قليلة. ولكن المشرف الأكبـر طـرده خارجـاً مرة ثانية. لقد كان من المحظور بكل صرامة أن يسمح لـشخص غـريب بدخـول الجناح، بينما تجري عملية مراجعة المسجونين. وكم شعرت بالأسى لذلك الزميل، وكم كنت مسروراً على أني لم أكن أنا في موقفه في تلك اللحظة، وإنما بدلاً من ذلك كنت مريضاً واستطيع أن أنال بعض النوم الخفيف فـي جـناح المرضـى! وكـم كان في هذا إنقاذ لحياتنا بأن نمكث ليومين في هذا المكان، بل ربما ليومين آخرين بعد ذلك!

كـــل ذلك قد استعدته في عقلي حينما رأيت الصور في المجلة. وحينما فسرت ذلـــك الموقف، استطاع المستمعون أن يفهموا لماذا لم أجد الصور هكذا باعثة على الفـــزع: فالأشخاص الذين يظهرون في هذه الصور قد يكونون بالتعاسة التي نحكي عنها رغم كل شيء.

فـــي الـــيوم الـــرابع مـــن ركونـــي بجناح المرضى اختاروني لمهمة خاصة بالواجـــبات (الوردية) الليلية، حينما اندفع كبير الأطباء إلى الجناح وطلب مني أن أتطـــوع للقيام ببعض العمال الطبية في معسكر آخر يحوي مرضى بالتيفوس. وقد قررت أن أتطوع استجابة للنصيحة الملحة لأصدقائي (رغم الحقيقة بأن زملائي لم يقدمـــوا خـــدماتهم في هذا الميدان). وقد كنت أعلم أن التحاقي بفريق للعمل يعني موتـــي فـــي فتـــرة قصيرة. ولكن إذا كان لي أن أموت هكذا، فسوف يكون لموتي معنـــى على الأقل. ولا شك أني قد أخذت على عاتقي أن أحقق هدفاً وهو محاولة مـــساعدة زملائـــي كطبيب بدلاً من حياة البلادة التي أعيشها أو فقداني لحياتي في النهاية كعامل غير منتج كما كنت آنذاك.

لـــم يكـــن فـــي ذلك تضحية بالنسبة لي. فقد أمر الضابط المسئول في فريق الـــرعاية الصحية سراً بأن الطبيبين اللذين تطوعا للعمل في معسكر التيفوس يلقيان "رعاية خاصة" إلى أن ينتهيا من مهمتهما. لقد بدا علينا الضعف والوهن واضحين، حتـــى أن الضابط قد راوده خوف من أنه سوف يكون بين يديه جثتان أخريان بدلاً من طبيبين عاملين.

الأنا والقيم:

لقد ذكرت من قبل كيف أن كل شيء قد فقد قيمته بسبب التمركز حول المَهَمة الـــراهنة الخاصة، وهي حفاظ الشخص على نفسه وعلى أصدقائه المقربين أحياءً. لقـــد جـــرت التضحية بكل شيء من أجل هذه الغاية. وصار خُلُق الإنسان متورطاً إلـــى الحـــد الذي جعله يعيش حالة عقلية مضطربة تهدد كل القيم التي يتمسك بها وتجعلهـــا موضـــع شـــك. فـــتحت تأثير هذا العالم الذي لم يعد يعترف بقية الحياة الإنـــسانية والكـــرامة الإنسانية، والذي قد سلب من الإنسان إرادته وجعله عرضة للإبـــادة، تعاني الأنا عند الشخص في النهاية من فقدان القيم. وإذا لم يكافح الإنسان فـــي معـــسكر الاعتقال ضد ذلك حتى آخر جهد لديه لكي ينقذ احترامه لنفسه، فإنه يفقد الشعور بكونه فرداً، وكائناً له عقل، وله حرية داخلية، وله قيمة شخصية. فهو عندئذ يعتقد أنه ليس إلا جزءً من حشد هائل من الناس؛ ويهبط وجوده إلى مستوى

الحـياة الحيوانـية. فهؤلاء الأشخاص كانوا يُساقون كالحيوانات – أحياناً من مكان إلى آخر، وأحياناً أخرى كجماعات، ثم فرادى – مثل قطيع الأغنام المجرد من أي تفكيـر أو إرادة. وكانت هناك شرذمة صغيرة ولكنها خطيرة من الحراس تراقبهم من كل الجوانب، متمكنة تماماً من كل طرق التعذيب والسادية. فهم يسوقون قطيع المـسجونين علـى نحـو متواصـل، إلى الأمام وإلى الخلف، بالصياح والركلات والـصفعات. أمـا نحن، القطيع، فلم نكن نفكر إلا في شيئين: أحدهما كيف نتجنب الكلاب الشرسة، وثانيهما كيف نحصل على بعض الطعام.

وقد كان كل شخص منا، مثل الخراف التي تتزاحم بجبن وسط القطيع، يحاول أن يـصل إلـى وسط التجمعات، حيث أن ذلك يمنحه فرصة أفضل لتجنب لطمات الحراس وركلاتهم ممن يسيرون على الميمنة والميسرة وفي المقدمة والمؤخرة من الصف (الطابور) الذي نسير فيه. وكان للمركز الأوسط داخل تجمع الطابور ميزة أخـرى تتمثل في الاحتماء من الرياح القاسية. لذا كان كل فرد يسعى – كمحاولة لكـي يفلت بجلده – إلى أن يختفي بداخل الحشد. وكان هذا يجري بطريقة آلية عند بداية تجمع الصف (الطابور). ولكن في أوقات أخرى كان يتم ذلك من جانبنا بجهد مقـصود، كمسايرة مع بعض القوانين الأكثر إلحاحاً بالمعسكر وهي قوانين حماية الـنفس: لا تكـن ظاهـراً! ولـذا حاولنا في كل الأوقات أن نتجنب اجتذاب انتباه الحراس.

وقـد كانـت هـناك أوقـات، بطبيعة الحال، يكون فيها من الممكن، بل من الـضروري، أن نبـتعد عـن الحـشد. فمـن المعروف جيداً أن الحياة الجماعية المفروضة، حيث تجري مراقبة كل شيء يفعله الفرد في كل الأوقات، قد تتمخض عـن حافـز قهري للتباعد، على الأقل لفترة قصيرة. لذا كان السجين يتوق إلى أن يكون وحده مع نفسه وأفكاره. فهو في شوق إلى العزلة والوحدة. لقد أتيحت لي – بعـد نقلـي إلـى ما يعرف بـ "معسكر الاستشفاء" – فرصة نادرة لأن أتمتع بهذه الـوحدة لمـدة خمس دقائق في كل مرة. فخلف الجناح الأرضي، حيث كنت أعمل وحـيث يـتجمع ما يقرب من خمسين مريضاً محموماً، كانت هناك بقعة هادئة في ركـن قـريب مـن سياج الأسلاك الشائكة المكهربة المحيطة بالمعسكر. وفي هذا المكـان جرى نصب خيمة ببعض القوائم وأغصان الأشجار كي تأوى نصف دستة مـن أجـساد الموتى (وهو المعدل اليومي للموت في المعسكر). وكان هناك أيضاً ممـر رئيسي يؤدي إلى أنابيب المياه. وعلى الغطاء الخشبي لهذا الممر كنت أجلس القرفـصاء، حيـنما يكونـون بغيـر حاجة إلى خدماتي. كنت أجلس وأتطلع إلى

المـــنحدرات المزدانة بالخضرة والزهور، وإلى التلال الزرقاء البعيدة المترامية في أراضــــي بافاريا، وهي الأراضي التي تحدها شبكات الأسلاك الشائكة. وتستغرقني الأحلام بشوق، وتجوب أفكاري في الشمال والشمال الشرقي، في اتجاه منزلي، إلا أني لم أكن أرى إلا سحباً فحسب.

أما الجثث الملقاة بالقرب مني، والغاصة بالقمل، فلم تكن لتقلقني. ولكن ما كان يفيقنــــي من أحلامي هو وقع خطوات أقدام الحراس المارين، أو المناداة لكي أذهب إلـــى جـــناح المرضـــى أو لكي أقوم باستلام مؤونة من الدواء وصلت أخيراً إلى جناحـــي – وهـــذه المؤونة تتألف غالباً من خمسة إلى عشرة أقراص من الأسبرين تـــستخدم لعدة أيام لخمسين مريضاً. وكنت أقوم بجمع هذه الأقراص، ثم أدور على المرضـــى كـــي أتفقـــدهم، وأتحسس نبضهم، وأعطي نصف قرص من الأسبرين للحـــالات الـــشديدة. أمـــا الحــــالات الميئوس منها فلم تكن تلق دواءً. ولم تكن هذه الأقـــراص تـــسدي أية مساعدة، بل إنها كانت لا تُعْطَي لأولئك الذين لا يزال فيهم بعـــض الأمـــل في الحياة. أما الحالات الخفيفة، فلم يكن عندي ما أعطيه لها سوى كلمـــة تـــشجيع. وعلى هذا النحو كنت أجر نفسي متفقداً مريضاً وراء الآخر، رغم أنـــي أنـــا نفـــسي كنت ضعيفاً ومرهقاً من نوبة حادة من التيفوس. وبعد ذلك أعود أدراجي إلى مكاني المنعزل على الغطاء الخشبي للممر المائي.

فـــي أحـــد المـــرات، كان هذا الممر سبباً في إنقاذ أرواح ثلاث من زملائي المـــسجونين. فقبل إطلاق سراحنا، جرى تنظيم عمليات النقل الجماعي إلى داشاو، وحاول هؤلاء الزملاء بحكمة أن يتهربوا من هذا النقل. وقد تم ذلك بأن زحفوا إلى الممر واختبئوا فيه من الحراس. وجلست بهدوء على الغطاء الخشبي، ناظراً ببراءة ومـــشغولاً بطـــريقة طفلية باللعب بالحصى التي ألقيها على السلك الشائك. وحينما اقترب الحارس من مكاني تردد للحظة، ثم انصرف لحاله. وما أن اختفى الحراس حتى أخبرت الزملاء الثلاث بزوال أسوأ الأخطار.

إغفال الوجود الإنساني :

من الصعب تماماً على أي شخص خارجي أن يدرك كيف أن الحياة الإنسانية لـــم يكـــن لها في المعسكر قيمة تذكر. لقد كانت حياة النزيل بالمعسكر كلها مشقة ومعانـــاة، لكـــن مـــن المحـــتمل أنه قد صار أكثر وعياً بهذا الإغفال التام للوجود الإنـــساني حينما كان يجري ترتيب موكب نقل المرضى. فأجسام المرضى الهزيلة كانـــت تُلْقـــي على عربة ذات عجلتين يقوم بجرها مسجونون لعدة أميال، غالباً في

العواصف الثلجية، لكي ينقلوها إلى المعسكر التالي. وإذا حدث أن لقي أحد المرضى حتفه قبل رحيل العربة، فإنه كان يُلْقَي به في أي مكان – هنا ينبغي أن تكون قائمة المرضى صحيحة. فالقائمة هي الشيء الوحيد الذي يعنيهم في كل ذلك. لقد صار الشخص عبارة عن رقم من الأرقام: وسواء أكان حياً أم ميتاً، فإن هذا ليس بالأمر المهم. أما حياة، "الرقم" فلم تكن موضع اعتبار تماماً. وما يمكن وراء ذلك الرقم وتلك الحياة فلم يكن يعني إلا قليلاً: مصير الشخص، وتاريخه، وإسمه. أذكر ذات مرة في إحدى عمليات نقل المرضى، حث كان عليّ أن أصحبهم من معسكر إلى آخر أن سجيناً صغيراً قد وجد أن أخيه لم يكن مدرجاً في القائمة وأنه لذلك سيتركونه وراءهم. أخذ هذا السجين الصغير يتوسل كثيراً حتى أن المسئول عن المعسكر قد قرر أن يُجْري تبديلاً، حيث جعل الأخ يحل محل شخص كان يفضل في تلك اللحظة أن يمكث ولا يرحل. ولكن القائمة كان ينبغي أن تكون صحيحة. وهذا أمر سهل. فقد لجأ الأخ إلى مجرد استبدال الأرقام مع السجين الآخر.

ذكرت من قبل، أننا لم نكن نحمل أية وثائق؛ فيكفي كل فرد حظاً أن يمتلك جسده الذي كان، بعد كل ذلك، لا يزال ينبض بالحياة. ولكن ما عدا ذلك؛ مثل الخرق البالية العالقة على هياكل أجسادنا النحيلة، فإنه كان يحمل بعض الأهمية فقط إذا كنا قد أدرجنا ضمن قائمة نقل المرضى. فهذه الأجسام الهزيلة الراحلة كانت تخضع لفحص متبجح لكي يروا ما إذا كانت معاطفهم أو أحذيتهم أفضل مما لديهم. وبذلك تتم سرقة مخصصاتهم. أما أولئك الذين يمكثون بالمعسكر، والذين لا يزالون يحتفظون بمقدرة على العمل، فكان عليهم أن يستفيدوا من كل وسيلة لتحسين فرصهم على البقاء. واختفت فيهم العاطفة بذلك؛ فالمسجونون قد رأوا أنفسهم معتمدين تماماً على أمزجة الحراس، الذين يستهترون باللعب بأقدار هؤلاء الأشخاص – وهذا ما قد جعلهم أقل إنسانية بسبب الظروف التي تكتنفهم.



قصة "الموت في طهران" :

لقد وضعت لنفسي، في معسكر آوشويتز، قاعدة ثبتت جدواها، حتى أن معظم زملائي قد أخذوا بها فيما بعد: فبصفة عامة، كنت أجيب بصدق على كل أنواع الأسئلة التي توجه إليّ، في حين ألتزم بالصمت إزاء أي شيء لا يطلب مني خصيصاً. فإذا سألوني عن عمري، أذكره لهم، وعن مهنتي، أقول "طبيب"؛ ولكن

لا أتطـــرق إلـــى أية تفاصيل. في صباح اليوم الأول بمعسكر آوشويتز، جاء أحد الضباط إلى ساحة استعراض المسجونين، حيث كان علينا أن نتفرق إلى مجموعات تتـــضمن إحــــداها من هم أكثر من أربعين عاماً، وأخرى من هم أقل من الأربعين عامـــاً، وإحــــداها عمال الصلب، والميكانيكيين وغير ذلك من فرز المسجونين إلى مجمـــوعات مختلفة. وبعد ذلك خضعنا لفحص طبي، أعقبه تكوين مجموعة جديدة من بعض المسجونين. أما المجموعة التي أُدرجت فيها، فقد سيقت إلى جناح آخر، حيث تجمعنا في طابور مرة أخرى. وبعد أن جرى فرزي مرة أخرى بعد أن قمت بالـــرد على أسئلة متعلقة بمهنتي، أرسلوني إلى مجموعة أخرى صغيرة. ثم قرروا إرســـالي لجــــناح آخر وتصنيفي بشكل آخر، وقد استمر ذلك لبعض الوقت، حتى صرت غير سعيد إطلاقاً، لأني قد وجدت نفسي وسط غرباء يتكلمون بلغات أجنبية غير مفهومة. ثم جاء الفرز الأخير، وأجد نفسي أعود مرة أخرى إلى الجماعة التي كـــنت معهـــا في الجناح الأول، ولاحظ زملائي أنه قد جرى إرسالي من جناح إلى آخـــر فـــي الوقت نفسه. إلا أني كنت واعياً بأنه في خلال تلك الدقائق القليلة أخذ مصيري أشكالاً كثيرة مختلفة.

حينما نظموا عملية نقل المرضى إلى "معسكر الاستشفاء"، أدرجوا إسمي (أي رقمي) ضمن القائمة، لحاجتهم إلى بعض الأطباء. ولكن لم يكن أي شخص مقتنعاً بـــأن وجهة السفر سوف تكون معسكر الاستشفاء حقيقة. فمنذ أسابيع قليلة ماضية، أعدوا نفس عملية النقل. وفكر كل شخص أن عملية النقل موجهة إلى أفران الحرق بالغاز. وعندما أعلنوا أن أي فرد يتطوع للعمل في "الوردية" الليلية المفزعة سوف لا يدرج في قائمة النقل، قام إثنان وثمانون من المسجونين بالتطوع على الفور. ولم تمـــض ربــــع ســـاعة إلا وألغـــيت عملية النقل، بينما ظل الإثنان والثمانون سجيناً مدرجـــين فـــي قائمة "الوردية" الليلية. وكان يعني ذلك الموقف، بالنسبة لغالبيتهم، الموت خلال الأسبوعين التاليين.

والآن للمـــرة الثانـــية، قامـــوا بتنظيم عملية النقل إلى معسكر الاستشفاء. ولا يعـــرف أي فـــرد ثانية ما إذا كان في ذلك خدعة يحصلون بواسطتها على آخر ما تبقـــى من رمق للعمل عند السجين المريض – ولو لأربعة عشر يوماً فقط – أو ما إذا كانوا سيساقون إلى أفران الحرق بالغاز أو إلى معسكر حقيقي للاستشفاء. همس إلـــى كبيـــر الأطباء، الذي كان يُبدي ميلاً نحوي، في الساعة العاشرة إلا الربع من مـــساء أحــــد الأيام، قائلاً: "لقد تركت أمراً في مكتب الوحدة بأنه في استطاعتك أن تدرج إسمك ضمن القائمة، وتستطيع أن تقوم بذلك حتى الساعة العاشرة".

أخبــرته أن هــذا لــيس أسلوبي في الحياة، فلقد تعلمت أن أدع الأقدار تأخذ مجراها، وقلت له: "إني قد أمكث أيضاً مع أصدقائي". فرماني بنظرة من عينيه تنم عن شفقة، كما لو كان على علم بما يجري. وصافحني في صمت، كما لو كان في ذلــك وداع ليس من أجل الحياة، ولكن من الحياة. وببطء سرت عائداً إلى جناحي، حيث وجدت صديقاً حميماً في انتظاري.

سألني بحزن: "هل تنوي حقيقة الذهاب معهم".

"نعم، إني ذاهب".

فانهملــت الدموع من عينه، وحاولت أن أهدئ من روعه. ثم كان هناك شيء آخــر علــى أن أقوم به – وهو أن أكتب وصيتي: "إسمع، يا أوتو، إذا لم أعد إلى زوجتــي، وإذا كنت ستراها مرة ثانية، فأخبرها أولاً أني كنت أحادثها في كل يوم، وفي كل ساعة. تذكر ذلك، وأبلغها ثانياً، أني قد أحببتها أكثر من أي شخص آخر. وقل لها ثالثاً، أن الفترة القصيرة لزواجنا قد تفوقت على أي شيء آخر، بالرغم من كل ما نكابده هنا".

"أوتو، أين أنت الآن؟ هل أنت على قيد الحياة؟ ما الذي حدث لك منذ آخر ليلة قــضيناها معــاً؟ هل عثرت على زوجتك مرة أخرى؟ وهل تتذكر كيف أني كنت أُحَفّظُــك وصــيتي عن ظهر قلب – كلمة كلمة – رغم دموعك الطفلية التي كانت تنهمر من عينيك؟"

فــي اليوم التالي رحلت مع المسجونين الجاري نقلهم. ولم يكن في هذه المرة خديعــة. فلم نكن متوجهين إلى غرف الإعدام بالغاز، وإنما كنا ذاهبين بالفعل إلى معــسكر للاستشفاء. أما أولئك الذين كانوا يشفقون عليّ، فقد ظلوا بمعسكر اشتدت فيه المجاعة بشكل أكثر ضراوة مما في معسكرنا الجديد. وقد حاولوا إنقاذ أنفسهم، ولكــنهم كانوا قد وصلوا إلى نهاية مصائرهم. قابلت صديقاً من المعسكر القديم بعد شــهور مــن إطــلاق سراحنا. وروي لي كيف أنه كرجل شرطة بالمعسكر، قام بالــبحث عــن قطعــة من لحم البشر تكون متبقية في كومة من الجثث، ولجأ إلى مــصادرتها بعــد أن وجــدها مطهية في إناء. لقد ظهر أكل لحوم البشر واندلعت الوحشية في أبشع صورها في المعسكر، الذي تركته لتوي في الوقت المناسب.

ألا يذكــرنا ذلك بقصة "الموت في طهران؟" تحكي هذه القصة كيف أن رجلاً إيرانياً غنياً وجباراً كان يسير ذات مرة في حديقته مع أحد خدمه. صاح الخادم بأنه يــواجه المــوت لتوه، والذي كان يهدده. وتوسل إلى سيده أن يعطيه أسرع حصان عــنده حتــى يستطيع أن يسرع بالفرار إلى طهران، التي يمكن أن يصلها في نفس

ذلـــك المـــساء. وافق السيد وامتطى الخادم صهو الحصان الذي أعطاه إياه، وأخذ يعــدو بـــه بسرعة. وعند عودته إلى المنزل، كان السيد نفسه يواجه الموت، وراح السيد يسأل الموت: "لماذا ترهب خادمي وتهدده؟" فقال الموت للسيد: "إني لم أهدده، ولكني مندهش فقط من أني لا أزال أجده هنا حينما عزمت على لقائه هذه الليلة في طهران".

إن نـــزيل المعـــسكر كـــان يخاف من اتخاذ القرارات ومن أخذ أي نوع من المبادأة أياً كانت. وهذا هو نتيجة شعور قوي بأن القدر هو سيد الفرد، وبأن المرء علـــيه ألا يحـــاول التأثير فيه بأي طريقة من الطرق، ولكن عليه بدلاً من ذلك أن يدعه يأخذ مجراه.

أضـــف إلـــى ذك، فقـــد كانت هناك حالة من البلادة الهائلة، التي أسهمت في تكـــوين مـــشاعر الـــسجين بقـــدر ليس بقليل. ومع ذلك، فقد نتخذ بعض القرارات الـــسريعة، التـــي تعني الحياة أو الموت. والسجين في كل ذلك يفضل أن يدع القدر يخـــتار لـــه مصيره. هذا الهروب من المسئولية كان أكثر وضوحاً حينما كان على السجين أن يتخذ قراراً بأن يحاول الهروب أو ينصرف عنه. في تلك اللحظات التي علـــيه فـــيها أن يتخذ قراراً – ويستغرق ذلك دقائق معدودة – كان يعاني مما يشبه عذاب جهنم. فهل يحاول الفرار؟ هل يقوم بالمخاطرة؟

ولقـــد خَبِـــرْتُ أنا أيضاً هذا العذاب. فكلما اقتربت جبهة القتال، أجد الفرصة للهـــروب. أراد زمـــيل لي – وهو الذي كان عليه أن يزور مواقع خارج المعسكر كجزء من مهامه الطبية – أن يهرب وأن يأخذني معه. لجأنا إلى ادعاء حاجتنا إلى أخـــذ مشورة بشأن مريض تستلزم حالته استشارة من أحد الأخصائيين، واستطعنا بـــذلك أن نهرب. وخارج المعسكر، كان على أحد أعضاء حركة المقاومة الأجنبية أن يـــزودنا بملابـــس رســـمية وبوثائـــق. ولكن ظهرت في اللحظة الأخيرة بعض الـــصعوبات الفنـــية، وكـــان علينا أن نعود أدراجنا إلى المعسكر مرة أخرى. ولقد اســـتفدنا مـــن هـــذه الفرصة لكي نزود أنفسنا بالمؤن – وهي عبارة عن قليل من البطاطس المتعفنة – ولكي نبحث عن حقيبة نشدها إلى ظهورنا.

اقتحمـــنا جناحاً فارغاً من معسكر النساء، الذي كان خالياً، حينما جرى ترحيل النـــساء إلـــى معسكر آخر. كان الجناح في فوضى كبيرة، وكان واضحاً أن نساءً كثيـــرات قـــد استحوذن على المؤن ولذن بالفرار: وكانت هناك خرق بالية، وقش، وطعـــام فاسد، وآنية فخارية محطمة. وكانت بعض الآنية ما تزال في حالة جيدة، ويمكـــن أن تكون ذات قيمة بالنسبة لنا؛ ولكننا قررنا ألا نأخذها. وقد علمنا أن هذه

الآنـــية فـــي الفترة الأخيرة، عندما غدت الظروف باعثة على اليأس، قد استخدمت ليس فقط لأجل الطعام، وإنما أيضاً كأحواض للغسيل ولقضاء حاجة التبرز والتبول (ولقد كانت هناك أوامر صارمة تمنع اقتناء أي نوع من أنواع الآنية داخل الجناح. إلا أن بعــض الأشــخاص قــد اضطروا إلى كسر هذه القاعدة، وخاصة مرضى التيفوس، الذين بلغ بهم الضعف حداً لا يستطيعون معه الخروج من أماكنهم بالجناح حتى بمساعدة الآخرين). وبينما كنت أرقب المكان، اقتحم صديقي الجناح وعاد بعد فتــرة وجيزة يحمل حقيبة خبأها تحت معطفه. ولقد رأى حقيبة أخرى بالداخل كان علــيَّ أن آخــذها. لــذا غيرنا موقعنا، ودخلت إلى الجناح. وبينما كنت أبحث في المهملات، وعثرت على الحقيبة وفرشة للأسنان، إذا بي أرى فجأة، من كل الأشياء المتروكة، جثة امرأة.

عــدت مسرعاً إلى جناحي لأجمع كل ما أملكه: "إناء الطعام، قفازين مهلهلين "موروثــين" عــن مــريض مــات بالتــيفوس، قصاصات قليلة من الورق خاصة بملاحظاتي التي كنت أسجلها بطريقة اختزالية (على هذه القصاصات – كما ذكرت مــن قــبل – بدأت إعادة كتابة المخطوط الذي فقدته في معسكر آوشويتز). وقمت بجــولة أخيــرة وسريعة لتفقد مرضاي، الذين كانوا يرقدون محتشدين على الألواح الخــشبية المتآكلة على كلا جانبي الأجنحة. وجئت إلى الشخص الوحيد من بلدي، والــذي كان يوشك على الموت، والذي كنت أطمح في إنقاذ حياته رغم حالته. وقد حاولت أن أخفي قصدي من الهرب بنفسي، إلا أن زميلي بدا كما لو كان يخمن بأن شيئاً خاطئاً يعتمل في نفسي (وربما كنت أبدي عصبية قليلة). وسألني بصوت هَدّه الــتعب: "هــل أنــت، أيضاً، تنوي على الرحيل؟" فأنكرت ذلك، ولكني وجدت من الصعب على أن أتجنب تصويب نظرته الحزينة. وبعد تفقدي للمرضى عدت إليه. ومــرة أخــرى استلمتني عيناه بنظرة يائسة ترحب بي، ولكني شعرت بها كما لو كانــت تــوجه إلــيَّ إتهاماً. هذا الشعور المؤلم، الذي استحوذ عليَّ عندما أخبرت صديقي بعزمي على الهرب معه، قد غدا أكثر وطأة. وفجأة قررت أن أحمل قدري بــين يــدي هــذه المرة فقط. فانصرفت جرياً خارج الجناح وأخبرت صديقي بأني قــررت ألا أذهب معه. وحالما أخبرته بقراري الأخير ببقائي مع مرضاي، انزاح عنــي مــا كان جاثماً على صدري من شعور مؤلم. لم أكن أعلم بما ستجلبه الأيام التالــية، ولكني اكتسبت سلاماً داخلياً لم أَخْبُره من قبل. عدت إلى الجناح، وجلست إلى جانب قدمي إبن بلدي وحاولت أن أهدئ من روعه، ثم أخذت في التحادث مع الآخرين، محاولاً تهدئتهم من هذيانهم.

توقع الحرية:

وحان يومنا الأخير بالمعسكر. فعندما اقتربت جبهة القتال، جرى ترتيب عمليات النقل الجماعي لترحيل كل المسجونين تقريباً إلى معسكرات أخرى. أما المسئولون عن المعسكر ورجال الكابو والطباخون، فقد لاذوا بالفرار. في هذا اليوم صدر أمر بإخلاء المعسكر تماماً قبل غروب الشمس. وحتى القلة من المسجونين المتبقين (المرضى وبعض الأطباء والممرضين) كان عليهم أن يرحلوا. وفي المساء، ستوقد النيران في المعسكر. ولكن الشاحنات التي ستجمع المرضى لم تصل في موعدها بعد الظهر. وبدلاً من ذلك أغلقت أبواب المعسكر فجأة وأخضعت الأسلاك الشائكة لمراقبة شديدة، حتى لا يسعى أي شخص إلى محاولة الفرار. وبدا أن المسجونين المتبقين قد حان مصيرهم ليحترقوا مع المعسكر. وللمرة الثانية قررت أنا وصديقي أن نلجأ إلى الهرب.

وصدر إلينا أمر بدفن ثلاثة أشخاص خارج سور الأسلاك الشائكة. ولقد كنت أنا وصديقي الشخصين الوحيدين بالمعسكر اللذين لديهما قوة تكفي للقيام بهذه المهمة. أما المسجونون الآخرون الذين يرقدون في الأجنحة القليلة الباقية مما لا تزال تُستخدم، فقد كانوا كلهم تقريباً طريحي الأرض من الحمى والهذيان. والآن أعددنا خططنا: فمع الجثة الأولى سنقوم بتخبئة حقيبة صديقي، داخل كيس قديم للغسيل استخدمناه ككفن؛ ومع الجثة الثانية نخبئ حقيبتي أيضاً؛ بينما نلوذ بالهرب في عملية دفن الجثة الثالثة. وقد استطعنا تنفيذ العمليتين الأولتين وفقاً للخطة. وبعد أن عدنا من عملية دفن الجثة الثانية، انتظرت صديقي الذي كان يحاول العثور على قطعة من الخبز حتى يمكن أن نجد شيئاً نأكله أثناء الأيام القليلة التالية التي سنقضيها في الغابات.. انتظرت.. مضت دقائق.. أخذ صبري ينفذ أكثر وأكثر لعدم عودته. فبعد ثلاث سنوات من السجن، كنت أتصور الحرية بفرح، متخيلاً روعة الوصول إلى جبهة القتال، ولكننا لم نمض بعيداً.

ففي نفس اللحظة التي عاد فيها زميلي، انفتحت بوابة المعسكر على مصراعيها. واندفعت سيارة ملونة فخمة من الألمونيوم، مطبوع عليها صلبان حمراء كبيرة، إلى أرض استعراض المسجونين. فقد وصل مندوب الهيئة الدولية للصليب الأحمر بجينيف ووضع المعسكر ونزلائه تحت رعايتها. وعين هذا المندوب لنفسه بيتاً يقيم فيه في منطقة مجاورة، ليكون على مقربة من المعسكر في كل الأوقات في حالة الطوارئ. ومن يقلق الآن بشأن الهرب؟ فها هم يقومون

بتفــريغ صناديق الأدوية من السيارة، وبتوزيع السجائر علينا، وبتصويرنا. وسادت الفرحة. ولم تعد هناك حاجة الآن إلى المخاطرة بالجري نحو جبهة القتال.

فـــي غمـــرة انفعالنا نسينا الجثة الثالثة، لذا قمنا بحملها خارجاً ووضعناها في القبـــر الضيق الذي حفرناه للجثث الثلاث. ولقد صار الحارس الذي يصحبنا – وقد كـــان شخصاً مسالماً – رفيقاً تماماً معنا بشكل مفاجئ. فلقد رأى كيف تدور الدوائر وتتغير الأحوال، وحاول أن يكسب ودنا. واشترك معنا في الصلوات القصيرة التي أقمناها على الموتى قبل أن نواريهم التراب. ولقد جاءت كلمات الصلاة التي رجونا بهـــا ســـلاماً، بعد التوتر والاستثارة التي عشناها في الأيام والساعات الماضية في سباقنا مع الموت، أشد حرارة من أي صلاة تلفظ بها صوت أي إنسان في أي وقت مضى.

بين الأمل واليأس :

هكـــذا انقضى اليوم الأخير في المعسكر في توقع الحرية. ولكن بهجتنا جاءت مبكرة للغاية. فقد أكد لنا مندوب الصليب الأحمر أن ثمة اتفاقية قد أُبرمت، وأنه لا ينبغـــي إخـــلاء المعـــسكر. ولكن في تلك الليلة وصل رجال الـــ "س س" ومعهم شـــاحنات، وكانـــوا يحملون معهم أمراً بإخلاء المعسكر. أما المسجونون المتبقون فـــسيجري تـــرحيلهم إلـــى معسكر رئيسي، ومنه يرسلون إلى سويسرا خلال ثمان وأربعـــين ســـاعة لكـــي يتم بهم استبدال أسرى الحرب. لقد استطعنا بصعوبة أن نتعـــرف على رجال الـــ "س س". فقد كانوا يبدون صداقة كبيرة، ويحاولون إقناعنا بدخول الشاحنات بدون خوف، ويقولون لنا أننا ينبغي أن نكون شكورين على حسن حظـــنا. وقد تزاحم المسجونون الأقوياء داخل الشاحنات، بينما صعد إليها بصعوبة المرضى والضعاف منهم. ووقفت أنا وصديقي – وفي ذلك الوقت لم نخبئ حقائبنا – فـــي المجمـــوعة الأخيرة، التي سيختار منها ثلاث عشر سجيناً يركبون الشاحنة الأخيرة. وقام كبير الأطباء بحساب العدد المطلوب، ولكنه أغفلني أنا وصديقي، وتم تحميل الثلاثة عشر سجيناً داخل الشاحنة، وكان علينا أن نمكث لشاحنة أخرى. وقد تملكتني الدهشة والغضب وخيبة الأمل، وعاتبت كبير الأطباء الذي اعتذر بقوله أنه كـــان مجهـــداً ومـــشتت الفكـــر. وقال أنه يعتقد أننا لا زلنا ننوي الهرب. وجلسنا والـــصبر قـــد نفذ منا، واضعين حقائبنا خلف ظهرنا، وانتظرنا مع القلة الباقية من المـــسجونين وصـــول شـــاحنة أخيـــرة. كان علينا الانتظار لفترة طويلة. وأخيراً اضـــطجعنا علـــى فراش حجرة الحارس المهجورة، ونحن متعبين من الإثارة التي

عــشناها في الساعات والأيام القليلة الأخيرة، والتي فيها كنا نتأرجح باستمرار بين الأمل واليأس. وغلبنا النعاس ونحن بملابسنا وأحذيتنا، استعداداً للرحيل.

واســتيقظنا على أصوات البنادق والمدافع؛ واقتحمت نيران الرصاص وقذائف المدافــع جناحــنا. واندفع كبير الأطباء بعنف إلى داخل الجناح وأمرنا بأن ننبطح أرضــاً. فــي تلك اللحظة قفز أحد المسجونين من الفراش على بطني بحذائه. وقد أيقظنــي ذلــك. وحــسناً قد فعل! ثم أخذنا نتطلع إلى ما يحدث: إن جبهة القتال قد وصــلت إليــنا! وأخــذ القصف يتضاءل، ولاح الفجر. وفي الخارج على السارية الموجودة عند بوابة المعسكر، كان علم أبيض يرفرف في الهواء.

*

بعــد عدة أسابيع اكتشفت أنه حتى في تلك الساعات الأخيرة كان القدر يلعب معــنا نحــن القلــة الباقــية من المسجونين. واكتشفنا عندئذ كيف تكون القرارات الإنــسانية غيــر أكيدة، خاصة في أمور الحياة والموت. فلقد فوجئت بصور جرى أخذها في معسكر صغير لا يبعد كثيراً عنا، ووجدت أن زملائي الذين اعتقدوا أنهم راحلون إلى الحرية قد أخذوهم في تلك الليلة في الشاحنات إلى هذا المعسكر، حيث قامــوا بــإغلاق الأبــواب والمــنافذ الموجــودة في الأجنحة التي وضعوهم فيها، وأحرقوهم حتى الموت. وكان يمكن التعرف من الصور على جثثهم شبه المتفحمة. مرة أخرى أخذت أفكر في قصة "الموت في طهران".

صورة عامة عن الحياة النفسية للسجين

لقد كانت حالة البلادة عند المسجونين، بصرف النظر عن دورها كآلية دفاعية، نتاج عوامل أخرى أيضاً، ومنها الجوع ونقص النوم (كما يؤثران في الحياة العادية كذلك) وهما اللذان أسهما في خلق هذه الحالة وفي حالة التهيج العام التي كانت خاصية أخرى للحالة النفسية للمسجونين. يرجع نقص النوم جزئياً إلى إزعاج الحشرات التي تمكنت من الأجنحة المزدحمة بشكل مزعج بسب انتفاء الشروط الصحية. كذلك أسهم عدم تزويدنا بالنيكوتين والكافيين في خلق حالة البلادة والتهيج العام.

بالإضافة إلى هذه الأسباب المادية، كانت هناك أسباب نفسية، في شكل عُقَد نفسية معينة. فكان أغلب المسجونين يعانون من نوع من عقدة النقص. لقد صرنا أو توهمنا أنفسنا على أنها مجرد "شخص ما". وكانت تجري معاملتنا كأشياء لا وجود لها على الإطلاق، أي ككيانات من العدم. (أما الوعي بالقيمة الداخلية للفرد فقد صار يعلو في أشياء أسمى وأكثر روحية، ولا يمكن أن تهزها حياة المعسكر. ولكن كم من الأشخاص الأحرار، ولندع المسجونين جانباً، يمتلك ذلك الوعي؟). لقد كان السجين العادي يشعر بنفسه، وبدون تفكير واع، على أنه شخص منحط لا قيمة له كلية. يتضح ذلك حينما نلاحظ التناقضات الموجودة في البناء الاجتماعي الفريد للمعسكر. فهذا الإحساس لم يكن يشعر به على الإطلاق المسجونون المَرْضِي عنهم ورجال الكابو والطباخون وأمناء المخازن وشرطة المعسكر، وإنما على العكس كانوا يشعرون برفعة منزلتهم. بل وقد نمت فيهم بعض أوهام العظمة. وجرى التعبير عن ردود الأفعال العقلية للأكثرية الحاقدة المتذمرة نحو هذه الأقلية المفضلة بطرق عديدة، أخذت شكل إطلاق النكات في بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، سمعت سجيناً يتحدث مع آخر عن أحد رجال الكابو، قائلاً: "تخيل! لقد عرفت ذلك الرجل حينما كان فقط الرئيس لبنك كبير. أليس من حسن الحظ أنه قد ارتفع عالياً جداً في العالم؟".

حينما كانت الأكثرية المنبوذة تدخل في صراع مع الأقلية المفضلة (وكان هناك الكثير من هذه المواقف، بدءاً من توزيع الطعام)، تكون النتيجة تفجراً لهذه الحالة. ومن ثم، تصبح حالة التهيج العام (والتي ناقشنا أسبابها المادية من قبل) أكثر حدة حينما تضاف إليها هذه التوترات العقلية. فليس هناك ما يدعو للدهشة إن كان هذا التوتر ينتهي غالباً إلى صدام عام بينهما. ولما كان السجين يشهد باستمرار

مناظـــر الضرب والاقتتال، فإن نزعة الاندفاع نحو العنف كانت في تزايد مستمر. وأنا نفسي كنت أشعر بقبضتي يدي تطبقان حينما يمتلكني الغضب في حالة الجوع والــتعب. ولقــد كــنت في العادة متعباً للغاية، لأنه كان علينا أن نوقد مدفأتنا طيلة اللــيل، وهي المدفأة التي كان مسموحاً لنا أن نحتفظ بها في جناحنا لأجل مرضى التــيفوس. ومـــع ذلــك، فقــد كانت بعض الساعات الأكثر شاعرية تلك التي كنت أقــضيها فـــي وســـط الليل حينما كان كل المسجونين الآخرين في حالة هذيان من الحمى أو يغطون في النوم. كنت أرقد متمدداً أمام المدفأة، وأشوي بعض البطاطس القليلة المسروقة على النار التي نوقدها بفحم نباتي مسروق؛ إلا أنني في اليوم التالي كنت أشعر دائماً بأني أكثر تعباً وتبلداً وتهيجاً.

الحاجات والأحلام والواقع :

بيـــنما كنت أعمل كطبيب في جناح مرضى التيفوس، كان عليَّ أيضاً أن آخذ مكـــان رئـــيس هـــذا الجـــناح، والذي كان مريضاً. لذا كنت مسئولاً أمام سلطات المعـــسكر عـــن نظافـــة الجناح إذا جاز لنا استخدام مصطلح "نظافة" لوصف تلك الحالـــة. لقد كان الغرض من إدعاء التفتيش الذي يخضع له الجناح بصفة متكررة هـــو التعذيب وليس الصحة. فما كان يعني المفتشون فحسب هو ما إذا كانت هناك كومة من القش متروكة في الممر الرئيسي، وما إذا كانت بطانيات المرضى القذرة والمهلهلـــة والمـــبللة بالحشرات قد قاموا بطيها بدقة عند أقدامهم. أما أقدار النزلاء ومـــصائرهم فلم تكن تعنيهم بالمرة. وقد كنت إذا أعلنت عن حضوري برقة، خالعاً قـــبعة السجن من على رأسي ومحدثاً صوتاً بكعب حذائي وأقول: "جناح رقم ٦/٩: ٥٢ مـــريض، وشخـــصان مسئولان عن التمريض، وطبيب واحد"، فإن ذلك كان يرضـــيهم. ثـــم يتركون الجناح خارجاً. ولكن حتى أن يعودوا وقد كانوا يتأخرون لـــساعات، بل وأحياناً لا يعودون على الإطلاق – أجد نفسي مضطراً أن أقوم بفرد البطاطـــين، وبالتقاط القش المتساقط من الفراش، وألعن تلك الشياطين التعسة التي تتبول في فراشها وتهدد بالإخلال بكل جهودي في حفظ النظام والنظافة. وقد كانت البلادة تزداد بصفة خاصة بين المرضى المحمومين، لذا لم يكن يصدر منهم أي رد فعل إلا إذا صاحوا فيهم. وحتى هذا كان يخفق في بعض الأوقات، الأمر الذي كان يـــتطلب ضبطاً هائلاً للنفس بألا يصطدم أحد بهم. فقد كانوا يبدون تهيجاً شديداً في مـــواجهة بلادة الشخص الآخر وخاصة في مواجهة الخطر (أي التفتيش المرتقب) الذي كان يتسبب نتيجة لهذا الموقف.

الحرية والاختيار:

إن فـي محاولتـي لتقديم هذه الصورة النفسية عن الخصائص المميزة لنزيل معـسكر الاعتقال وتفسيرها من منظور علم النفس المرضي، ربما أعطى الانطباع بـأن الكائن الحي الإنساني يتأثر تماماً وحتماً بالمحيطين به. (في هذه الحالة يتمثل التـركيب الفريد لحياة المعسكر في كل ما يحيط بالنزيل، الأمر الذي يجبر السجين علـى أن يجعـل سـلوكه يساير نمطاً معيناً من الأفعال). ولكن ماذا عن الحرية الإنـسانية؟ ألا توجد حرية روحية فيما يتعلق بالسلوك ورد الفعل إزاء الأشخاص المحيطـين بالفرد؟ هل صحيحة تلك النظرية التي تجعلنا نعتقد أن الإنسان لا يعدو أن يكـون نتاج عوامل بيئية وظروف كثيرة – وهي ذات طبيعة بيولوجية ونفسية واجتماعـية؟ وهـل الإنسان هو النتاج العَرَضي لهذه العوامل ولا شيء غير هذا؟ والأكثـر أهمـية، هل ردود أفعال المسجونين إزاء العالم الفريد لمعسكر الاعتقال تثبت أن الإنسان لا يستطيع التخلص من تأثيرات المحيطين به؟ أليس لدى الإنسان أي اختيار لأفعاله في مواجهة تلك الظروف؟

تستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة من وحي الخبرة وكذلك من حيث المبدأ. تُبين خبرات حياة المعسكر أن الإنسان يستطيع أن يكون له اختياره لأفعاله. وهناك أمثلة كافـية، وحتى ذات طبيعة بطولية، تثبت أن البلادة يمكن التغلب عليها، وأن التهيج يمكـن قمعـه. فالإنـسان "في مقدوره" أن يحتفظ ببقية من الحرية الروحية، ومن استقلال العقل، حتى في تلك الظروف المروعة من الضغط النفسي والمادي.

أنـنا نحـن الـذين عـشنا فـي معسكرات اعتقال، نستطيع أن نتذكر أولئك الأشـخاص الـذين يمرون على الأجنحة لكي يهدئوا من روع الآخرين، ويضحون بإعطـائهم آخـر كسرة من خبز تتبقى معهم. ربما كان هؤلاء الأشخاص قلة من حـيث العـدد، ولكـنهم يقدمـون دليلاً كافياً على أن كل شيء يمكن أن يؤخذ من الإنـسان عدا شيئاً واحداً: وهذا الشيء الواحد هو آخر شيء من الحريات الإنسانية – وهو أن يختار المرء اتجاهه في ظروف معينة، أي أن يختار المرء طريقه.

كانت هناك على الدوام اختيارات مما يأتي به الشخص. ففي كل يوم، وفي كل سـاعة تتأتـي الفرصة لاتخاذ قرار – وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تخـضع أو لا تخضع لتلك القوى التي تهدد بأن تسلبك من ذات نفسك.. من حريتك الداخلية؛ وهو القرار الذي يحدد ما إذا كنت تنوي أن تصبح أولا تصبح لعبة في يد الظـروف، متخلـياً عن الحرية والكرامة لتصبح متشكلاً في القالب المميز للنزيل بالمعسكر.

وإذا نظـرنا إلـى ذلـك من وجهة النظر هذه، فإن ردود الأفعال العقلية لدى نـزلاء معسكر الاعتقال ينبغي أن تبدو لنا أكثر من مجرد تعبير عن ظروف مادية واجتماعية معينة. وحتى بالرغم من أن ظروفاً مثل نقص النوم وعدم كفاية الطعام والـضغوط العقلية المختلفة قد تفترض أن النزلاء مجبرون على الاستجابة بطرق معيـنة، فإنـه يصير واضحاً في نهاية التحليل أن نمط الشخص الذي يصير عليه الـسجين إنما هو نتيجة لقرار داخلي، وليس نتيجة لمؤثرات المعسكر وحدها. ومن ثـم، فإن أي إنسان يستطيع، حتى في أحلك الظروف، أن يقرر ماذا يريد أن يكون عقلـياً وروحـياً، وأن يقـرر أنه سوف يحتفظ بكرامته الإنسانية حتى في معسكر اعتقال.

العظمة الداخلية:

لقـد قـال دوستويفسكي ذات مرة: "يوجد شيء واحد فقط يروعني وهو: "ألا أكـون جديـراً بآلامـي". هذه كلمات قد راودت عقلي مراراً وألحت عليه بعد أن أصبحت مدركاً لأولئك الشهداء الذين يكشف سلوكهم في المعسكر، ويفصح عذابهم ومـوتهم فيه، عن الحقيقة بأن الحرية الداخلية الأخيرة لا يمكن فقدها. ويمكن القول كـذلك أنهـم كانوا جديرين بآلامهم؛ فالطريقة التي تحملوا بها آلامهم تمثل إنجازاً داخلياً أصيلاً. تلك هي الحرية الروحية – وهي التي لا يمكن سلبها من الإنسان – وهي التي تجعل الحياة ذات معنى وذات هدف.

إن الحـياة المتـسمة بالنشاط تفيد في إعطاء الإنسان فرصة لتحقيق القيم في عمل إبداعي، بينما تقدم الحياة السلبية القائمة على الاستمتاع فرصة أمام الفرد لكي يخبـر الجمال أو الفن أو الطبيعة. ولكن هناك كذلك غرضاً من تلك الحياة الجرداء التـي تنقـصها في الغالب ألوان الإبداع والاستمتاع مما يسمح بقبول احتمال واحد فحـسب مـن السلوك الأخلاقي الراقي، ألا وهو: اتجاه الإنسان نحو وجوده؛ ذلك الوجـود المقيد بقوى خارجية. فالحياة الإبداعية وحياة الاستمتاع كلتاهما محرمتان علـيه. ولكن ليس معنى هذا أن الإبداع والاستمتاع هما ألوان الحياة الغنية بالمعنى دون غيـرهما. فإذا كان هناك معنى في الحياة بصفة عامة، فإنه بالتالي ينبغي أن يكـون هـناك معنـى لـلآلام والمعاناة؛ فالآلام والمعاناة جزء من الحياة ويتعذر الخـلاص مـنهما، شأنهما في ذلك بل في مقدمتهما القدر والموت. وبدون المعاناة وبدون الموت لا تكتمل حياة الإنسان.

إن الطـــريقة التي يتقبل بها الإنسان قدره ويتقبل بها كل ما يحمله من معاناة، والطـــريقة التي يواجه بها محنه، كل هذا يهيئ له فرصة عظيمة – حتى في أحلك الظروف – لكي يضيف إلى حياته معنى أعمق. وقد تظل هذه الحياة حياة شجاعة، كريمة، لا تقوم على الأنانية. ومن المحتمل أن ينسى الإنسان في نضاله المرير من أجـــل المحافظة على الذات، كرامته الإنسانية، ويصبح أقرب في كيانه إلى الحيوان مـــنه إلى الإنسان. وهنا يجد الإنسان أمامه فرصة إما أن يقتنصها أو يتركها تفلت مـــن بـــين يديه. ويجوز في الموقف الصعب أن يتوصل إلى تحقيق القيم المعنوية ويجـــوز أن يضيعها. وبذلك يقرر الشخص ما إذا كان جديراً بآلامه أو غير جدير بها.

ولا تتـــصور أن هـــذه الاعتبارات أمور خيالية لا وجود لها على الأرض، أو أنها بعيدة عن الحياة الواقعية. فالحقيقة بأن هناك قلة من الناس قادرة على التوصل إلى تلك المعايير المعنوية العالية. فكان من بين المسجونين قلة استطاعت أن تحتفظ بحـــريتها الداخلية الكاملة وأن تتوصل إلى تلك القيم التي أتاحتها آلامها؛ وفي ذلك الدلـــيل الكافـــي على أن القوة الداخلية للإنسان قد تعلو به فوق قدره في هذا العالم الخارجي. ولا يوجد أمثال هؤلاء الأشخاص في معسكرات الاعتقال فحسب. فحيث يـــواجه الإنـــسان أمراً مقدراً لابد من وقوعه، تكون هناك فرصة لتحقيق شيء من خلال المعاناة.

ولـــنأخذ القَـــدَر الذي ينتظر الشخص المريض – وخاصة أولئك الذين يتعذر شـــفاؤهم. لقد قرأت ذات مرة خطاباً كتبه شاب قعيد صغير السن، يُخْبر فيه صديقاً له بأنه قد اكتشف لتوه أنه لن يعيش طويلاً، حيث لن يجدي في علاجه حتى إجراء أي عملـــية جـــراحية. وكتب أنه يتذكر فيلماً رآه، يجري فيه تصوير إنسان ينتظر المـــوت بطـــريقة تنم عن شجاعة وعزة. ويعتبر هذا الشاب الصغير أن ذلك يمثل إنجازاً عظيماً لمواجهة الموت بصدر رحب. ومما كتبه هذا الشاب كان المُقَدر يقدم له فرصة مماثلة.

ولعل من رأي من الفيلم المعروف بـــ "الانبعاث[1]" – وهو الفيلم المأخوذ عن رواية وضعها تولستوي منذ عدة سنوات، تراوده أفكار مماثلة، حيث كانت تـــوجد فيه مقدرات هائلة ورجال عظام. ولم يكن لنا نحن، في ذلك الوقت الذي رأيـــنا فيه هذا الفيلم، أي مقدر هائل؛ ولم تكن لدينا أية فرصة لتحقيق مثل تلك العظمة. فبعد أن رأينا ما رأيناه في الصور في الفيلم توجهنا إلى مقهى قريب،

---

(1) Résurrection

ومــع تناولــنا لقدح من القهوة ولشيء من الطعام نسينا الأفكار غير الطبيعية الغــريبة التــي مرت بخاطرنا لدقيقة واحدة. إلا أنه حينما واجهنا نحن بأنفسنا مقدراً هائلاً، وحينما قابلناه بقرار يصدر عنا بعظمة روحية، عندئذ كنا قد نسينا تلــك الحلــول التي توصلنا إليها منذ زمن بعيد أيام شبابنا، حيث شعرنا إزاءها بالإخفاق.

ربمــا كان قد جاء يوم بالنسبة لبعضنا، رأوا فيه نفس الفيلم مرة ثانية، أم رأوا فــيلماً ممــاثلاً. ولكــن ربما كانت هناك عندئذ صور أخرى مما يتكشف في نفس الــوقت أمام أعينهم الداخلية؛ فمن هذه صور أناس تحقق في حياتهم أكثر كثيراً مما يعرضــه فيلم عاطفي. فقد ترد إلى عقل الفرد بعض تفصيلات "العظمة الداخلية"[1] لــشخص معين – من هذه مثلاً قصة الشابة التي شاهدت بنفسي موتها في معسكر اعــتقال. وهــي في ذاتها قصة بسيطة. وهناك القليل مما يمكن أن نحكيه عن هذه القصة، ولكنها في نظري تستحق الذكر كما لو كنت أنا الذي ابتدعتها. فهذه القصة تبدو بالنسبة لي أشبه بقصيدة شعرية رائعة.

كانت هذه الشابة تعرف أنها سوف تموت في الأيام القليلة التالية ولكنها كانت مبــتهجة حــين تحدثت معها رغم معرفتها أنها ستموت عما قريب. قالت لي: "إني مغتبطة أن القَدَر قد لطمني بقسوة، ذلك أني في حياتي السابقة كنت مدللة، ولم آخذ واجباتــي الروحية مأخذ الجد". وتقول، وهي تشير من خلال نافذة الجناح: "إن هذه الــشجرة الموجــودة هنا هي الصديق الوحيد الذي كان لي في وحدتي". فمن خلال تلك النافذة كانت الشابة تستطيع أن ترى فقط غصناً واحداً من شجرة كستناء، وكان علــى الغــصن بــرعمان. قالت لي: "غالباً ما كنت أتحدث إلى هذه الشجرة". ولقد راعنــي كلامهــا ولــم أكن أعرف كيف أتناول كلماتها.. فهل كانت تهذي؟ وهل تــراودها هلوسات من آن لآخر؟ وسألت الشابة بقلق عما إذا كانت الشجرة تجيب عــن أسئلتها. فأجابت: "نعم". فسألتها: "ماذا كانت تقول؟" أجابت: "لقد قالت لي، أنا هنا – أنا هنا – أنا الحياة، أنا الحياة الأبدية".

الخبرة بالزمان والمكان :

لقــد ذكــرت أن مــا كــان مسئولاً بشكل نهائي عن حالة الذات الداخلية عند المــريض لــم يكن ما ذكرناه وعددناه من أسباب بدنية ونفسية بقدر ما كان نتاجاً لقــرار متحــرر. فالملاحظات النفسية للمسجونين تبين أن الأشخاص الذين سمحوا

(1) Inner greatness

لتماسكهم الداخلي بذواتهم المعنوية وكياناتهم الخُلُقية (سمحوا له) بأن يسترخي ويتراخى، هم أولئك الذين سقطوا في نهاية الأمر ضحية للعوامل والمؤثرات الباعثة على الانحلال والتفسخ في حياة المعسكر. والسؤال الذي يبرز الآن: "ما الذي يُكون هذا "التماسك الداخلي"[١]؟

يتفق المسجونون السابقون، حينما يكتبون أو يروون خبراتهم، على أن أكثر المؤثرات الباعثة على الاكتئاب هي أن المسجون لم يكن يعرف طول الفترة التي سيقضيها بالسجن، إذ لم يكن يتزود بأي تاريخ لإبرائه. (وفي معسكرنا كان من الحماقة أن نتكلم في هذا الموضوع الذي لا وجود له).

وفي الواقع أن فترة بقاء السجين في معسكرنا لم تكن غير مؤكدة فحسب ولكنها أيضاً غير محددة. وفي ذلك يشير أحد علماء النفس في دراسة مشهورة إلى أننا يمكن أن نسمي الحياة في معسكر اعتقال كهذا على أنها "وجود مؤقت". ويمكن أن نضيف إلى ذلك على أنها "وجود مؤقت لنهاية غير معروفة".

لا يعرف الوافدون الجدد أي شيء في العادة عن الظروف السائدة بالمعسكر. أمام أولئك الذين جاءوا عائدين من معسكرات أخرى، فإنهم كانوا يضطرون إلى التزام الصمت، في حين أن بعض المعسكرات لم يعد منها أحد على الإطلاق. عند دخول الأشخاص في المعسكر كان يحدث تغير في عقولهم. فمع نهاية اللايقين يأتي لا يقين النهاية. لقد صار من المستحيل التنبؤ بما إذا كان هذا الشكل من أشكال الوجود سوف ينتهي، ومتى سينتهي.

تحمل الكلمة اللاتينية "Finis" معنيين: أحدهما النهاية أو الخاتمة، وثانيهما الغاية التي يصل المرء إليها. والشخص الذي لا يستطيع أن يرى نهاية "وجوده المؤقت" يكون غير قادر على أن يرنو إلى هدف غائي في الحياة. إنه توقف عن الاستمرار في الحياة من أجل المستقبل، وذلك على عكس الإنسان في حياته العادية. ومن ثم تتغير البنية الكلية لحياته الداخلية. تتضح علامات حالة التحلل هذه في مجالات أخرى من الحياة. ومن أمثلة ذلك، حالة العامل العاطل فهي تشبه ذلك الموقف. فوجوده يصبح مؤقتاً، ولا يستطيع بشكل ما أن يعيش من أجل المستقبل، أو أن يرنو إلى هدف. وقد أوضحت بعض البحوث التي أجريت على عمال عاطلين كانوا يشتغلون بالتعدين، أنهم كانوا يعانون من نوع معين من اختلال الإحساس بالزمن – أو ما يسمى بـ "الزمن الداخلي"[٢] – وذلك نتيجة لحالة البطالة

(1) Inner hold
(2) Inner time

عندهم. كذلك المسجونون، فقد كانوا يعانون من "خبرة الزمن"[١] الغريبة هذه. ففي المعسكر، على سبيل المثال، تبدو الوحدة الزمنية الصغيرة (اليوم)، والمليئة بالرعب والإرهاب والتعب على أنها بلا نهاية. وربما تبدو وحدة زمنية أكبر، ولتكن أسبوعاً، على أنها فترة قصيرة وتمر بسرعة بالغة. وقد كان زملائي يوافقونني حينما أقول أن اليوم في المعسكر يستغرق وقتاً أطول من الأسبوع. وقد كان التناقض في خبرة الزمن تناقضاً كبيراً مما يؤدي إلى الارتباك! وفي هذا الصدد أتذكر كتاب "الجيل السحري" لـ "توماس مان"، وهو الذي يتضمن بعض ما أشرنا إليه من معالم سيكولوجية. يدرس "مان" النمو الروحي لأشخاص في وضع نفسي مماثل – وهم أشخاص مصابون بمرض السل يقيمون في إحدى المصحات دون أن يعرفوا أي تاريخ لإبرائهم. فهم يَخْبُرون وجوداً مماثلاً – مجرداً من الرؤية المستقبلية وخُلْواً من أي هدف.

لقد ذكر لي أحد المسجونين فيما بعد، وكان قد مشى عند وصوله مع طابور طويل من النزلاء الجدد من المحطة إلى المعسكر، أنه قد شعر حينذاك كما لو كان يسير في جنازته. لقد بدت حياته بدون مستقبل على الإطلاق. واعتبرها أنها قد انتهت وولت، واعتبر نفسه أنه قد مات بالفعل. وكان هذا "الشعور بالعدم" يزداد بشدة نتيجة لأسباب أخرى: فمن حيث الزمان، كانت فترة السجن التي يشعر بها النزلاء تتصف بشكل حاد باللانهائية واللامحدودية؛ ومن حث المكان، كانت الحدود الضيقة للسجين. فلقد أصبح أي شيء خارج الأسلاك الشائكة منعزلاً ومتنائياً وبعيد المنال، وغير حقيقي بشكل ما. لقد بدا كل ما كان خارج المعسكر من أحداث وأناس ومن ألوان الحياة العادية بها – كل هذا كما لو كان من عالم الأشباح. لقد كان السجين يرى هذه الحياة الخارجية من منظور إنسان ميت – أي أنه كان يرقب تلك الحياة من عالم آخر.

الأفكار الراجعة إلى الزمن الماضي:

إن الإنسان الذي كان يدع نفسه تتهاوى لأنه لم يستطع أن يرى لنفسه أي هدف مستقبلي، كان يجد نفسه مغموراً بأفكار لأمور قديمة. لقد تكلمنا في موضع مختلف آخر عن الميل الذي يجعل السجين يرنو إلى الماضي، لكي يساعد على جعل الحاضر، بكل ما يتضمنه من رعب، أقل واقعية. لكن هناك خطورة في تجريد الحاضر من واقعيته وسلب هذه الواقعية. لقد صار من السهل أن نرقب

(1) Time – experience.

الفـرص لكـي نجعـل من حياة المعسكر شيئاً إيجابياً، وهي فرص توجد بالفعل. فاعتـبار "وجودنا الوقتي" على أنه وجود غير واقعي كان في حد ذاته عاملاً مهماً فـي جعل المسجونين يفقدون تمسكهم بالحياة؛ وبصورة ما أصبح كل شيء تافهاً لا قـيمة له. لقد نسى أولئك الأشخاص أن ذلك الموقف الخارجي البالغ الصعوبة هو فـي الغالب ما يمنح الإنسان الفرصة لكي ينمو معنوياً فيما وراء ذاته. فبدلاً من أن يأخـذوا صـعوبات المعـسكر كاختـبار لقـوتهم الداخلية، فإنهم استخفوا بحياتهم واعتبـروها شـيئاً لا جـدوى منه وبذلك لم يأخذوها مأخذ الجد. لذا فقد فضلوا أن يغمـضوا أعينهم، وأن يعيشوا في الماضي. ومن ثم صارت الحياة بالنسبة لهؤلاء الناس فارغة مجردة من معانيها.

الانتصار الداخلي :

ومـن الطبيعـي أن قلـة من الناس فحسب هم الذين يكون في مقدورهم أن يصلوا إلى مستويات معنوية عالية عظيمة. وقليلون هم الذين تتاح الفرصة أمامهم للوصل إلى العظمة الإنسانية حتى من خلال إخفاقهم الدنيوي الواضح ومن خلال مـوتهم؛ وهـو إنجـاز لا يستطيعون التوصل إليه أبداً في الظروف العادية. أما بالنسبة للآخرين منا – وهم المعتدلون وذوو الحماس الفاتر – فإنهم تنطبق عليهم كلمـات بسمارك: "الحياة أشبه بالتواجد عند طبيب الأسنان. فأنت تعتقد دائماً أن الأسـوأ هـو الـذي لا يزال في طريقه إليك، رغم أنه يكون قد انتهى بالفعل". وخلافاً لهذا، نستطيع القول أن معظم الناس في معسكر الاعتقال تعتقد أن الفرص الحقيقـية للحـياة قـد ضاعت. ولكنه في الحقيقة، كانت هناك الفرصة والتحدي. فالمـرء يـستطيع أن يعمل من هذه الخبرات نصراً، ويحول الحياة إلى انتصار داخلي، أو يستطيع أن يتجاهل التحدي ويركن ببساطة إلى البلادة والاجترار كما فعل غالبية المسجونين.

التطلع إلى المستقبل :

إن أي محاولـة لمحاربة التأثير النفسي الَمَرضي لحياة المعسكر على السجين بواسـطة طرق العلاج النفسي أو الصحة النفسية كانت تهدف إلى منحه قوة داخلية عـن طـريق تبصيره بهدف مستقبلي يستطيع به أن يتطلع إلى الأمام. ولقد حاول بعـض المـسجونين بغريزتهم أن يتوصل الواحد منهم بنفسه إلى هدف خاص به.

فالخاصية المميزة للإنسان أنه يستطيع أن يحيا بواسطة "تطلعه إلى المستقبل[١]". وفي هذا يكمن خلاصه من وجوده في أحلك الظروف، رغم أنه يجد نفسه في بعض الأوقات مضطراً إلى التفكير في مشكلاته.

وهناك خبرة شخصية أتذكرها حين كانت الدموع تنهمر من عيني من وطأة الألم (فقد كانت بقدمي قروح مفزعة نتيجة ارتدائي لحذاء ممزق)، وأخذت أعرج سيراً على الأقدام لبضعة كيلومترات مع طابور طويل من الرجال من المعسكر إلى موقع عملنا. وكانت الرياح القاسية الباردة تصفعني. أخذت آنذاك أفكر في المشكلات الصغيرة التي لا تنتهي لحياتنا التعيسة. ما الذي سنأكله هذه الليلة؟ هل إذا منحونا قطعة من السجق كحصة إضافية، أستطيع استبدالها بقطعة من الخبز؟ هل أستطيع الاتجار بآخر سيجارة تبقت معي كي استبدلها بشي من الحساء؟ هل استطيع الحصول على قطعة من السلك استخدمها كرباط للحذاء؟ هل أصل إلى موقع عملي في الوقت الملائم كي ألحق بالمجموعة التي أعمل معها عادة، أم سأوضع مع مجموعة أخرى تعمل تحت إمرة رئيس فظ؟ كيف أتقرب إلى حرس الكابو، الذين يستطيعون مساعدتي في الحصول على عمل بالمعسكر بدلاً من القيام بهذا العمل اليومي الشاق الذي يستلزم منا سيراً على الأقدام لفترة طويلة؟

لقد سئمت تلك الحالة التي اضطرتني، في كل يوم وفي كل ساعة، إلى التفكير فقط في تلك الأشياء التافهة. وشعرت بالاشمئزاز والقنوط مما كنت فيه، ولذا فقد أجبرت أفكاري على التحول إلى موضوع آخر. فجأة رأيت نفسي واقفاً في إحدى القاعات على منصة لإلقاء محاضرة عظيمة.. وأمامي كان يجلس مستمعون على مقاعد مريحة، ويصغون إليّ بانتباه. وكان موضوع هذه المحاضرة عن سيكيولوجية معسكر الاعتقال! ولقد صار كل ما كان يكدرني ويقمعني في تلك اللحظة موضوعياً ومرئياً وموصوفاً من وجهة النظر العلمية البعيدة. بهذه الطريقة نجحت إلى حد ما في أن أعلو فوق الموقف، وأن أسمو فوق المعاناة والآلام التي كانت تعتمل في نفسي في تلك اللحظة، فرأيتها كما لو كانت في الماضي بالفعل. لقد أصبحت أنا ومتاعبي موضوعاً لدراسة نفسية علمية شيقة أضطلع بها بنفسي. وما الذي يقوله "سبينوزا" في كتابه "الأخلاق": "إن الانفعال، وهو في جوهره معاناة، يتوقف عن أن يكون انفعالاً ومعاناة حالما نُكَوِّن صورة واضحة ودقيقة عنه"[٢].

---

(1) sub specie aetenitatis

(2) "Affectus, qui passio est, desinit esse passio simulatque eius claram et distinctam formamus ideam"

وماذا يحدث عند فقدان الثقة في المستقبل ؟

أن السجين الذي فقد ثقته في مستقبله وفي المستقبل عامة، يكون قد حكم على نفسه بالفناء. وهو، مع فقدانه للثقة في المستقبل، يفقد تماسكه المعنوي؛ ويكون بذلك قــد ترك نفسه للتدهور، وأصبح عرضة للانهيار العقلي والجسمي. وعادة ما كان يحــدث ذلــك فجــأة، فــي شكل أزمة، أعراضها مألوفة لنزلاء المعسكر أصحاب الخبرة. كنا جميعاً نخشى مجئ تلك اللحظة – ليس من أجل ذواتنا، إذ لا يكون لهذا أي مغــزى أو معنــى، ولكــن من أجل أصدقائنا. كانت تبدأ هذه الأزمة عادة مع الــسجين برفــضه في صباح أحد الأيام أن يرتدي ملابسه أو يغتسل أو يخرج إلى أرض اســتعراض طوابيــر المــسجونين. ولم يكن للتوسلات، ولا للصفات، ولا للــتهديدات أي تأثيــر. هناك يستلقي على الأرض، دون أي حراك. وإذا كانت هذه الأزمــة ترجع إلى مرض ما، فإنه يرفض أن يؤخذ إلى قسم المرضى ويعزف عن أن تقــدم له أي معونة لمساعدته. فهو بكل بساطة يعلن رفضه ويأسه. ويبقى راقداً حــيث هو وسط ما يفرزه جسمه من عرق وبول وغير ذلك، ويظل هكذا فلا يوجد ما يقلقه أو يحيره.

وقــد حــدث في أحد المرات أن عشت مشهداً دراميا للحلقة التي تربط ربطاً متيناً بين فقدان الثقة في المستقبل وهذا الرفض الخطير للحياة. فقد أفضى إليَّ ذات يــوم رئيس الجناح "ف"، وهو مؤلف وملحن ذائع الصيت، قال: "يا دكتور، أود أن أخبــرك بشيء. لقد عشت حلماً غريباً. فثمة صوت أخبرني بأني استطيع أن أتمنى شــيئاً، وبأنــه على ألا أقول إلا ما أود أن أعرفه، وبأن كل أسئلتي سوف تُجاب. فمــاذا تعــتقد أنــي طلبت؟ طلبت أن أعرف متى ستنتهي الحرب بالنسبة لي. أنت تعــرف يــا دكــتور ماذا يعني ذلك – بالنسبة لي! لقد أردت أن أعرف متى سيتم الإفراج عنا وعن مُعسكرنا، ومتى توضع نهاية لآلامنا ومعاناتنا".

سألت: "ومتى راودك هذا الحلم؟".

أجاب: "في فبراير عام ١٩٤٥". وقد كنا وقتئذ في بداية شهر مارس.

"وبماذا أجاب الصوت في الحلم؟".

فهمس في أذني كما لو كان يفضي إليَّ بسر خطير: "الثلاثين من مارس".

حيــنما روي لــي "ف" حلمــه هذا، كان لا يزال مفعماً بالأمل ومقتنعاً بأن صــوت حلمه حقيقي. ولكن كلما اقترب اليوم الموعود، حملت إلينا أخبار الحرب مما وصل إلى المعسكر بما لا نريد؛ فبدا واضحاً أنه من غير المحتمل إطلاقاً أن

يـــتم الإفراج عنا في ذلك التاريخ المرتقب. وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس، صار "ف" مريضاً على حين غفلة، وارتفعت حرارة جسمه. وفي الثلاثين من مارس، وهو اليوم الذي أخبرته النبوءة بأن فيه سوف تنتهي الحرب وتتوقف الآلام بالنـــسبة له، أصابته الحمى وألمَّ به الهذيان، وفقد الوعي. ثم مات في اليوم الحـــادي والثلاثين من مارس. وكانت الدلائل الظاهرة كلها تدل على أنه قد لقى حتفه من التيفوس.

العقل والبدن :

إن مـــن يعـــرف مدى الارتباط الوثيق بين حالة العقل عند الإنسان من توافر الأمـــل والـــشجاعة أو الافتقار إليهما – ويربط بين هذا وبين حالة الجسم ومناعته، فإنـــه يفهـــم أن الفقدان المفاجئ للأمل والشجاعة قد يكون له تأثير مميت. فالسبب الرئيسي لموت صديقي هذا هو أن ما كان ما يتوقعه من إفراج أصبح بعيد المنال، وأن أمله قد خاب بشدة. وأن هذا قد أدى فجأة إلى تقليل مقاومة جسمه ضد العدوى الكامـــنة بمـــرض التيفوس. لقد صارت ثقته في المستقبل منعدمة وأصبحت إرادته علـــى الحـــياة مشلولة، فوقع جسده ضحية للمرض – وبذلك كان صوت حلمه هو الصحيح برغم كل شيء.

تـــتفق هذه الملاحظات المتعلقة بهذه الحالة الواحدة والنتائج المستمدة منها مع بعـــض الملاحظات التي جذبت انتباهي عن طريق رئيس أطباء معسكر الاعتقال. ففـــي الفترة ما بين أعياد الميلاد عام ١٩٤٤ وحلول عام ١٩٤٥ الجديد زاد معدل المـــوت في المعسكر في الأسبوع عن أي معدلات سابقة. وتفسير هذه الزيادة، من وجهة نظر رئيس الأطباء، لا يكمن في ظروف العمل الشاق أو في نقص الغذاء أو فـــي تغيـــر الجـــو أو فـــي انتشار أوبئة جديدة، وإنما يكمن ببساطة في أن أغلب المسجونين قد عاشوا في الأمل الساذج بأنهم سوف يعودون إلى بيوتهم مرة أخرى عـــند حلـــول أعـــياد الميلاد. وكلما أخذ الوقت يقترب دون أن تكون هناك أخبار مشجعة، كان هذا مدعاة إلى أن يفقد المسجونون شجاعتهم، وإلى أن تتملكهم بالتالي خيـــبة الأمل والإحباط. وكان لهذا تأثير خطير على ما كان لديهم من قوة للمقاومة، مما أدى إلى موت عدد هائل منهم.

*

ويل لمن لا يرى في الحياة معنى!

ويـؤيد هذا ما ذكرته من قبل، فإن أي محاولة يستخدمها الشخص لكي يسترد قـوته الداخلـية في المعسكر ينبغي أن تنجح أولاً في أن تجعله يبصر لنفسه هدفاً مـستقبلياً. وفي ذلك نأخذ توجيهاتنا من كلمات "نيتشه" حين يقول: "من يمتلك سبباً يعـيش مـن أجله، فإنه يستطيع غالباً أن يتحمل بأية طريقة وبأي حال" – نأخذها بمـثابة شعار يوجه الجهود المبذولة في سبيل العلاج النفسي ويحقق الصحة النفسية للمـسجونين وللإنـسان عامة. فحينما تتوافر فرصة لذلك، ينبغي أن نقدم لهم سبباً يعيـشون من أجله أو هدفاً لحياتهم، لكي نعمل على تقويتهم على تحمل الـ "كيف" الـرهيبة لوجـودهم. فالـويل لمن لا يرى في حياته معنى، ولا يستشعر هدفاً أو غرضـاً لهـا؛ ومـن ثـم لا يجد قيمة في مواصلة هذه الحياة. وسرعان ما يحس بالـضياع. وتصبح الإجابة التقليدية التي بها يرفض ذلك الإنسان كل سند يشجعه، هـي العبارة التالية: "ليس عندي شيء أتوقعه من الحياة أكثر من ذلك". ما هو إذن نوع الإجابة التي نستطيع أن نعطيها لذلك الإنسان؟

المسئولية ومعنى الحياة :

فمـا كان يعوزنا حقيقة هو تغير أساسي في اتجاهنا نحو الحياة. إذا كان علينا أن نعلم أنفسنا، كما كان علينا أن نعلم الأشخاص الذين استبد بهم اليأس، بأن ما هو مـتوقع من الحياة ليس في واقع الأمر هو موضع الأهمية، بل أن ما يعنينا هو ما الـذي تـتوقعه الحياة منا. كان علينا أن نتوقف عن السؤال عن معنى الحياة، وأن نفكر بدلاً من ذلك في أنفسنا كما لو أنها في موضع تساؤل من قبل الحياة – في كل يـوم وفـي كل ساعة. وإن إجابتنا ينبغي أن تقوم، لا على الكلام أو التأمل، ولكن علـى العمـل الحق والمسلك الحق. فالحياة تعني في النهاية الاضطلاع بالمسئولية لكـي يجد الإنسان الإجابة الصحيحة لمشكلاته ويحقق المهام التي تفرضها على كل شخص بصفة مستمرة.

أما هذه المهام، أو بعبارة أخرى معنى الحياة، فإنها تختلف من شخص لآخر، ومـن لحظة لأخرى. لذا، كان من المستحيل تحديد معنى الحياة بطريقة عامة. فلا يمكـن أبداً أن نجيب عن الأسئلة المتعلقة بمعنى الحياة بواسطة تقديم عبارات عامة جارفـة. "فالحـياة" لا تعني شيئاً غامضاً، ولكنها تعني شيئاً حقيقياً ومحدداً للغاية، مـثلما تكـون مهـام الحياة أيضاً حقيقية ومحددة للغاية. فهذه المهام تشكل مصير الـشخص؛ فكـل شـخص كائن إنساني مختلف ومتفرد ومتميز. ولا يمكن مقارنة

إنـــسان بإنسان آخر ولا مصير إنسان بمصير إنسان آخر. وليس هناك من موقف يعــيد نفسه بالضبط كما كان، بل إن كل موقف يستدعي استجابة مختلفة. فنجد في بعض الأحيان أن الموقف الذي يجد الإنسان نفسه فيه قد يستلزم منه أن يسعى إلى تــشكيل قــدره أو مصيره بأفعاله وأعماله. وفي أوقات أخرى، قد يكون أكثر نفعاً بالنــسبة لـــه أن يفيد من فرصة التأمل وأن يحقق وجوده وقوته بهذه الطريقة. وقد تــستلزم الحــياة ببساطة من الإنسان في بعض الأحيان أن يتقبل قَدَره ويصدع له ويــتحمل متاعبه وأعباءه. إن كل موقف يتميز بتفرده؛ ومع ذلك توجد دائماً إجابة صحيحة واحدة فقط للمشكلة التي يفرضها الموقف الراهن.

فحينما يجد الإنسان أن مصيره هو المعاناة، فإن عليه أن يتقبل آلامه ومعاناته كمـــا لو أنها مهمة مفروضة عليه – وهي مهمة فريدة ومتميزة. وعليه أن يعترف بالحقــيقة بأنـــه حتى في المعاناة فهو فريد ووحيد في الكون. ولا يستطيع أحد أن يخلــصه مـــن معاناته أو يعاني بدلاً منه. ففرصته الفريدة تكمن في الطريقة التي يتحمل بها أعباءه ومتاعبه.

وبالنسبة لنا نحن المسجونين، لا تشكل هذه الأفكار تأملات منعزلة عن الواقع. إذ كانت هي الأفكار الوحيدة التي أمكن أن تكون ذات عون لنا؛ فلقد حافظت علينا من اليأس، حتى حينما تراءى لنا وسط هذه الظروف أنه لا توجد فرصة كي يخرج الإنـــسان حياً. لقد تركنا مرحلة السؤال عن معنى الحياة منذ فترة طويلة، ذلك لأنه بحث ساذج يفهم الحياة على أنها تحقيق لهدف ما من خلال الخَلْق الفعال لشيء ذي قــيمة. أمـــا معنى الحياة، بالنسبة لنا، فيتضمن الدوائر الأوسع من الحياة والموت، وينطوي على المعاناة وعلى فقدان الحياة.

وحالمـــا يتكــشف لـــنا معنى المعاناة، فإننا نرفض أن نقلل من ألوان العذاب بالمعــسكر أو أن نتجـــرد مـــنها عن طريق تجاهلها أو اللجوء إلى الأوهام الكاذبة والتمسك بتفاؤل مصطنع كاذب. لقد أصبحت المعاناة مهمة من المهام التي لا نريد أن ندير لها ظهورنا والتي بوسعنا أن نحقق إنجازاً من خلال فرصها الكامنة. وهي تلـــك الفـــرص التي جعلت الشاعر "ريلكي" يقول: "أن هناك الكثير من الآلام ومن ألوان المعاناة مما يتحتم علينا اجتيازه واختراقه"! يتكلم "ريلكي" عن اجتياز المعاناة واجتياز الآلام، كما يتكلم آخرون عن "اجتياز مهام العمل". فهناك الكثير من الآلام والمعانـــاة مما يتحتم علينا أن نجتازه. لذا، فمن الضروري أن نواجه كل المعاناة، محاولـــين الاحـــتفاظ بلحظات الضعف وبفترات الدموع المنهمرة إلى الحد الأدنى. ولكـــن لم تكن هناك من حاجة إلى الشعور بالخجل من الدموع، لأن الدموع تحمل

دليلاً على أن الإنسان يحظى بأعظم شجاعة، وهي شجاعة المعاناة. إلا أن قلة قليلة فحسب هي التي تحققت من ذلك. فمن آن لآخر كان يعترف بعضهم بخجل من بكائهم، مثل زميلي الذي أجاب عن سؤالي عن كيفية تغلبه على مرضه باعترافه بأنه قد استفرغ بالبكاء معاناته من جوانيته وجنباته.

كانت البدايات الغضة للعلاج النفسي أو الصحة النفسية، حينما كان ذلك ممكناً في المعسكر، إما فردية أو جماعية من حيث طبيعتها. وغالباً ما كانت المحاولات الفردية للعلاج النفسي نوعاً من "إجراء إنقاذ الحياة". فعادة ما كانت تهتم هذه الجهود باتقاء الانتحار. وتمنع قوانين المعسكر الصارمة أي جهود تبذل لإنقاذ إنسان حاول الانتحار. فقد كان من المحظور، على سبيل المثال، إنزال رجل من على جبل علق نفسه عليه محاولاً الانتحار. ولذا، كان من الأهمية البالغة أن تمنع هذه المحاولات من الوقوع.

أتذكر حالتين شرعتا في الانتحار، تحملان إحداهما مع الأخرى تشابهاً شديداً. وقد أفصح كلا الرجلين عن عزمهما على الانتحار. وكان كلاهما يبدي نفس التبرير – بأنه لم يعد هناك شيء أكثر يمكن توقعه من الحياة. وقد حاولنا مساعدتهما بأن نبصرهما بأن الحياة لا زالت تتوقع منهم بعض الأشياء؛ فهناك أشياء متوقعة منهم في المستقبل. وقد وجدنا، في الحقيقة، أن هذا الشيء المتوقع بالنسبة لأحدهما هو إبنه الذي يهيم به والذي ينتظره ببلد أجنبية. أما بالنسبة للآخر، فقد كان ذلك شيئاً ولم يكن شخصاً. فقد كان هذا الرجل عالماً، ألف سلسلة من الكتب التي لا زالت بحاجة إلى الإتمام. ولا يستطيع أن يقوم بعمله هذا أي شخص آخر، كما أن شخصاً آخر لا يستطيع أن يأخذ مكان الأب في عطفه على إبنه.

هذا التفرد، الذي يميز كل فرد عن غيره والذي يعطي الفرد معنى لوجوده، ينطوي على عمل إبداعي، بقدر ما ينطوي على الحب الإنساني. وحينما يتحقق الشخص من استحالة أن يحل أحد في مكانه، فإن هذا يسمح بظهور المسئولية بكل ضخامتها وأبعادها مما يحمله الشخص لأجل وجوده واستمراره وبكل ما يحمله من عظمة. إن الإنسان الذي يصبح واعياً بالمسئولية التي يحملها إزاء إنسان آخر ينتظره بشوق وحنان، أو إزاء عمل لم يكتمل، سوف لا يكون قادراً أبداً على التفريط في حياته. فهو يعرف "سبب" وجوده ويشعر بالغاية من وجوده، ومن ثم يكون قادراً على تحمله بأي شكل من الأشكال.

القدوة والكلمة وأثرهما العلاجي:

مـن الطبيعي أن تكون فرص العلاج النفسي الجماعي في المعسكر محدودة. وكـان المثل الحق أو القدوة الحقة أكثر فعالية من الكلمات التي يمكن أن تُستخدم. لقد كان لرئيس الجناح الذي لم يتحيز إلى سلطات المعسكر، وبسب سلوكه المشجع لـنا، آلاف الفرص التي بها باشر تأثيراً معنوياً بعيد المدى على أولئك المسجونين الـذين كانوا تحت أمرته. وواضح أن التأثير المباشر للسلوك أكثر فعالية عادة من تأثيـر الكلمـات. لكـن كانـت الكلمة في بعض الأحيان فعالة أيضاً، حينما تقوى اسـتقبالية العقـل بواسطة بعض الظروف الخارجية. وفي ذلك أتذكر حادثة حينما كانـت هـناك فرصـة لعمل علاجي نفسي لنزلاء جناح بأكمله، تعزي إلى تعاظم تفتحهم واستقبالية عقولهم بسبب موقف خارجي معين.

لقـد كان يوماً سيئاً. ففي عرض الطابور، جرى الإعلان عن الأفعال الكثيرة التـي ستعتبر، من الآن فصاعداً، كأعمال تخريبية تستحق العقاب بالموت الفوري شـنقاً. ومن بين هذه جرائم مثل قطع شرائح صغيرة من البطاطين البالية التي كنا نتدثـر بها (وذلك لكي نلفها على رسغ القدم)، أو السرقات التافهة للغاية. إذ حدث مـنذ عدة أيام أن تسلل أحد المسجونين الجوعى إلى مخزن البطاطس وسرق بعض الأرطـال القلـيلة مـنها. وقد اكتُشفت هذه الفعلة، وتعرف بعض المسجونين على "اللـص". وحيـنما علمت سلطات المعسكر بذلك، أمرت بأن يسلم الشخص المذنب إلـيها أو أن المعسكر كله سوف يحرم من الطعام لمدة يوم كامل. ومن الطبيعي أن يفضل الـ ٢٥٠٠ رجلاً الصمود والصيام.

وفـي مـساء ذلك اليوم الذي صمنا فيه رقدنا على أرض الجناح – وفي حالة مـزاجية سـيئة. وقـد ندر كلامنا، وكانت كل كلمة تنم عن غيظ وتهيج. ثم، لكي تصير الأمور أسوأ مما هي عليه، انقطعت عنا الكهرباء. ووصلت حدة مزاجنا إلى أسـوأ حالـة. لكن رئيس جناحنا كان رجلاً حكيماً، فأفصح بكلام قليل عن كل ما يجـري فـي عقولنا في تلك اللحظة. تحدث عن الزملاء الكثيرين الذين ماتوا في الأيـام القليلة الماضية، إما بالمرض أو بالانتحار. لكنه أشار أيضاً إلى ما قد يكون الـسبب الحقيقي لموتهم: ألا وهو فقدان الأمل. وأكد على أنه ينبغي أن تكون هناك طـريقة مـا لمنع الضحايا ممن يحتمل وقوعهم في المستقبل من الوصول إلى هذه الحالة المتطرفة. وأشار إليَّ بأن أقدم هذه النصيحة في مساعدتي للزملاء.

ويعلم الله، أني لم أكن في حالة تسمح لي بأن أقدم تفسيرات سيكولوجية أو بأن أعطـي أية موعظة لكي أقدم لزملائي أي نوع من الرعاية الطبية لأرواحهم. فلقد

كـــنت أشعر بالبرد والجوع، وبالتهيج والتعب، ولكن كان علي أن أبذل الجهد وأن اســـتخدم هذه الفرصة الفريدة. فالآن يبدو التشجيع أكثر ضرورية منه في أي وقت آخر.

الأمل كمدخل علاجي:

ومن ثم بدأت أولاً بذكر أكثر الأشياء بساطة مما يبعث على الارتياح. قلت أنه حتى في أوروبا في الشتاء السادس للحرب العالمية الثانية، لم يكن موقفنا أسوأ مما كـــان يمكـــن أن يفكر المرء فيه. وذكرت أن على كل فرد منا أن يسأل نفسه عن حقـــيقة الخسائر التي لا يمكن استبدالها أو إحلال غيرها محلها مما عانى منه حتى الآن. وبعد تأمل وتفكر قلت لهم أن هذه الخسائر بالنسبة لمعظمهم كانت في الحقيقة قلـــيلة. فأولـــئك الـــذين مازالـــوا على قيد الحياة لدى كل واحد منهم سبب للأمل. فالـــصحة، والأسرة، والسعادة، والقدرات المهنية، والإثراء، والمكانة الاجتماعية – كـــل هذه أشياء يمكن أن يحققها الفرد مرة ثانية أو يحييها ويجددها. ومع كل ذلك، فـــإن جـــسدنا لا يزال سليماً، بل إن كل ما تعرضنا له لا يزال مصدر قوة لنا في المستقبل. وفي ذلك استشهد بقول نيتشه: "إن مالا يقتلني يجعلني أقوى"(١).

بعـــد ذلـــك تكلمت عن المستقبل. وقلت أن المستقبل بالنسبة للشخص السلبي المحايـــد لابد أن يبدو بلا أمل. ووافقت على أن كل فرد منا ينبغي عليه أن يخمن لنفسه كم كانت فرصه في البقاء على قيد الحياة قليلة. وأخبرتهم أنه على الرغم من عـــدم وجود وباء التيفوس في المعسكر، إلا أني قد أقدر فرصتي الخاصة في البقاء بحوالي فرصة واحدة في كل عشرين فرصة. لكني قلت أيضاً أنه بالرغم من ذلك، فليـــست لـــدى أية نية لفقدان الأمل أو التخلي عنه. وطالما أن الإنسان لا يعرف ما سيأتي به المستقبل، فإن معرفته ستكون أقل بما ستأتي به الساعة التالية. وحتى إذا كنا لا نتوقع أية أحداث عسكرية ملموسة في الأيام القليلة التالية، فمن يعرف أفضل مـــنا، وبخبـــرتنا بالمعسكرات، كيف تتفتح أمامنا في بعض الأحيان فرص عظيمة، وعلـــى نحـــو مفاجئ تماماً، على الأقل بالنسبة للفرد. فعلى سبيل المثال، قد يُلحق الـــسجين بـــشكل غير متوقع بجماعة خاصة تتمتع بظروف طيبة للعمل على غير العادة، وفي هذا يكون "الحظ الحسن" للسجين.

لكنـــي لم أتكلم عن المستقبل فحسب وعن الستار الذي أسدل عليه. لقد أشرت أيـــضاً إلـــى الماضـــي، وبكل مباهجه، وكيف أن نوره كان يسطع حتى في ظلام

(1) "Was mich nicht umbringt. Macht mich starker".

الحاضر. مرة أخرى، ولكني أتجنب أن أبدو كواعظ، استشهدت بقول الشاعر: "إن مـا خبـرته بنفسك، لا تستطيع قوة على ظهر الأرض أن تأخذه منك"[١]. وليست خبـراتنا فحـسب، بل إن كل ما قمنا به من أعمال وكل ما مر في ذهننا من أفكار عظـيمة، وكل ما عشناه من آلام ومعاناة – كل هذا لا يذهب أدراج الرياح، ورغم أنـه وقـع فـي الماضي، بل نستعيده ونبعث فيه الحياة. وفي هذا نوع من الوجود للفرد، وربما هو أكثر الأنواع رسوخاً وقوة.

بعـد ذلـك تكلمـت عن الفرص الكثيرة التي تعطي للحياة معنى. لقد أخبرت زملائي (الذين يرقدون بلا حراك، رغم ما قد يوجد من تنهدات تتردد على أسماعنا مـن آن لآخر) أن الحياة الإنسانية، تحت أي الظروف، لا تتوقف أبداً عن أن يكون لهـا معنى، وأن هذا "المعنى اللانهائي"[٢] للحياة يتضمن المعاناة والموت، الحرمان والفـناء. وطلـبت مـن المخلوقات التعيسة التي كانت تصغي إليَّ بانتباه في ظلام الجناح أن تواجه الجدية في موقفنا. فهؤلاء الأشخاص ينبغي ألا يفقدوا الأمل، وإنما ينبغي أن يحتفظوا بشجاعتهم وفي يقينهم بأن إخفاقهم في كفاحهم وعدم تحقق الأمل فـيه لا ينتقص من كرامة هذا الكفاح ومن معناه. وقلت إذا نظر إلينا شخص ما – صـديق، أو زوجـة، أو شخص على قيد الحياة أو في عداد الموتى، أو الخالق أو المخلـوق – فإنـه يجـب ألا يتوقع منا أن نخيب أمله. فهو يأمل أن يجدنا نعاني باعتزاز وبكبرياء – لا بتعاسة – ونعرف كيف نواجه الموت بكرامة.

وأخيـراً تكلمـت عـن تضحياتنا، التي كانت تحمل معنى في كل حالة. هذه التـضحيات قد تبدو من حيث طبيعتها على أنها بغير ذات معنى في الحياة العادية، في عالم النجاح المادي. ولكن في الواقع كانت تضحياتنا تنطوي على معنى. وقلت بـصراحة، أن أولـئك المسجونين المتدينين منا يستطيعون فهم ذلك بدون صعوبة. وذكـرت لهـم أن زمـيلاً لنا عند عودته إلى المعسكر قد حاول أن يعقد ميثاقاً مع الـسماء بـأن معاناتـه وموته ينبغي أن يفديا الإنسان الذي أحبه من نهاية أليمه. فبالنـسبة لذلك الرجل، كان للمعاناة والموت معنى؛ وفي هذا تضحية تنطوي على أعمق المعاني. فهو لم يرد أن يموت من أجل لا شيء. ولا يريد أحد ذلك.

لقد كان الغرض من كلماتي هو أن نجد معنى كاملاً في حياتنا، عندئذ وحينئذ، أي فـي ذلـك الجناح من المعسكر وفي ذلك الموقف الذي ينعدم فيه الأمل انعداماً يكاد أن يكون تاماً. ورأيت أن جهودي كانت ناجحة. فحينما أضاء المصباح ثانية،

(1) "Was du etlebst, kann keine macht der welt dir rauben".

(2) Infinite meaning.

رأيــت الأوجــه التعيــسة من أصدقائي تتقدم متعثرة نحوي لتعبر لي عن شكرها والدمــوع فــي عيونها. لكن ينبغي لي أن اعترف هنا أنني نادراً ما كنت أجد في نفــسي القوة الداخلية لكي اتصل برفاقي في الآلام والمعاناة، كما أني اعترف أنني قد أضعت فرصاً كثيرة لكي أفعل ذلك.

الطور الثالث من ردود الأفعال النفسية
سيكولوجية السجين بعد الإفراج عنه

نأتـــي الآن إلـــى المرحلة الثالثة من ردود الأفعال العقلية عند السجين، وهي: سيكولوجية السجين بعد الإفراج عنه. ولكن قبل أن نتطرق إلى هذا الموضوع، فإنه مـــن الأهمـــية بمكـــان بالنسبة لعالم النفس، وخاصة لمن لديه معرفة شخصية بهذه الأمـــور، أن يتـــساءل: ما هو التكوين النفسي لحراس المعسكر؟ كيف يكون ممكناً لـــرجال من لحم ودم أن يعاملوا الآخرين بالطريقة التي ذكرها مسجونون كثيرون؟ وكـــيف تحـــدث هذه الأشياء سيكولوجيا؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة دون دخول في تفاصيل كثيرة، تجدر الإشارة إلى بعض الأشياء:

أولاً: كان هناك بين الحراس بعض الحراس الساديين، ذوي النزعة اللاشعورية إلى تعذيب الآخرين– وهم ساديون بكل ما يحمله ذلك التعبير من معنى إكلينيكي.

ثانياً: كان يجري دائماً اختيار هؤلاء الحراس الساديين حينما تكون هناك حاجة إلى فئة قاسية من الحراس.

لقد كنا نشعر بغبطة عظيمة في موقع العمل حينما كانوا يسمحون لنا بأن نقوم بتدفـــئة أنفسنا لبضعة دقائق قليلة (بعد ساعتين من العمل في الصقيع القارس) أمـــام موقد صغير يُشْعل بقطع من الخشب وأغصان الأشجار. لكن كان هناك دائماً بعض المشرفين على العمل من الحراس الذين يجدون لذة عارمة في أن يحرموننا من هذه المتعة. وكم كانت وجوههم تعكس هذه المتعة بوضوح حين لا يكـــتفون بمنعنا من الوقوف بجوار الموقد، وإنما يضيفون إلى هذا أن يقلبوا المـــوقد ويفرغوا نيرانه الحانية في الثلج لإخماده! وإذا اتخذ أحد الحراس من سجين موقفاً ينم عن كراهية، فإن هناك دائماً شخصاً متخصصاً معروفاً بولعه الشديد بتعذيب الآخرين، يُبْعث إليه بهذا السجين سيئ الحظ.

ثالثاً: إن مشاعر غالبية الحراس قد تبلدت بسبب السنوات التي شهدوا فيها الأساليب الإرهابـــية بـــشكل متـــزايد بالمعسكر. وكان هؤلاء الأشخاص القساة معنوياً وعقلـــياً يرفـــضون على الأقل أن يتخذوا دوراً نشطاً في الإجراءات السادية. ولكنهم لم يمنعوا الآخرين من ممارسة هذه الإجراءات.

رابعاً: ينبغي أن نقرر أنه حتى بين الحراس، كان هناك بعضهم ممن ينظرون إلينا بعـــين العطـــف والشفقة. وسوف أشير فقط إلى قائد المعسكر الذي أُطلق منه

سـراحي. لقد وجدنا بعد الإفراج أن هذا الرجل قد دفع من جيبه نقوداً، ليست بالمـبلغ الـصغير، لكي يشتري دواءً لمسجونيه من أقرب سوق بالمدينة. أما مأمور المعسكر، وهو نفسه سجين، فقد كان أقسى من أي شخص من حراس المعـسكر. فهو يضرب المسجونين الآخرين لأبسط شيء، بينما لم يرفع قائد المعسكر، على حد علمي، يده أبداً على أي سجين منا.

مـن الواضـح أن مجـرد المعـرفة بـأن الشخص، حارساً كان أم سجيناً بالمعـسكر، لا يعنـي شيئاً في الغالب. فالشفقة الإنسانية يمكن أن توجد في كل الجماعـات، حتى في تلك الجماعات التي يمكن إدانتها ككل بسهولة. فالحدود بين الجماعـات متداخلة، وبالتالي ينبغي ألا نحاول تبسيط المسائل بالقول بأن هؤلاء الأشـخاص ملائكـة وأن الآخرين شياطين. ومما لا شك فيه، أنه لإنجاز عظيم بالنـسبة لحـارس أو رئـيس حـرس أن يكون شفوقاً على المسجونين رغم كل تأثيـرات المعـسكر، بيـنما كانت، من ناحية أخرى، خسة السجين الذي يعامل زمـلاءه بـسوء تستحق كل ازدراء. يتضح إذن أن المسجونين قد وجدوا نقص الخلـق عـند أولئك المسجونين خاصة غلاظ القلوب منهم، بينما قد تأثروا بعمق بالـشفقة القلـيلة التي تلقونها من أي حارس من الحراس. أتذكر كيف أن حارساً ذات يـوم قـد أعطاني سراً قطعة من الخبز الصغيرة. لقد كان ذلك هو "الشيء" الإنـساني الـذي أعطاه هذا الشخص لي أيضاً؛ أما ما هو أعظم فهو تلك الكلمة والنظرة اللتان صاحبتا تلك الهدية – ذلك الشيء.

مـن كـل ذلك ربما نتعلم أنه يوجد جنسان فحسب من الناس في هذا العالم – "جـنس" الإنـسان المهذب، و"جنس" الإنسان السافل. وكلاهما يوجد في كل مكان؛ إنهمـا يتغلغلان في كل الجماعات وليس هناك من جماعة تتألف كلية من أشخاص مهذبـين أو أشخاص سفلة. وبهذا المعنى، لا توجد جماعة ذات "جنس نقي" – ومن ثـم كـان يجـد السجين منا من آن لآخر زميلاً وديعاً طيب القلب من بين حراس المعسكر.

إن الحياة في معسكر اعتقال لتمزق الحجاب عن النفس الإنسانية وتعريها إلى أعماقهـا. هل مما يبعث على الدهشة أن نجد في تلك الأعماق مرة ثانية الخواص الإنـسانية التي هي بطبيعتها مزيج من الخير والشر؟ إن التصدع الناجم عن فصل الخيـر عن الشر، وهو تصدع يمر به كل البشر، يصل إلى أدنى الأعماق ويصبح واضحاً حتى في أغوار جهنم التي يكشف معسكر الاعتقال عنها.

*

والآن نتـناول فـي هـذا الجـزء الأخير من سيكولوجية معسكر الاعتقال: سـيكولوجية السجين الذي جرى الإفراج عنه. عند وصف خبرات الإفراج، وهي خبـرات شخصية بطبيعتها، سوف نلتقط خيوط ذلك الجانب من حكايتنا في صباح ذلـك اليوم الذي رفرف فيه العلم الأبيض فوق بوابة المعسكر، بعد أيام من التوتر الـشديد. وهـذه الحالة من الترقب الداخلي قد تبعها استرخاء كامل. لكن من الخطأ تماماً الاعتقاد بأن جنون الفرحة قد تملكنا. فما الذي حدث إذن؟

فقدان القدرة على الإحساس بالسرور:

بِخُطـىً متثاقلة أخذنا نجر أقدامنا إلى بوابة المعسكر. وصرنا نتلفت من حولنا بجـبن ونحملق في بعضنا البعض، وكانت تسيطر الشكوك على أفكارنا. ثم غامرنا ببـضع خطوات قليلة إلى خارج المعسكر. وفي هذه المرة لم تتصايح الأوامر إلينا، كـذلك لـم تكن هناك حاجة إلى الجري بسرعة فراراً من لطمة أو ركلة. لا – يا للدهـشة! ففي هذه المرة قام الحراس بتقديم السجائر إلينا! وكان من الصعب علينا فـي البداية أن نتعرف عليهم؛ فبسرعة قد تغيروا وظهروا بمظهر الكياسة والرقة. مـشينا بـبطء عبر الطريق الممتد من المعسكر وسرعان ما صارت أقدامنا تؤلمنا وتهددنا بالتوقف. ولكن أخذنا نعرج بها، فقد أردنا أن نرى ما يحيط بالمعسكر لأول مـرة مـن خلال أعين أناس أحرار. "الحرية" – كلمة رددناها لأنفسنا، ولكننا رغم ذلـك لم نتمكن من إدراكها. لقد كنا نردد هذه الكلمة مراراً خلال كل السنوات التي كنا نحلم فيها بالحرية، بحيث أنها قد فقدت معناها. فواقع الحرية لم ينفذ إلى وعينا، فلم نستطيع عندئذ أن ندرك الحقيقة بأن الحرية كانت من نصيبنا.

وصلنا إلى مروج خضراء غنية بالزهور. ومع أننا قد رأينا وتحققنا من وجود هذه الزهور، لكننا لم نحس بأية مشاعر نحوها. أما أول شرارة للبهجة، فقد راودتنا حيـنما رأيـنا ديكـاً له ذيل فيه ريش متعدد الألوان. ولكن هذا الإحساس قد بقى كمجرد شرارة فحسب؛ فنحن لازلنا بعد لا ننتمي إلى هذا العالم!

فـي الـسماء حينما التقينا جميعاً مرة ثانية في جناحنا وهمس أحدنا سراً إلى زميل له: "قل لي، هل كنت مسروراً اليوم؟".

أجـاب الآخر، وقد غمره شعور بالخجل لأنه لم يعرف بأننا جميعاً نحس نفس الشعور: "بصدق، لا"! لقد فقدنا في الواقع القدرة على الإحساس بالسرور، وبالتالي علينا أن نقوم ببطء بعملية إعادة تعلم لهذه المشاعر.

يمكــن أن نطلق، من الناحية النفسية، على ما حدث للمسجونين المفرج عنهم مــصطلح "**اخــتلال الإنّية**"[١]. فكل شيء قد بدى غير حقيقي، وظهر بغيضاً، كما لو أنــه فــي حلــم. لم نستطع أن نصدق أن ذلك كان حقيقياً. وكم كنا غالباً نعيش في خــداع بواســطة الأحلام في السنوات الماضية! كنا نحلم بأن يوم التحرير قد أتى، وبأنــه ســوف يجري إطلاق سراحنا، ونعود لمنازلنا، ونستقبل أصدقاءنا، ونعانق زوجاتنا، ونجلس إلى المائدة لنحكي كل الأشياء التي عشناها، بل نحكي أيضاً كيف كــنا نرى غالباً يوم التحرير في أحلامنا. وعندئذ دوت صافرة في آذاننا، إشارة لنا لكــي نستيقظ، وبذلك تأتي أحلامنا بالحرية إلى نهايتها. فالآن قد صار الحلم حقيقة. لكن هل نستطيع أن نصدقه في الحقيقة؟

الشهية الزائدة :

لقــد تعرض الجسم لخبرات من الكف أقل مما تعرض له العقل. لذا، فقد أفاد من الحرية الجديدة من اللحظة الأولى. فقد بدأ يأكل بنهم، لساعات ولأيام، بل حتى فــي منتصف الليل. وكانت كميات الطعام التي نلتهمها تبعث على الدهشة. وحينما يُدعــى أحــد المسجونين إلى منزل أحد المزارعين الأصدقاء، كان يأكل ويأكل، ثم يحتــسي القهوة التي تطلق لسانه. فيأخذ في التحدث ولعدة ساعات غالباً. فالضغط الــذي كان جاثماً على عقله لسنوات قد انقشع في النهاية. ولو سمعه شخص يتكلم، لخرج بانطباع مؤداه أنه مضطر إلى التكلم، وأن رغبته في الكلام لا تقاوم.

الكلام الزائد :

أعــرف أشخاصاً قد خضعوا لضغط ثقيل لفترة وجيزة من الوقت (على سبيل المــثال، استجوابهم بواسطة الجستابو)، كانوا يأتون بردود فعل مماثلة. تنقضي أيام كثيــرة، حتــى لا ينفك لسانه فحسب، ولكن ينفك شيء داخل نفسه كذلك؛ ثم ينطلق شعوره فجأة من خلال القيود الغريبة التي حبست ذلك الشعور. في أحد الأيام، بعد فترة قليلة من الإفراج، كنت أسير في المدينة بجوار المروج الغنية بالزهور، ولعدة أميال، صوب سوق المدينة بالقرب من المعسكر. وكانت الطيور تحلق في السماء، وأســمع غناءها الذي يبعث على البهجة. لم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته لعدة أمــيال من حولي؛ لم يكن هناك أي شيء عدا الأرض والسماء المتراميتين وتغريد الطــيور ورحابــة الفضاء. توقفت، ونظرت من حولي وتطلعت إلى السماء – ثم

---

(1) depersonalization

ركعت على ركبتي – في تلك اللحظة لم أعرف عن نفسي ولا عن العالم إلا القليل جـداً، ولكـن كانت هناك عبارة واحدة أرددها في عقلي: "لقد دعوت الله من داخل سجني الضيق، فأجابني في رحابة الكون".

الطريق من حرب الأعصاب إلى السلام العقلي:

لم أعد استطيع أن أتذكر كم من الوقت بقيت فيه راكعاً في ذلك المكان، حيث أردد تلـك العـبارة، لكني أعرف أنه في ذلك اليوم، وفي تلك الساعة، بدأت حياتي الجديدة. وأخذت في التقدم خطوة بخطوة، حتى صرت مرة أخرى كائناً إنسانياً.

لاشـك أن الطـريق الـذي تـركنا فيه التوتر العقلي الحاد للأيام الأخيرة في المعـسكر (الطـريق مـن حـرب الأعصاب إلى السلام العقلي) لم يكن خالياً من العقـبات. فمـن الخطأ أن نعتقد أن السجين المفرج عنه لم يكن بحاجة إلى رعاية معـنوية أكثر من ذلك. وينبغي أن نضع في الاعتبار أن الشخص الذي كان تحت ذلك الضغط العقلي الهائل لتلك الفترة الطويلة، من الطبيعي أن يكون في خطر بعد إطلاق سراحه، خاصة وأن هذا الضغط قد أُزيح واستُبعد على حين فجأة تماماً. هذا الخطـر (مـن منظور الصحة النفسية) هو صورة نفسية مطابقة للقيود التي رزح تحـتها. فكما أن الصحة الجسمية للغواص تتعرض للخطر إذا ترك مكان الغوص فجأة (حيث يكون واقعاً تحت ضغط جوي مرتفع)، كذلك فإن الشخص الذي يجري تحريـره فجـأة مـن الـضغط العقلـي قد يعاني من اختلال في صحته المعنوية والروحية.

خـلال هـذا الطـور النفسي، يستطيع أي شخص أن يلاحظ أن الناس ذوي الطبائع الأكثر بدائية لا يستطيعون الهرب من تأثيرات القسوة التي أحاطت بهم في حـياة المعـسكر. فالآن، وبعد تحررهم، صاروا يعتقدون أنهم يستطيعون استخدام حـريتهم بـلا قيود وبلا هوادة. فكأن الشيء الوحيد الذي تغير بالنسبة لهم هو أنهم أنفـسهم قـد صـاروا الآن هـم القامعـون بدلاً من المُقْمَعين والظالمون بدلاً من المظلومـين. لقـد صاروا مُحَرِّضين، وليس أهدافاً، للقوة العاتية، وللظلم المقصود. ويبـررون سـلوكهم بخبـراتهم البـشعة. وهذا ما يتكشف غالباً في أحداث تافهة بوضوح. كان هناك صديق لي يسير معي عبر حقل صوب المعسكر، وفجأة وجدنا أنفـسنا في حقل به محاصيل خضراء. وبطريقة آلية، تجنبت السير في هذا الحقل، ولكـنه شـدني من يدي وجرني إلى هذا الحقل. تلعثمت بعض الشيء إزاء مراعاة هـذا النبت الصغير الأخضر لكي لا نطأه بأقدامنا. تملكه الغضب، ورمقني بنظرة

غاضبة وصاح: "أنت لا تتكلم! يكفي ما فقدناه. إن زوجتي وإبني قد أُعْدما بالغاز – ولــن أشــير إلى أي شيء آخر – وأنت تريد أن تمنعني من أن أدوس على بعض سيقان قليلة من الشوفان!".

كــان مــن الواجب إعادة هؤلاء الأشخاص إلى الحقيقة المألوفة بأنه ليس من حــق أي شــخص أن يأتــي بخطأ، حتى ولو وقع عليه خطأ؛ وكانت إعادة هؤلاء الأشــخاص إلــى هذه الحقيقة تتم ببطء شديد. كان علينا أن نسعى إلى إعادتهم إلى هــذه الحقيقة، وإلا فإن النتائج سوف تكون أسوأ من مجرد إتلاف بضعة سيقان من الــشوفان. وإنــي لا زلت أرى السجين الذي لف أكمام قميصه وضغط بيده اليمنى أسفل أنفي وصاح: "أقطع يدي هذه إذا لم ألطخها بالدم في ذلك اليوم الذي أعود فيه إلــى بلدي"! وأود أن أذكر أن الشخص الذي قال هذه الكلمات لم يكن زميلاً رديئاً. لقد كان من أفضل زملائي في داخل المعسكر وكذلك بعد خروجنا منه.

وبالإضــافة إلى الفساد الخلقي الناجم عن التحرر المفاجئ من الضغط العقلي، كانــت هــناك خبــرتان أساسيتان تهدد بتدمير الطابع المميز للسجين المفرج عنه، وهما: القسوة[١] والتحرر من الوهم[٢] حينما يعود إلى حياته السابقة.

القسوة :

تعــزي القسوة إلى عدد من الأشياء التي كان يلاقيها الشخص في مدينته عند عودته إليها بعد التحرير. فحينما يجد الشخص، عند عودته، أنه في أماكن كثيرة لا يلقــي إلا هــز الكتفين والعبارات المبتذلة، فإنه ينزع إلى أن يصبح قاسياً وإلى أن يــسائل نفسه لماذا كل هذا الذي لقيه. إنه حينما يسمع نفس العبارات تقريباً في كل مكان – "إننا لم نعلم بذلك"، و"نحن قد عانينا أيضاً" – فإنه يسأل نفسه: أليس عندهم في الحقيقة شيء أفضل من ذلك يستطيعون قوله لي؟

التحرر من الوهم :

أمــا خبرة التجرد من الوهم فهي مختلفة. ذلك أن الأمر لم يكن خاصاً بالرفاق (الــذين كانت سطحية مشاعرهم ونقصها مما يبعث على الاشمئزاز والتقزز بحيث يشعر الشخص في النهاية كما لو أنه دبيب يزحف في جحر فلا يسمع ولا يرى أية

---

(1) Bitterness

(2) Disillusionment

كائنات إنسانية بعد الآن)، وإنما كان خاصاً بالمقدر نفسه وبالمصير، فهذا هو ما بدا قاسـياً للغاية. فالإنسان الذي ظل لعدة سنوات يعتقد أنه قد وصل إلى الحد المطلق لكل معاناة ممكنة، إنما يجد الآن أن المعاناة أمر لا حدود له، وأنه لا زال يمكن أن يعاني بشدة أكثر مما كان.

حيـنما تكلمنا من محاولات تزويد الإنسان في المعسكر بالشجاعة العقلية، قلنا أنـه ينبغـي تبصيره بشيء ما يتطلع إليه في المستقبل. ينبغي تذكيره بأن الحياة لا تزال تنتظره، وبأن إنساناً في انتظار عودته. لكن ماذا عن مرحلة ما بعد الإفراج؟ كـان هناك بعض الأشخاص الذين وجدوا أنه ليس هناك من ينتظرهم. وويل لذلك الفـرد الذي وجد أن الشخص الذي كانت مجرد ذكراه وحدها تبعث فيه شجاعة في المعسكر، لم يعد موجوداً! ويل لذلك الفرد الذي، حينما يأتي في النهاية يوم أحلامه، يجـده مخـتلفاً تمامـاً عن كل ما كان يتشوق إليه! ربما ركب عربة، وسافر إلى المنـزل الـذي كـان يراه لسنوات في عقله، وفي عقله فحسب، ودق على جرس الباب، كما تشوق في آلاف من أحلامه إلى أن يفعل ذلك، إلا أنه يجد في النهاية أن الشخص الذي كان يفتح الباب ليس هناك، ولن يكون هناك أبداً مرة ثانية.

هكذا قلنا جميعاً لبعضنا البعض في المعسكر بأنه لن توجد سعادة على الأرض تستطيع أن تعوضنا عن كل ما عانيناه. لم نكن نأمل في السعادة؛ فلم تكن هي التي أمدتنا بالشجاعة وأعطت معنى لمعاناتنا وتضحياتنا وإقدامنا على الموت. بل إننا لم نكـن مُهَيَّـين لعـدم السعادة. هذا التحرر من الوهم، الذي كان بانتظار عدد من المـسجونين ليس بقليل، كان خبرة يصعب المرور فيها ويتعذر التغلب عليها سواء عـند هـؤلاء المـسجونين أم بالنـسبة للطبيب النفسي الذي يروم مساعدتهم على التخلص منها. لكن ذلك لا يجوز أن يكون مُثْبطاً للطبيب النفسي، بل، على العكس، يزوده بمثير إضافي، وبتحديات مهنية وإبداعات علمية.

*

فبالنـسبة لكـل شخص من المسجونين المفرج عنهم، يأتي ذلك اليوم حينما لم يعد قادراً على أن يفهم، مستعيداً خبراته في المعسكر، كيف أنه قد تحمل كل ما مر به. وكما أن يوم تحرره قد أتى في النهاية، حينما بدا كل شيء له كحلم جميل، فإن هـذا الـيوم يأتي أيضاً حينما تبدو له كل خبراته في المعسكر على أنها ليست إلا كابوساً.

أمـــا الخبـــرة التي تتوج كل هذه الخبرات، بالنسبة للشخص العائد إلى منزله، فهـــي ذلـــك الـــشعور العجيب بأنه، بعد كل ما لقيه من معاناة، لا يوجد ثمة شيء يستوجب الخوف بعد الآن - عدا الخوف من الله سبحانه وتعالى.

٢

الجزء الثاني
المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى

الجزء الثاني
المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى

عـــادة ما يتساءل القراء لسيرتي الذاتية القصيرة عن إيضاح مباشر أكثر تفصيلاً واكتمالاً لنظريتي في العلاج. وبناء على ذلك، فقد أضفت قسماً موجزاً عن العلاج بالمعنـــى إلى الطبعة الأصلية من كتابي (من معسكر الموت إلى الوجودية)[١]. لكن ذلك لم يكن كافياً، ووجدت نفسي مطالباً بمزيد من التناول الموسع. لذلك فقد عمدت في الطبعة الحالية إلى أن أعيد كلية كتابة نظريتي وإلى أن أتوسع كثيراً في عرض وجهات نظري.

لـــم تكـــن المهمة سهلة إلى هذا الحد، فلكي أقدم للقارئ داخل حيز قصير كل المادة العلمية التي استغرقت أربعة عشر مجلداً باللغة الألمانية، إنما هو في الغالب مهمـــة عـــسيرة. يذكرنـــي ذلك بطبيب أمريكي حضر إلى عيادتي بفيينا ذات مرة وســـألني: "والآن، يا دكتور، هل أنت محلل نفسي؟" وعندئذ أجبت: "لست بالضبط محلـــلاً نفـــسياً، ولـــنقل معالجـــاً نفسياً". ثم استمر يسألني: "ما هي المدرسة التي تناصـــرها؟" أجبت: "إنها نظريتي، وهي تعرف بـــ "العلاج بالمعنى"، فسألني: "هل تـــستطيع أن تخبرنـــي في جملة واحدة ماذا تقصد بالعلاج بالمعنى؟ على الأقل، ما الفرق بين التحليل النفسي والعلاج بالمعنى؟" قلت: "نعم، ولكن أولاً هل تستطيع أن تخبرنـــي فـــي جملة واحدة بماهية التحليل النفسي كما تعتقد؟" وهذه كانت إجابته: "أثـــناء التحليل النفسي ينبغي أن يرقد المريض ممداً على أريكة (كنبة) ويحكي لك أشـــياء، يكون في بعض الأحيان من غير المقبول جداً الإفصاح عنها". عندئذ أجبته علـــى الفـــور بالعبارة المرتجلة التالية: "الآن، في العلاج بالمعنى قد يظل المريض جالـــساً معـــتدلاً في وضعه الطبيعي، لكنه ينبغي أن يسمع أشياءً، يكون في بعض الأحيان من غير المقبول جداً سماعها".

ومـــن الطبيعـــي، أني كنت أقصد بهذه العبارة بعض المزاح ولم أقصد صياغة معدلـــة للعـــلاج بالمعنـــى. ومع ذلك، فإنها تنطوي على بعض الشيء بقدر ما يعتبر العـــلاج بالمعنى، مقارنة بالتحليل النفسي، طريقة "أقل استرجاعية" و"أقل استبطانية"[٢].

---

(1) "From Death – Camp to Existentialism".

(2) less retrospective, less introspective.

فالعلاج بالمعنى يركز أكثر على المستقبل، أي يركز على التعيينات والمعاني التي ينبغـــي أن يـــضطلع بها المريض في مستقبله. ولا يركز العلاج بالمعنى في نفس الـــوقت على كل تكوينات الدائرة المفرغة وآليات التغذية الراجعة التي تلعب دوراً هائلاً في تطور الأمراض النفسية. ومن ثم، يوضع حد لما يميز الشخص العصابي مـــن تمركز حول الذات، بدلاً مما يخضع له هذا التمركز من تطور وتعزيز بشكل مستمر.

لا ريب أن هذا النوع من العَرْض لهذه النظرية فيه تبسيط زائد – ففي العلاج بالمعنـــى يُواجَه المريض فعلاً بمعنى حياته، كما يُعاد توجيهه وتوجهه نحو معنى هذه الحياة. ولذا، فإن صياغتي لتعريف لمفهوم العلاج بالمعنى تصدق من حيث أن الشخص العصابي يحاول الهرب من الوعي الكامل بمهامه في الحياة. وإذا استطعنا أن نجعلـــه واعياً بهذه المهام، وأن نوقظ فيه الوعي الأكمل بها، فإن هذا يمكن أن يُسهم كثيراً في تعضيد قدرته على التغلب على عصابه.

والآن، فلأفـــسر لماذا استخدمت المصطلح "Logotherapy" (العلاج بالمعنى) كإسم لنظريتي: فالكلمة "Logos" – هي كلمة يونانية تشير إلى "المعنى" Meaning . إذن، العـــلاج بالمعنى، أو كما يطلق عليه البعض "مدرسة فيينا الثالثة في العلاج النفسي"[1]، يركز على معنى الوجود الإنساني وكذلك على سعي الإنسان إلى البحث عـــن ذلـــك المعنى. هذا السعي إلى أن يجد الشخص معنى في حياته، وفقاً للعلاج بالمعنـــى، هـــو القوة الدافعية الأولية في الإنسان. وفي ذلك يتضح لماذا أتكلم عن "إرادة المعنـــى"، خلافاً لمبدأ اللذة[2] (أو كما نستطيع أن نطلق عليه أيضاً مصطلح إرادة اللذة)[3] الذي تمركز حوله التحليل النفسي الفرويدي، وكذلك خلافاً لمبدأ إرادة القوة[4] الذي اهتم به علم النفسي الآدلري (نسبة إلى "آدلر" عالم التحليل النفسي").

(1) "The Third Viennese School of Psychotherapy وهي بعد مدرستي فرويد وآدلر
(2) Pleasure principle.
(3) The will to pleasure.
(4) The will to power.

إرادة المعنى

The Will To Meaning

إن سعي الإنسان إلى البحث عن معنى هو قوة أولية في حياته وليس "تبريراً ثانوياً"[١] لحوافزه الغريزية. وهذا المعنى فريد ونوعي من حيث أنه لابد أن يتحقق بواسطة الفرد وحده ويمكن لهذا أن يحدث؛ وعندئذ فقط يكتسب هذا المعنى مغزى يشبع إرادة المعنى عنده. يزعم بعض علماء النفس أن المعاني والقيم "ليست إلا آليات دفاعية، وتكوينات ردود أفعال وإعلاءات". ولكن إذا تكلمت عن نفسي وعن وجهة نظري، فأنا لا أبتغي مجرد العيش من أجل "آلياتي الدفاعية"، ولست مستعداً للموت من أجل "تكوينات ردود أفعال" فحسب. فالإنسان، مع ذلك، قادر على أن يحيا، وعلى أن يموت أيضاً، من أجل مُثُله وقيمه وطموحاته!.

لقد أُجْرِيَ في فرنسا، منذ عدة سنوات، استطلاع للرأي العام. وقد أظهرت النتائج أن ٨٩% من الأشخاص المستفتين قد أقروا أن الإنسان يحتاج "شيئاً ما" لكي يعيش من أجله. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ٦١% منهم يسلمون بأنه كان يوجد شيء ما أو شخص ما في حياتهم، والذي من أجله كانوا على استعداد حتى للموت. وقد كررت تطبيق هذا الاستفتاء في عيادتي بفيينا على المرضى وكذلك على العاملين المستخدمين بالعيادة! وكانت النتائج على وجه التقريب مماثلة لتلك النتائج التي حصلوا عليها من آلاف الأشخاص المستفتين في فرنسا، بحيث أن الاختلاف كان بنسبة ٢% فقط. بقول آخر، إن إرادة المعنى لدى معظم الناس هي "حقيقة وليست مجرد اعتقاد"[٢].

ومن الطبيعي، أنه قد توجد بعض الحالات التي يكون فيها اهتمام الفرد بالقيم هو في الواقع عبارة عن تمويه للصراعات الداخلية المستترة؛ ولكن، إذا كان الأمر كذلك، فإنها تمثل استثناءات من القاعدة وليست القاعدة ذاتها. في مثل هذه الحالات، يكون للتفسير النفسي الدينامي ما يسوغه كمحاولة لإماطة اللثام عن الديناميات اللاشعورية الكامنة. وعلينا في تلك الحالات أن نتناول في الواقع "قيماً كاذبة"[٣] (وخير مثال لذلك، هو الشخص المتعصب)، وأن نكشف عنها القناع كما هي. ومع

(1) Secondary rationalization.

(2) Fact, not faith.

(3) pseudo-values.

ذلــك، فــإن "عملــية كشف القناع"[١] أو "إفضاح الزيف"[٢] ينبغي أن تتوقف حالما يُــواجه الــشخص بما هو حقيقي وأصيل في الإنسان، كرغبته مثلاً في حياة تكون ذات معنى بقدر الإمكان. وإذا لم تتوقف هذه العملية عندئذ، فإن الشخص الذي يقوم بهــا إنمــا يكشف عن إرادته الرامية إلى التقليل من قدر الطموحات المعنوية لدى الشخص الآخر.

عليــنا أن نحــتاط إذن مــن النــزعة إلى تناول القيم في ضوء مجرد تعبير الــشخص ذاتــه عن نفسه. فالمعنى (Logos) ليس انبثاقاً من الوجود ذاته فحسب، ولكــنه بالأحــرى شيء يواجه هذا الوجود. وإذا لم يكن المعنى الذي يُنْتَظر تحقيقه مــن الإنــسان فــي الواقع شيئاً سوى تعبير عن الذات، أو لم يكن أكثر من مجرد إســقاط لتفكيره الهوائي المراد[٣]، فإن المعنى يفقد على الفور طبيعته الباعثة على الــتحدي والعمل؛ ولا يعود بذلك يدفعه إلى أن يحشد طاقاته وينطلق إلى التقدم. ولا يــصدق ذلك على ما يعرف بالإعلاء بالحوافز الغريزية فحسب ولكنه يصدق أيضاً علــى ما يسميه "كارل يونج" (C.G.Jung) بالمصطلح "النماذج أو الطُرز الأصلية للاشــعور الجمعي"[٤]، بقدر ما تعتبر هذه الأخيرة أيضاً تعبير عن الذات، أي عن الذات الإنسانية ككل. يصدق ذلك أيضاً على زعم بعض المفكرين الوجوديين الذين لا يــرون في المُثُل عند الإنسان شيئاً سوى اختراعاته الخاصة به. فالإنسان، وفقاً لــــ "جــان بول سارتر"، يخترع نفسه، ويصمم "جوهره"؛ أي يبتدع ويصمم حقيقة ماهيته، بما في ذلك ما ينبغي أن يكون عليه أو يصير به. ومع ذلك، فإني أعتقد أن معنــى وجــودنا لــيس أمــراً نبتدعه نحن أنفسنا، وإنما هو بالأحرى أمر نكتشفه ونستبينه.

ومــن ثــم، تعتبر البحوث النفسية – الدينامية[٥] في ميدان دراسة القيم اتجاهاً مــشروعاً؛ ولكــن يبقى السؤال عما إذا كانت هذه البحوث دائماً ملائمة. وفوق كل ذلك، ينبغي أن نذكر أن أي بحث من هذه البحوث لا يستطيع، من حيث المبدأ، أن يكــشف إلا عــن ماهــية القــوة الدافعة في الإنسان. ومع ذلك، فإن القيم لا تحفز الإنــسان؛ أنهــا لا تدفعه، وإنما بالأحرى تشده وتجذبه. وفي هذا يكمن الاختلاف؛ وهذا أشبه بما أتذكره دائماً عن أبواب الفنادق الأمريكية حينما أمر بها، فهناك باب

(1) unmasking.
(2) debunking.
(3) wishful thinking projection.
(4) archetypes of collective unconscious.
(5) psychodynamic research.

ينبغي جذبه وشده، بينما ينبغي دفع الباب الآخر. والآن، إذا قلت أن الإنسان يُجذب بالقـيم، فإن ما يشير إليه ذلك ضمنا هو تلك الحقيقة بأن هناك دائماً حرية متضمنة فيها: حرية الإنسان في الاختيار بين القبول أو الرفض لما هو معروض عليه، أي في تحقيق "إمكانات المعنى"[١]، وإلا فقدها.

ومـع ذلك، ينبغي أن يكون واضحاً تماماً أنه لا يمكن أن يوجد في الإنسان شـيء يمكـن أن نـسميه "الحافز المعنوي"[٢]، أو حتى "الحافز الديني"[٣]، بنفس الطـريقة التي نتكلم بها عن الغرائز الأساسية كمحددات حتمية للإنسان. فالإنسان لا يُـساق أبداً إلى السلوك الأخلاقي المعنوي؛ ولكنه في كل حالة يتخذ قراراً بأن يسلك على نحو أخلاقي. والإنسان لا يفعل ذلك لكي يشبع حافزاً أخلاقياً معنوياً أو لكي يكون له ضمير سليم. أي أنه لا يسلك بطريقة أخلاقية حتى يكون له ضمير سـليم، ولكـنه يسلك هذا من أجل سبب يوطن نفسه عليه، أو من أجل إلهه الذي يعـبده أو من أجل شخص يحبه. والحقيقة أن الفرد، إذا كان يفعل ذلك في الواقع مـن أجـل أن يكـون له ضمير سليم، فإنه سيصبح شخصاً "فرِّيسياً"[٤] (منافقاً)، ويمتـنع علـيه أن يكون شخصاً أخلاقياً بحق. واعتقد أن القديسين والفضلاء لم يشغلهم ببساطة أمر سوى خدمة الله، وأني أشك في أن أذهانهم قد شُغلت حينذاك بالرغبة في أن يصبحوا قديسين أو فضلاء. وإذا كان الأمر كذلك، فإنهم يصيرون أشخاصـاً كماليين أكثر من أن يصيروا قديسين. ولا شك أن "الضمير السليم هو أفـضل وسادة" كما تذهب مأثورة ألمانية؛ إلا أن الأخلاق الحَقّة ليست حبة دواء منوم، أو عقار مهدئ.

---

(1) meaning potentiality.

(2) moral drive.

(3) religious drive.

(4) Pharisee.

الفرِّيسيون طائفة من اليهود عاشت في عهد المسيح عليه السلام وعُرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة، وبالتظاهر بالصلاح والتدين.

الإحباط الوجودي

Existential Frustration

قــد تتعــرض إرادة المعنـــى عند الإنسان أيضاً إلى الإحباط، وهو ما يعرف بمصطلح "الإحباط الوجودي" وفقاً لنظرية العلاج بالمعنى. يمكن استخدام مصطلح "وجــودي"، بطــرق ثــلاث: لكي يشير أولاً إلى الوجود ذاته، أي أسلوب الوجود المميــز للإنــسان؛ وثانياً إلى معنى الوجود؛ وثالثاً إلى السعي للتوصل إلى معنى محسوس ملموس في الوجود الشخصي، أي إلى إرادة المعنى.

وقــد يــتمخض الإحباط الوجودي أيضاً عن المرض النفسي. ولهذا النمط من المــرض النفــسي يبتكــر العــلاج بالمعنـــى مــصطلح "العصاب معنوي المنشأ" Noögenic neurosis خلافــاً للعــصاب بالمعنـــى الــشائع لهذه الكلمة، أي خلافاً للعــصاب نفــسي المنــشأ. لا يكمن أصل العصاب معنوي المنشأ في البعد النفسي ولكــن بالأحــرى فـــي البعد "العقلي أو الروحي" "noölogical" (وهي مأخوذة من الكلمة اليونانية "noos" وتعني العقل) للوجود الإنساني. وهذا مصطلح آخر للعلاج بالمعنـــى يــشير إلـــى أي شيء يتعلق بالمحور "العقلي" أو "الروحي" من شخصية الإنــسان. ولكــن، ينبغـــي ألا يغيب عن أذهاننا أنه داخل الإطار المرجعي للعلاج بالمعنى، لا يكون لمصطلح "روحي" دلالة دينية بشكل أساسي وإنما يشير إلى البعد الإنساني خاصة.

العصاب معنوي المنشأ

Noögenic Neurosis

لا يــتولد العصاب معنوي المنشأ من الصراعات بين الحوافز والغرائز، وإنما يــتولد بالأحــرى من الصراعات بين القيم المختلفة؛ وبعبارة أخرى، ينشأ العصاب معــنوي المنــشأ مــن الــصراعات المعنوية الأخلاقية؛ أو إذا تكلمنا بطريقة أكثر عمومــية، ينــشأ هــذا النمط من العصاب من المشكلات "الروحية". ومن بين تلك المــشكلات، الإحــباط الوجــودي الذي يلعب غالباً دوراً كبيراً في هذا الشكل من الاضطراب.

مــن الواضــح أنه في حالات المرض النفسي معنوي المنشأ لا يكون العلاج الملائــم والفعــال هو العلاج النفسي بصورة عامة وإنما يكون هو بالتحديد العلاج بالمعنــى – وهو ذلك العلاج الذي يجرؤ على الدخول إلى البعد المعنوي الروحي مــن الوجود الإنساني. وفي الواقع، أن المقصود بمصطلح "Logos" باليونانية ليس "المعنى" فحسب وإنما هو "الروح" أيضاً. فالمشكلات المعنوية الروحية، مثل طموح الإنسان إلى وجود ذي معنى وكذلك مثل إحباط هذا الوجود؛ كل هذه يجري تناولها بواســطة العــلاج بالمعنى على أساس مفاهيم معنوية روحية. فهي تؤخذ بإخلاص وبحمــاس بدلاً من العودة بها وتتبعها إلى الجذور والمصادر اللاشعورية، وبالتالي بدلاً من تناولها على أساس المفاهيم الغريزية دون غيرها.

وإذا فــشل طبــيب فــي التمييــز بــين جوانب البعد الروحي وجوانب البعد الغريــزي، فإنه قد يختلط عليه الأمر وبذلك يقع في ارتباك شديد. ويمكنني في هذا الــصدد أن أســوق المــثال التالــي: حضر إلى مكتبي في فيينا أحد الدبلوماسيين الأمــريكيين الكبار يطلب أن يستكمل علاجاً بالتحليل النفسي كان قد بدأه منذ خمس ســنوات مــع أحد المحللين النفسين في نيويورك. وفي مستهل المقابلة سألته لماذا يعــتقد أنه ينبغي أن يُحَلّل نفسياً، ولماذا برز تحليله إلى المحل الأول. وقد تبين لي أن هــذا المــريض لم يكن متوافقاً مع مهنته، ووجد أنه من الصعب عليه غالباً أن يــساير السياسة الخارجية الأمريكية. إلا أن محلله أخبره مراراً أنه يجب أن يحاول التصالح مع والده وأن يصل إلى تسوية ما بينهما من خلاف، لأن حكومة الولايات المــتحدة وكــذلك رؤساؤه "لم يكونوا شيئاً سوى" صوراً لوالده، وبالتالي فإن عدم رضائه عن عمله كان يرجع إلى الكراهية التي يكنها لا شعورياً نحو والده. وخلال تحلــيل نفسي استغرق خمس سنوات، جرى حض المريض أكثر وأكثر على قبول

تفسيرات محلله حتى صار عاجزاً في النهاية عن أن يرى غابة الحقيقة بسبب أشجار الرموز والصور. وبعد بضع مقابلات، كان واضحاً أن إرادة المعنى عنده كانت قد تعرضت للإحباط بواسطة مهنته، وأنه قد صار يشتاق بالفعل لكي يلتحق بنوع آخر من العمل. ونظراً لعدم توافر الأسباب التي تجعله لا يتخلى عن مهنته ويلتحق بمهنة أخرى، فإنه مع ذلك تخلى عنها والتحق بعمل آخر، مع وجود نتائج مشجعة. لقد ظل يجاهد في عمله الجديد لأكثر من خمس سنوات، كما قرر ذلك حديثاً. وأشك أني، في هذه الحالة، كنت أتناول حالة عصابية على الإطلاق؛ وهذا هو السبب الذي جعلني أعتقد أنه لم يكن بحاجة إلى أي علاج نفسي، ولا حتى إلى علاج بالمعنى، وذلك لسبب بسيط وهو أنه لم يكن مريضاً بالفعل.

ليس كل صراع بالضرورة عُصابياً؛ فمقدار من الصراع سوي وصحي. كذلك ليست كل معاناة ظاهرة مَرَضية؛ وهي بالتالي ليست عَرَضاً من أعراض العصاب. لذا فإن المعاناة قد تكون إنجازاً إنسانياً طيباً، خاصة إذا كانت تنشأ من الإحباط الوجودي. وأن لأنكر بقوة أن بحث الإنسان عن معنى لوجوده، أو حتى تشككه في هذا المعنى، إنما يشتق في أي حالة من أي مرض، أو يتمخض عن أي مرض. فالإحباط الوجودي ليس في حد ذاته ظاهرة مَرَضية ولا هو عرض له أصل مَرَضي.

ويمكن أن نقول أن اهتمام الإنسان بالحياة وقلقه بشأن جدارتها وجدواها وحتى يأسه منها لا يخرج أحياناً عن كونه كدراً أو ضيقاً معنوياً روحياً وليس بالضرورة أن يكون مرضاً نفسياً بحال من الأحوال. وهنا يكون تفسير هذا الضيق أو الكدر المعنوي أو الروحي على أنه مرض نفسي هو ما يدفع الطبيب إلى أن يدفن اليأس الوجودي عند مريضه تحت كومة من العقاقير المهدئة. ولكن مهمته هي بالأحرى أن يقود المريض من خلال أزماته الوجودية إلى النمو والارتقاء.

إن العلاج بالمعنى يعتبر أن مهمته هي مساعدة المريض على أن يجد معنى في حياته. وبقدر ما يجعله العلاج بالمعنى واعياً "بالمعنى الكامن"(١) لوجوده، فإن هذا العلاج ينطوي على عملية تحليلية. وفي ذلك يشبه العلاج بالمعنى التحليل النفسي. إلا أنه في محاولة العلاج بالمعنى لجعل الشيء شعورياً مرة ثانية (بعد أن كان لا شعورياً)، فإن هذا العلاج لا يقصر نشاطه على الحقائق الغريزية داخل اللاشعور عند الفرد، ولكنه يهتم أيضاً بالحقائق المعنوية (الروحية) مثل تحقيق

(1) hidden logos.

"إمكانـــات المعنى"[1] لوجوده، وكذلك إرادة المعنى عنده. ومع ذلك، فإن أي تحليل حتـــى حين يمسك عن تضمين البعد المعنوي أو الروحي في عمليته العلاجية، فإنه يحاول أن يجعل المريض واعياً بما هو تواق إليه بالفعل في أعماق كيانه.

إن الفـــرق الأساســـي بين العلاج بالمعنى وبين التحليل النفسي هو أن العلاج بالمعنـــى يعتبر الإنسان كائناً ينصب اهتمامه الرئيسي على تحقيق المعنى وتحقيق القيم، بدلاً من أن يهتم بمجرد إرضاء أهوائه وإشباع حوافزه وغرائزه، أو بدلاً من أن يهتم بمجرد إحداث المصالحة بين المطالب المتصارعة التي يفرضها الهو والأنا والأنا العليا، أو بدلاً من أن يهتم بمجرد المواءمة والتوافق مع المجتمع والبيئة.

(1) meaning potential.

الديناميات المعنوية

Noö-Dynamics

حقـــاً، إن بحث الإنسان عن المعنى وسعيه نحو تحقيق القيمة ربما يثير توتراً داخلـــياً بدلاً من أن يؤدي إلى اتزان داخلي. ومع ذلك، فإن هذا التوتر هو بالضبط المتطلب الذي لابد منه للصحة النفسية. وإني لأتجرأ بالقول، أنه لا يوجد شيء في الدنـــيا يمكـــن أن يساعد الإنسان بفاعلية على البقاء حتى في أسوأ الظروف، مثل معـــرفته بـــأن هناك معنى في حياته. وفي ذلك تنطوي كلمات "نيتشه" على حكمة عظـــيمة: "إن من عنده سبباً لأن يعيش من أجله، فإنه غالباً يستطيع أن يتحمل في ســـبيله بـــأي شكل من الأشكال". وأستطيع أن أرى في هذه الكلمات شعاراً يصدق علـــى أي عـــلاج نفـــسي. في معسكرات الاعتقال النازية، يمكن أن نشهد (وهذه الـــشواهد قد أكدها أيضاً الأطباء النفسيون الأمريكيون سواء في اليابان أو كوريا) علـــى أن الأشـــخاص الذين كانوا يعرفون بأن هناك مهمة تنتظر منهم أن يقوموا بتحقيقها، هم أولئك الذين كانوا أكثر ميلاً إلى البقاء.

وبالنـــسبة لي، فحين جرى إعتقالي بمعسكر آوشويتز، صادرت السلطات لي مخطوطاً لكتاب كان في سبيله إلى النشر[1]. ولاشك، أن اهتمامي العميق بكتابة هذا المخطوط من جديد قد أعانني على البقاء وسط أهوال المعسكر. فعلى سبيل المثال، حين شعرت أنني كنت مريضاً بحمى التيفوس أخذت أدون على قصاصات صغيرة من الورق ملاحظات كثيرة قصدت بها أن تمكنني من إعادة كتابة المخطوط، آملاً أن أعـــيش إلى اليوم الذي يطلق فيه سراحي. وإني لعلى يقين بأن إعادة تأليف هذا المخطـــوط المفقـــود في الثكنات المظلمة لمعسكر الاعتقال في بافاريا قد ساعدتني على التغلب على خطر الانهيار.

ومـــن ثم يمكن أن نرى أن الصحة النفسية تستند إلى درجة من التوتر – التوتـــر بين ما أنجزه الفرد بالفعل وما لا يزال عليه أن ينجزه، أو الفجوة بين واقـــع الفرد وما ينبغي أن يصير عليه. ذلك التوتر كامن في الوجود الإنساني وبالتالـــي فـــلا غنى عنه بالنسبة للصحة النفسية. وينبغي إذن ألا نتردد في أن نضع أمام الإنسان تحديات عليه أن يواجهها بما عنده من معان كامنة عليه أن

---

(١) ذلـــك هـــو الشكل الأول لكتابي الأول الذي نشر ترجمته الإنجليزية "الفريد نوف" Alfred A.Knopf عام ١٩٥٥ في نيويورك تحت عنوان: "الطبيب والروح: مقدمة في العلاج بالمعنى".

(The doctor and the soul: An introduction to logotherapy)

يحققها. فكل ما نفعله في هذه الحالة هو أن نستدعي إرادة المعنى عنده من حالة كمونها.

واعتبـر أنه لتصور خاطئ وخطير للصحة النفسية ذلك الزعم بأن ما يحتاجه الإنسان في المحل الأول هو "التوازن"(١)، أو كما يعرف بمصطلح "استعادة الاتزان"(٢)، في البيولوجيا، أي حالة اللاتوتر". فليس ما يحتاجه الإنسان حقيقة هو حالة اللاتوتر ولكنه يحتاج إلى السعي والاجتهاد في سبيل هدف يستحق أن يعيش من أجله. فالإنسان لا يحتاج إلى التخلص من التوتر بأي ثمن، ولكنه يحتاج إلى استدعاء إمكانات المعنى – ذلك المعنى الذي يُنتظر أن يقوم بتحقيقه.

إن ما يحتاجه الإنسان ليس استعادة الاتزان ولكن ما أسميه بمصطلح "الديناميات المعنوية". ففي مجال التوتر – يتمثل أحد قطبيه في المعنى اللازم تحقيقه، ويتمثل القطب الآخر في الإنسان الذي ينبغي أن يقوم بتحقيقه، ولا يجوز أن نعتقد أن هذا يصدق على الحالات السوية دون غيرها؛ ولكنه يصدق أكثر على الأشخاص العصابيين. فإذا أراد مهندسون معماريون تقوية قنطرة متداعية للسقوط، فإنهم يزيدون من الحمل الذي يوضع عليها، لأن الأجزاء بهذه الوسيلة تترابط مع بعضها بشكل أكثر تماسكاً. ومن ثم، فإذا أراد معالجون تعزيز الصحة النفسية عند مرضاهم، فإنهم ينبغي ألا يخافوا من زيادة ذلك الحمل من خلال إعادة توجه الفرد نحو معنى حياته.

والآن، وبعد أن أوضحنا ذلك التأثير المفيد لـ "التوجه نحو المعنى"(٣)، أنتقل إلى التأثير الضار لذلك الشعور الذي يشكو منه مرضى كثيرون في هذه الأيام، وأعني به الشعور الكلي والمطلق بـ "اللامعنى"(٤) لحياتهم. فأشخاص كهؤلاء يعوزهم الإحساس أو الشعور بمعنى يستحق أن يعيشوا من أجله. وهم يعانون من خبرة فراغهم الداخلي – من خواء وفجوة بداخل نفوسهم؛ وأنهم بذلك يصيرون مقيدين مأسورين داخل ذلك الموقف الذي أُطلق عليه مصطلح "الفراغ الوجودي".

---

(1) equilibrium.

(2) homéostasis.

(3) meaning orientation.

(4) meaninglessness.

الفراغ الوجودي
The Existential Vacuum

الفـــراغ الوجودي ظاهرة واسعة الانتشار في هذا العصر. وتلك ظاهرة يمكن تفـــسيرها وفهمهـــا؛ إذ يمكن إرجاعها إلى فقدان ذي شقين، مما كان محتوماً على الإنسان أن يمر به منذ أن أصبح كائناً بشرياً بحق. ففي بداية التاريخ الإنساني، فَقَد الإنـــسان بعـــض الغرائـــز الحيوانية الأساسية مما يكمن فيه سلوك الحيوان ومما يستـــشعر الحيوان بواسطته الأمن والطمأنينة. وهذا الأمان، كالجنة، قد أُغلق بابها فـــي وجـــه الإنـــسان إلى الأبد؛ وصار على الإنسان أن يأتي باختيارات. إلا أنه، بالإضـــافة إلى ذلك، فقد عانى الإنسان من فقدان آخر في تطوره الحديث، ويتمثل هـــذا فيما يجري الآن بسرعة كبيرة من تناقص في الاعتماد على التقاليد التي أدت إلى دعم سلوكه. فليس هناك من غريزة ترشده إلى ما عليه أن يفعله، ولا من تقليد يوجهه إلى الطريقة التي يتخذها في سلوكه وأفعاله؛ وسوف لا يعرف عما قريب ما يـــرغب فيه أو ما يريد أن يفعله. ومن ثم، سوف يخضع أكثر وأكثر إلى تحكم ما يـــريده الآخـــرون منه أن يفعله، وبالتالي سوف يقع بشكل متزايد فريسة للمسايرة والامتثال.

لقـــد أجـــرى تلاميذي بقسم الأعصاب في "مستشفى فيينا البوليكينيكي" دراسة مـــسحية إحـــصائية مستعرضة على المرضى والهيئة التمريضية. وقد كشفت هذه الدراســـة عن أن ٥٥% من الأشخاص المستفتين قد أظهروا بدرجات متباينة درجة واضـــحة مـــن الفـــراغ الوجـــودي. وبعـــبارة أخرى، فإن أكثر من نصف هؤلاء الأشخاص قد خَبِروا فقداناً للشعور بأن الحياة ذات معنى.

ويكشف هذا الفراغ الوجودي عن نفسه أساساً في حالة الملل. هنا نستطيع أن نفهـــم مقولة "شوبنهاور" بأن الإنسانية قد حُكم عليها بشكل واضح بأن تتأرجح إلى الأبـــد بـــين طـــرفين: أحدهما الضيق أو الكدر، وثانيهما الملل أو السأم. وقد سبب الملل في واقع الأمر مشكلات تحتاج إلى حل أكثر مما تحتاجه مشكلات الضيق أو الكـــدر؛ وقـــد خلـــق هذا بدوره من غير شك مشكلات أكثر أمام الأطباء النفسيين. وهذه المشكلات تتطور حدتها بشكل متزايد، وذلك لأنه من المحتمل أن يؤدي تقدم الـــنظام الآلـــي إلـــى زيادة هائلة في أوقات الفراغ بالنسبة للشخص العادي. ومن المؤسف أن أشخاصاً كثيرين سوف لا يعرفون ماذا يفعلون بكل أوقات فراغهم مما سيتوافر لهم حديثاً.

والآن فلنفكر، على سبيل المثال، فيما يعرف بمصطلح "عُصاب يوم الراحة الأسبوعية"[١]، وهو نوع من الاكتئاب يصيب الأشخاص الذين يصيرون واعين بما ينقص حياتهم من مضمون حينما ينتهي اندفاع الأسبوع المزدحم بالمشاغل ويصبح الفراغ بداخل نفوسهم جلياً. وفي ذلك يمكننا أن نتتبع حالات الانتحار، وهي ليست بقليلة، ونردها إلى هذا الفراغ الوجودي. كذلك لا نستطيع فهم ظاهرات منتشرة، مثل الإدمان وجناح الأحداث، دون أن نتعرف على الفراغ الوجودي الكامن وراءها. كما أن هذا يصدق على الأزمات التي يخبرها المسجونون في معاقلهم والمسنون في شيخوختهم.

وهناك علاوة على ذلك، أقنعة مختلفة ومظاهر متعددة يبدو بها الفراغ الوجودي. ففي بعض الأحيان يكون هناك تعويض لإرادة المعنى المُحْبَطة بإرادة القوة، بما في ذلك الشكل الأكثر بدائية لإرادة القوة وهو إرادة المال. وفي حالات أخرى، تحل إرادة اللذة محل إرادة المعنى المُحْبَطة. وهذا هو السبب في أن الإحباط الوجودي ينتهي غالباً بالتعويض الجنسي. ونستطيع أن نلاحظ في تلك الحالات، أن اندفاع الطاقة الجنسية يصبح متفشياً في حالات الفراغ الوجودي.

ونجد أموراً مماثلة في الحالات العصابية. فهناك أنماط معينة من آليات التغذية الراجعة وتكوينات الدائرة المفرغة سوف نتطرق إليها فيما بعد. إلا أنا نستطيع أن نلاحظ من وقت لآخر أن هذا "البحث في الأعراض المرَضية"[٢] قد اجتاح الفراغ الوجودي، الذي استمر في الازدهار فيه. وعند مرضى كهؤلاء، لا يكون ما نتناوله عصاباً معنوياً. ومع ذلك، فإننا لا ننجح في مساعدة المريض على التغلب على حالته، إذا لم نستكمل العلاج النفسي بعلاج بالمعنى. فلكي نملأ الفراغ الوجودي عند المريض، ينبغي وقايته من انتكاسات أخرى. ومن ثم، فإن العلاج بالمعنى لا يتضح كما أشرنا في حالات العصاب معنوي المنشأ فقط، ولكنه يتضح أيضاً في حالات العُصاب نفسي المنشأ، وبخاصة في حالات العصاب النفسجسمي (أو كما يُعرف أحياناً بمصطلح "العصاب الكاذب"[٣]). وفي ذلك تصدق عبارة "ماجدة آرنولد" من أن "أي علاج، بصرف النظر عن محدداته، ينبغي أن يكون بشكل ما علاجاً بالمعنى"[٤].

والآن فلنفكر فيما يمكن أن نفعله إذا كان المريض يسأل عن معنى حياته.

---

(١) يطلق على هذا الشكل من أشكال المرض النفسي "عصاب يوم الأحد" (Sunday neurosis).

(2) symptomatology

(3) pseudo-neurosis

(4) Magda G.Arnold& John A. Gasson: The Human Person. New Yourk: Ronald Press, 1954. p. 618

معنى الحياة

أني لأشك فيما إذا كان طبيب يستطيع الإجابة عن هذا السؤال بعبارات عامة. ويـــرجع ذلك إلى أن معنى الحياة يختلف من شخص لآخر، وعند الشخص الواحد من يوم ليوم، ومن ساعة إلى أخرى. إذن، فإن ما يشغل بالنا ليس هو معنى الحياة بـــصفة عامـــة، ولكن الذي يهمنا هو المعنى الخاص للشخص عن الحياة في وقت معـــين. فوضـــع السؤال في عبارات عامة أشبه بسؤال نوجهه إلى بطل من أبطال الـــشطرنج حـــين نطلب منه أن يعين أفضل حركة أو أفضل طريقة في العالم لنقل قطـــع الـــشطرنج. والجواب ببساطة أنه لا يوجد مثل ذلك الشيء كحركة أفضل أو حتـــى كحركة جيدة دون أن تكون ذات علاقة بموقف معين في مباراة معينة ودون أن تكون ذات علاقة بالشخصية المميزة للاعب الخصم.

يصدق ذلك أيضاً على الوجود الإنساني. لذا ينبغي ألا نبحث عن معنى مجرد للحـــياة. فلكـــل فرد مهنته الخاصة أو رسالته الخاصة في الحياة التي تفرض عليه مهامـــاً محـــددة علـــيه أن يقوم بتحقيقها. وفي ذلك لا يمكن أن يحل شخص محل شـــخص آخر، كما أن حياته لا يمكن أن تتكرر. ومن ثم، تعتبر مهمة أي شخص في الحياة مهمة فريدة مثلما تعتبر فرصته الخاصة في تحقيقها فريدة كذلك.

فطالما أن كل موقف في الحياة يمثل تحدياً للإنسان كما يمثل مشكلة بالنسبة له تـــتطلب مـــنه أن يسعى إلى حلها، فإن السؤال عن معنى الحياة قد يصبح غير ذي موضـــوع مـــن الناحية الواقعية. وأخيراً، ينبغي ألا يسأل الإنسان عن معنى حياته وإنمـــا على الشخص أن يدرك أنه هو الذي يُوَجَّهُ السؤال إليه. وباختصار، فإن كل إنـــسان يجري سؤاله بواسطة الحياة نفسها؛ وأنه لا يستطيع أن يجيب إلا إلى الحياة وذلـــك عن طريق الإجابة عن حياته ذاتها؛ فهو يستطيع أن يستجيب إلى الحياة عن طـــريق الإفصاح عن مسئوليته والتعبير عنها. وهكذا، فإن العلاج بالمعنى يرى في "الالتزام بالمسئولية"[١] الجوهر الحقيقي للوجود الإنساني.

---

(1) responsibleness.

الالتزام بالمسئولية جوهر الوجود

إن التأكــيد علـــى الالتزام بالمسئولية جزء لا يتجزأ من العلاج بالمعنى، وهو يمـــثل لذلك ضرورة ومطلباً علاجياً، وهذا ما توضحه العبارة التالية: "وهكذا تعيش كما لو أنك كنت تعيش بالفعل للمرة الثانية وكما لو أنك قد عملت على نحو خاطئ في المرة الأولى مثلما تفعل الآن!". ويبدو لي أنه لا يوجد شيء يستطيع أن يستثير إحـــساس الفرد بالالتزام بالمسئولية أكثر من هذا المبدأ، الذي يدعوه إلى أن يتخيل أولاً أن الحاضـــر مـــاض، وثانياً، أن الماضي ربما يخضع أيضاً للتغير والتحسن. وتلك قاعدة سلوكية تواجه الإنسان بما في الحياة من تناه وكذلك بما فيها من نهائية مما يحققه لحياته ولنفسه على حد سواء.

إن العـــلاج بالمعنـــى يحـــاول أن يجعل المريض واعياً كل الوعي بالتزامه بمسئوليته؛ ولذلك يجب أن نترك له حرية اتخاذ القرار بشأن إدراكه لنفسه كشخص مسئول يتحمل مسئوليته باختياره لأهدافه في الحياة. ذلك هو السبب في أن المعالج بالمعنـــى هو آخر من يتوق من بين كل المعالجين النفسيين إلى فرض أحكام قيمية علـــى المريض، لأنه لا يسمح أبداً للمريض بأن يوكل إلى المعالج مسئولية إصدار الأحكام واتخاذ القرارات.

إنهـــا لمهمة المريض إذن أن يقرر ما إذا كان عليه أن يفسر مهام حياته على أســـاس كـــونه مـــسئولاً أمـــام المجتمع أو أمام ضميره. إلا أن الغالبية من الناس يعتبـــرون أنفـــسهم مسئولين ومحاسبين أمام الله سبحانه وتعالى؛ وهم بذلك يمثلون أولـــئك الأشخاص الذين لا يفهمون حياتهم على أساس المَهَمة المقررة لهم فحسب ولكنهم يفهمونها أيضاً في ضوء ما يقرره السادة ممن يكلفونهم بهذه الأعمال.

ولـــيس العلاج بالمعنى تعليماً ولا وعظاً، فهو بعيد عن التفكير المنطقي وبعيد كـــذلك عن النصائح الأخلاقية. فالدور الذي يلعبه المعالج بالمعنى، إذا تكلمنا بشكل مجـــازي، أقرب إلى دور الطبيب أخصائي العيون منه إلى الرسام: فالرسام يحاول أن ينقل إلينا صورة عن العالم كما يراها هو، في حين أن طبيب العيون يحاول أن يمكنـــنا من أن نرى العالم كما هو في الواقع. وعلى هذا النحو، يتحدد دور المعالج بالمعنى بمد المجال البصري للمريض وتوسيعه لكي يصبح المريض واعياً بالمجال الكلي للمعنى وما ينطوي عليه من قيم ويكون قادراً على رؤيته والتبصر به.

فالعلاج بالمعنى ليس بحاجة إذن إلى أن يفرض أي أحكام على المريض، لأن الحقيقة تفرض نفسها بالفعل ولا تحتاج في الواقع إلى تدخل أو وساطة.

وحـين نعلـن أن الإنـسان مخلوق مسئول، وينبغي أن يحقق المعنى الكامن لحـياته، أود أن أؤكد على أن المعنى الحقيقي للحياة إنما يوجد في العالم الخارجي أكثـر ممـا هو في داخل الإنسان أو في تكوينه النفسي ذاته، كما لو أننا في نظام مغلق. ويعني ذلك أن الهدف الحقيقي للوجود الإنساني لا يمكن أن يوجد فيما يسمى بتحقـيق الذات. فالوجود الإنساني هو بالضرورة سمو للذات وتجاوز لها أكثر من أن يكـون تحقيقاً للذات. وتحقيق الذات ليس هدفاً ممكناً على الإطلاق؛ وذلك لسبب بسيط وهو أنه بقدر ما يسعى الإنسان إليه، بقدر ما يخفق في الوصول إليه. ولكن، إلـى الحد الذي يلتزم فيه الإنسان بتحقيق معنى لحياته، فإنه بهذا الحد أيضاً يحقق ذاتـه. وبعبارة أخرى، لا يمكن التوصل إلى تحقيق الذات إذا جعله الشخص كغاية في حد ذاته، ولكن يكون هذا ممكناً إذا نظر إليه كأثر جانبي لتسامي الذات فحسب.

فـلا يجوز أن نعتبر العالم الخارجي كمجرد تعبير عن ذات الفرد. كما أنه لا يجـوز أن نعتبـر العالم كمجرد أداة، أو كوسيلة لغاية تحقيق الفرد لذاته. في كلتا الحالتين، تتحول "النظرة إلى العالم"(١)، إلى "انتقاص من قدر هذا العالم"(٢).

إلـى هـنا نكون قد أوضحنا أن معنى الحياة يتغير دائماً، ولكنه لا يتوقف أبداً عـن أن يكون موجوداً. ووفقاً للعلاج بالمعنى، نستطيع أن نكتشف هذا المعنى في الحـياة بـثلاث طرق مختلفة:(١) بواسطة الإتيان بفعل وعمل،(٢) بواسطة أن نَخْبُر قـيمة مـن القيم،(٣) وبواسطة أن نعيش حالة من المعاناة. بالنسبة للطريقة الأولى، وهـي طريقة التحقيق أو الإنجاز، فهي واضحة تماماً، أما الطريقة الثانية والثالثة، فهما بحاجة إلى مزيد من الإيضاح.

تتمـثل الطـريقة الثانية للتوصل إلى معنى للحياة في أن يَخْبُر الفرد شيئاً ما، كعمل من الأعمال المتصلة بالطبيعة أو الثقافة، وكذلك في أن يَخْبُر شخصاً ما، أي بواسطة الحب.

---

(1) Weltanschauung

(2) Weltantwertung

معنى الحب

الحب هو الطريقة الوحيدة التي يدرك بها الإنسان كائناً إنسانياً آخر في أعمق أغــوار شخصيته. فلا يستطيع إنسان أن يصبح واعياً كل الوعي بالجوهر العميق لشخص آخر إلا إذا أحبه. فبواسطة الفعل الروحي للحب، يتمكن الإنسان من رؤية الــسمات والمعــالم الأساسية في الشخص المحبوب؛ بل إن الإنسان يرى أكثر من ذلــك، مــا هــو كامن في الآخر؛ يرى ما ينبغي أن يتحقق مما لم يتحقق فيه بعد. وعــلاوة علــى ذلك، فإن الشخص المحب بحبه إنما يمكن الشخص المحبوب من تحقــيق إمكاناته، فبواسطة تبصيره ليكون على وعي بما يمكن أن يكون عليه وبما ينبغي أن يصير عليه، إنما يجعل مما كان كامناً من هذه الإمكانات حقيقة واقعة.

ونحــن لا نفــسر الحب، وفقاً للعلاج بالمعنى، على أنه مجرد ظاهرة ثانوية مصاحبة[١] للحوافز والغرائز الجنسية في ضوء ما يعرف بالإعلاء. ذلك أن الحب ظاهــرة أولــية أساســية شأنها شأن الجنس. والجنس، من الناحية السوية، أسلوب للتعبيــر عــن الحب. فالجنس تعبيراً مُبْرَأً من الإثم، بل إنه تعبير مقدس، طالما أنه أداة للحب. لذا لا يُفهم الحب على أنه مجرد أثر جانبي للجنس، ولكن يُفهم على أنه طريقة للتعبير عن الخبرة بتلك "المعية القصوى"[٢] التي تسمى بالحب.

أما الطريقة الثالثة للتوصل إلى معنى في الحياة، فتتمثل في المعاناة.

---

(1) epiphenomenon

الظاهرة الثانوية المصاحبة، وهي التي تحدث كنتيجة لظاهرة أولية أساسية.

(2) Ultimate togetherness

معنى المعاناة

حينما يجد شخص نفسه في موقف لا مفر منه، وحينما يكون على شخص أن يواجه مُقَدراً لا يمكن تغييره، كأن يكون مرضاً عضالاً مثل السرطان – عندئذ فقط يكون أمام الشخص فرصة أخيرة لتحقيق القيمة العليا، لتحقيق المعنى الأعمق وهو معنـى المعاناة. والمهم فوق كل ذلك، هو الاتجاه الذي نأخذه نحو المعاناة والاتجاه الذي نجعل به معاناتنا فوق أنفسنا.

ولأستشهد بمثال واضح: لجأ إليَّ ذات مرة طبيب متقدم في العمر كان يعمل ممارساً عاماً وكان حضوره طلباً للاستشارة بسبب ما كان يعانيه من اكتئاب شديدة. ذلك أنه لم يستطع أن يتغلب على مشكلة فقدانه لزوجته التي ماتت منذ عامين والتي كان يحبها فوق كل شيء في هذه الدنيا. والآن سألت نفسي كيف يمكن أن أساعده؟ وما الذي عليَّ أن أقوله له؟ رأيت أن أحجم عن أن أقول له أي شيء، وإنما واجهته بالسؤال التالي: "دكتور، ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أنك توفيت أنت أولاً، وأن زوجتك ظلت باقية على قيد الحياة بعد وفاتك؟" قال الطبيب بنبرة تعكس إحساسه بالدهشة والألم: "كان هذا سيكون لها أمراً رهيباً للغاية، إذ كانت ستحس باللوعة والمعاناة!" عندئذ أجبت: "هكذا ترى، يا دكتور، أنها كانت ستعيش تلك الآلام وهذه المعاناة، وأنك أنت الذي عشت من أجلها تتحمل المعاناة، وعليك الآن أن تضحي من أجلها بالبقاء وبتقديس ذكراها". ولم ينطق الزائر بكلمة واحدة ولكنه صافحني وانصرف بهدوء. إن المعاناة تتوقف عن أن تكون معاناة بشكل ما في اللحظة التي تكتسب فيها المعاناة معنى، مثل معنى التضحية.

ومن الطبيعي، أن هذا لم يكن علاجاً بالمعنى الصحيح، طالما أن يأس الزائر – أولاً – لم يكن مَرَضاً، وثانياً، لأني لا أستطيع أن أُغَيِّر من قدره، لأني لا أستطيع أن أعيد الحياة لزوجته. لكني في تلك اللحظة قد نجحت في تغيير اتجاهه نحو قدره غير القابل للتغيير، حيث أنه قد صار منذ ذلك الوقت فصاعداً قادراً على الأقل على أن يرى معنى في معاناته.

وهكذا، فمن المبادئ الأساسية للعلاج بالمعنى أن الاهتمام الرئيسي عند الإنسان لا يكون هو الحصول على اللذة أو تجنب الألم، وإنما يكون بأن يرى معنى في حياته. وهذا هو السبب في أن الإنسان مستعد للمعاناة، شريطة أن يكون لمعاناته معنى.

ولا حاجة بنا للقول بأن المعاناة لا يكون لها معنى إلا إذا كانت ضرورية، ولا غنى عنها على الإطلاق؛ ففي حالة مرض السرطان مثلاً إذا كان من الممكن علاجه عن طريق عملية جراحية فلا يجوز أن يتحمل المريض قسوة المعاناة سيراً بها في طريق الآلام نحو خاتمة محتومة، فليس في هذا أي بطولة وإما هو مجرد "ماسوكية" أو تعذيب للذات. أما إذا كان الطبيب لا يستطيع أن يعالج المرض ولا أن يخفف من آلام المريض، فإنه ينبغي أن يستخدم مقدرة المريض على تحقيق معنى لمعاناته. وفي ذلك نجد أن العلاج النفسي التقليدي يهدف إلى إحياء مقدرة الشخص على العمل وعلى الاستمتاع بالحياة؛ في حين أن العلاج بالمعنى وإن كان يتضمن كل هذا، إلا أنه يمضي إلى ما هو أبعد منه وذلك عن طريق جعل المريض يستعيد – إذا لزم الأمر – مقدرته على المعاناة، وبالتالي يجد معنى حتى في المعاناة.

وفي هذا الصدد تعلن "إديث فيسكوف – جولسون"، أستاذة علم النفس بجامعة بيردو، بقوة في مقالتها عن العلاج بالمعنى[١]، أن "فلسفتنا المعاصرة عن الصحة النفسية تؤكد الفكرة بأن الناس ينبغي أن يكونوا سعداء، وبأن انعدام السعادة عَرَضْ من أعراض سوء التكيف، وبأن نظاماً قيمياً كهذا ربما يكون مسئولاً عن الحقيقة بأن عبء عدم السعادة مما لا مفر منها يتزايد بواسطة عدم السعادة الناجمة عن كون الفرد غير سعيد". وفي دراسة أخرى تعبر هذه العالمة النفسية عن أملها في أن العلاج بالمعنى "ربما يساعد على إيقاف اتجاهات غير صحية معينة موجودة في الثقافة المعاصرة للولايات المتحدة الأمريكية، حيث لا تتاح أمام الشخص المتألم إلا فرصة ضئيلة للغاية لكي يكون فخوراً بمعاناته وكي يعتبرها مدعاة للفخار وليست مدعاة للخزي، لأنه بالإضافة إلى كونه غير سعيد فإنه فوق هذا يشعر بالخزي والعار من كونه غير سعيد"[٢].

وهناك مواقف قد يُحرم فيها الإنسان من فرصة مزاولته لعمله أو من الاستمتاع بحياته؛ ولكن الذي لا يمكن استبعاده أبداً هو حتمية المعاناة. فإذا تقبلنا تحدي المعاناة بشجاعة، كان للحياة معنى حتى اللحظة الأخيرة، وتحتفظ الحياة بقوة بهذا المعنى حتى النهاية. وبعبارة أخرى، فإن معنى الحياة هو معنى مطلق غير مشروط لأنه يتضمن كذلك المعنى الكامن للمعاناة.

---

(1) Edith Weisskopf – Joelson: "Some comments on a Viennese School of Psychiatry. The Journat of Abnormal and Social Psycology, 51, 701-703, 1955.

(2) Edith Weisskopf-Joelson: Logotherapy and existential analysis. Acta Psychotherapy, 6, 193-204, 1958.

وأذكــر بالمناسبة تلك الخبرة التي ربما كانت أعمق خبرة عشتها في معسكر الاعــتقال. إذ لــم يزد عدد الأشخاص الذين بقوا على قيد الحياة في المعسكر عن واحــد مــن كــل عشرين شخصاً، كما يمكن التحقق من ذلك بسهولة عن طريق الإحــصاءات الدقيقة. وقد بدى بالنسبة لي أنه من غير الممكن حتى إنقاذ المخطوط الخاص بكتابي الأول والذي خبأته في معطفي حينما وصلت إلى معسكر آوشويتز. لــذا، كــان علـــيَّ أن أتحمل فقدان إبني الروحي وأن أتغلب على هذه المحنة. وقد ترائى لي في ذلك كما لو أنه لن يبقى لي في هذه الحياة أي شيء أو أي شخص؛ لا إبــن بالجسد ولا ابن بالروح! وهكذا كان عليّ أن أواجه السؤال المهم وهو ما إذا كانت حياتي تحت تلك الظروف لها معنى أم خالية من المعنى تماماً.

لــم ألاحــظ حينذاك أن إجابة على هذا السؤال الذي كنت أتصارع معه بعنف كانــت مختزنة بالفعل عندي، وأنه سرعان ما سأتوصل إلى هذه الإجابة فيما بعد. هــذه كانت حياتي حينما كان عليّ أن أسلم ملابسي، وأن أرث بدلاً منها خرقاً بالية لنـــزيل أرســلوه بالفعــل إلى حجرة الإعدام بالغاز فور وصوله إلى محطة السكك الحديديـــة فـــي آوشويتز. وبدلاً من الصفحات الكثيرة لمخطوطي، عثرت في جيب المعطف الذي أخذته حديثاً على صفحة واحدة ممزقة تحوي بعض الصلوات. كيف أقــوم بتفسير هذه الصدفة على أنها تحد لكي أعيش أفكاري بدلاً من مجرد وضعها على الورق؟

وأتذكر أنه بعد فترة وجيزة، بدى لي أني سأموت في المستقبل القريب. إلا أنه فـــي هذا الموقف الحاسم، كان اهتمامي مختلفاً عن اهتمامات معظم زملائي. فكان السؤال الذي يعنيهم: "هل سنبقى أحياءً بعد المعسكر؟ لأنه، إذا لم يكن الأمر كذلك، فكــل هذه المعاناة بلا معنى". أما السؤال الذي كان يشغلني أنا، فهو: "هل لكل هذه المعانـــاة، ولهذا الموت من حولنا، معنى؟ لأنه، إذا لم يكن الأمر كذلك، فلن يكون هــناك معنـــى للبقاء، لأن الحياة التي يتوقف معناها على تلك الأحداث العارضة – مــثل ما إذا كان السجين سوف يهرب من المعسكر أم لا – لا تكون جديرة بالعيش على الإطلاق".

المشكلات الإكلينيكية الكبرى

Meta - Clinical Problems

يواجه الطبيب، بشكل متزايد، بالسؤالين التاليين: ما الحياة؟ وما المعاناة برغم كـــل شيء؟ والواقع أن أغلب المرضى الذين يستشيرون الطبيب النفسي يواجهونه بمشكلات إنسانية أكثر مما يواجهونه بأعراض عصابية. وكثيرون ممن يعرضون أنفـــسهم علـــى الطبيب النفسي كانوا في الماضي يلجأون إلى أحد رجال الدين؛ إلا أنهـــم الآن يرفضون غالباً أن يسلموا أنفسهم لرجل دين، وبذلك نجد الطبيب النفسي يواجَهُ الآن بمشكلات فلسفية أكثر مما يواجه بصراعات انفعالية.

المسرحيات النفسية القائمة على العلاج بالمعنى [(١)]
(اللوجودراما)

أود أن أستـــشهد بالمثال التالي: ذات مرة، حُولت إلى عيادتي سيدة بعد إقدامها علـــى محاولة للانتحار، وكانت أُمًّا لولد توفي عن عمر يناهز الإحدى عشر عاماً. دعاهـــا زميلـــي الدكتور "كوكوريك" لكي تنضم إلى مجموعة علاجية. وجدت أني دخلت إلى حجرة العيادة التي يجري فيها علاج بالمسرحيات النفسية. وكانت حينئذ تحكـــي قصتها – فقالت أنها عند موت ولدها، تُركت وحيدة مع ولد آخر أكبر منه ســـناً، وكـــان كسيحاً يعاني من شلل الأطفال. وكان هذا الولد المسكين يتنقل على كرســـي متحرك. إلا أن الأم قد تمردت ضد قدرها. ولكنها حين حاولت أن تنتحر مع إبنها، كان هذا الإبن الكسيح هو الذي منعها من أن تفعل ذلك، ذلك أنه أحب أن يبقـــى على قيد الحياة! فلقد ظلت الحياة، بالنسبة له، ذات معنى. ولماذا لم تكن هكذا بالنـــسبة لأمه؟ كيف يمكن أن يظل لحياتها معنى؟ وكيف نستطيع أن نساعدها على أن تصبح واعية بهذا المعنى؟

اشـــتركت فـــي المناقـــشة بطـــريقة ارتجالية، وأخذت أسأل سيدة أخرى في المجمـــوعة. سألتها كم عمرها؛ فأجابت: "ثلاثين عاماً". قلت لها: "لا، ليس عمرك ثلاثـــين عاماً ولكنه ثمانون عاماً ثم أنك ترقدين على فراش الموت. والآن عليك أن تعـــودي بذهنك إلى ماضي حياتك – كانت حياتك، رغم أنها ذاخرة بالنجاح المادي والمركـــز الاجتماعي، إلا أنها كانت خالية من أطفال لك". ثم دعوتها إلى أن تتخيل شـــعورها في هذا الموقف. "ماذا ستفكر في هذا الموقف؟ ما الذي ستقوله لنفسها؟". ولأقتبس ما قالته بالفعل من واقع شريط جرى تسجيله أثناء تلك الجلسة. "عجباً، لقد تـــزوجت من مليونير؛ وكانت حياتي سهلة ذاخرة بالثروة، وأخذت أعبُّ من الحياة! صرت أداعب الرجال وأعذبهم! لكن عمري الآن، ثمانون عاماً، وليس لدى أطفال. وأني الآن لأنظر إلى حياتي الماضية كإمرأة طاعنة في السن، ولا أستطيع أن أرى مـــن أجلِ ماذا كانت كل حياتي. وفي الواقع، أن حياتي كما ينبغي أن أقول، كانت خيبةً وفشلاً!".

بعـــد ذلك دعوت أم الولد الكسيح لكي تتخيل نفسها، كما فعلت السيدة الأولى، تعـــود بذاكـــرتها إلـــى حياتها الماضية. ولنستمع إلى ما قالته كما هو مسجل على

---

(1) Logodrama

الــشريط: "لقــد كنت أتوق إلى أن يكون عندي أطفال، وقد تحققت هذه الرغبة لي، ورزقت بولدين: ولكن ولداً منهما قد توفى، وكان الآخر ولداً كسيحاً كان ينبغي أن أرســله إلى إحدى المؤسسات لأنى إذا لم أكن أهتم برعايته. ولكن رغم أنه كسيح وعاجــز، إلا أنـــه ولدي قبل كل شيء. لذا كان عليّ أن أوفر له حياة مكتملة طيبة ملائمـــة لـــه؛ وأن أجعل منه كائناً إنسانياً أفضل". عند هذه اللحظة، انفجرت السيدة بالدمـــوع والــبكاء، واســتمرت تقول: "بالنسبة لي، أستطيع أن أجول بذاكرتي في حياتـــي الماضـــية برضاء وقناعة وسلام – لأني أستطيع أن أقول أن حياتي كانت ذاخـــرة بالمعنى، وأني قد حاولت جاهدة تحقيق هذا المعنى فيها؛ لقد بذلت قصارى جهـــدي – لقـــد بذلك كل ما في جهدي في سبيل ولدي. فلم تكن حياتي فشلاً!" لقد كانـــت تنظـــر إلى حياتها كما لو كانت تنظر إليها من على فراش الموت؛ ولكنها صارت فجأة قادرة على أن ترى معنى في حياتها يتضمن حتى كل معاناتها. وعلى هـــذا الـــنحو، صار واضحاً كذلك أن حياة قصيرة الأمد كحياة ولدها المتوفي على ســـبيل المـــثال، يمكن أن تكون بالنسبة إليها غنية بالبهجة والحب، وأن هذه الحياة يمكن أن تتضمن معنى أكثر من حياة استمرت ثمانين عاماً.

وانـــتقلت بعـــد فتـــرة وجيزة إلى سؤال آخر، مخاطباً المجموعة ككل. وكان موضـــوع الـــسؤال عـــن القرد الذي يُستخدم في تجارب للتوصل إلى مصل لشلل الأطفال، وعن أنه لهذا السبب يتعرض للهلاك مراراً، وعما إذا كان للقرد أن يكون قـــادراً على أن يدرك معنى لمعاناته. وبالإجماع، أجابت المجموعة بأن القرد ليس في مقدوره ذلك بطبيعة الحال، فبسبب إدراكه المحدود القاصر لا يستطيع أن يدخل فـــي عـــالم الإنـــسان، وهو العالم الوحيد الذي يمكن فيه إدراك المعاناة وفهمها. ثم مـــضيت قدماً بالسؤال التالي: "وماذا عن الإنسان؟ وهل أنتم متأكدون من أن العالم الإنـــساني مـــرحلة نهائـــية في تطور الكون؟ ألا ترون أنه لا يزال يوجد بُعد آخر ممكـــن، وهـــو عالم ما وراء عالم الإنسان – وهو عالم نجد فيه إجابة على السؤال الخاص بالمعنى الغائي للمعاناة الإنسانية.

المعنى الغائي
The Supra-Meaning

يـــتجاوز المعنى الغائي بالضرورة ما لدى الإنسان من إمكانات عقلية محدودة ويـــسمو علـــيها؛ وحـــين نتكلم عن العلاج بالمعنى في هذا السياق، فإننا نتكلم عن المعنـــى الغائـــي. وليس المطلوب من الإنسان أن يتحمل ما في الحياة من لا معنى كمـــا يـــذهب بعـــض الفلاسفة الوجوديين، ولكن المطلوب أن يتحمل عجزه وعدم مقدرتـــه عـــن إدراك غنـــى المعنى وامتلاء الحياة بالمعاني[١] إدراكاً رشيداً بلغة عقلانية منطقية. فالمعنى أعمق من المنطق[٢].

إن الطبـــيب النفـــسي الذي يتجاوز مفهوم المعنى الغائي، يجد نفسه مرتبكاً إن آجلاً أو عاجلاً مع مرضاه وعملائه على نحو أشبه بما حدث لي حينما وجهت لي إبنتـــي التي تبلغ من العمر ستة أعوام السؤال التالي: "لماذا نتكلم عن الإله الطيب؟" قلـــت لهـــا: "مـــنذ عدة أسابيع، كنت تعانين من الحصبة، ثم بعث إليك الإله الطيب بالشفاء التام". لكن الطفلة الصغيرة لم تكن مقتنعة بل ردت على تلك الإجابة بمثلها: "حسناً، ولكن لا تنسى من فضلك يا أبي: أنه هو الذي أرسل الحصبة لي".

ولكـــن حينما يكون المريض واقفاً على أرض صلبة من الاعتقاد الديني، فلا يمكن أن يكون هناك اعتراض بشأن الاستفادة من التأثير العلاجي لمعتقداته الدينية مما ينبع من المصادر الروحية ويعتمد عليها؛ ولكي يفعل ذلك، فإن الطبيب النفسي قـــد يضع نفسه في مكان المريض. وهذا، على سبيل المثال، هو ما فعلته بالضبط ذات مـــرة، حيـــنما جاءني رجل من رجال الدين وحكى لي قصته: لقد فقد زوجته الأولـــى وأطفالهمـــا الـــستة في معسكر الاعتقال في آوشويتز حيث جرى إعدامهم بالغـــاز. أمـــا زوجـــته الثانـــية فقد كانت عاقراً. وقد صرحت في هذا الصدد، أن الإنجـــاب لـــم يكـــن المعنى الوحيد للحياة، لأن الحياة ذاتها سوف تصبح عندئذ بلا معنـــى، وأن الشيء الذي يكون في حد ذاته بلا معنى لا يمكن إرجاع المعنى إليه لمجـــرد اســـتبقائه وحفظه. إلا أن، رجل الدين هذا قد قيّم ورطته كشخص متزمت علـــى أساس من اليأس، فقد سيطر عليه وراعه أن لا يوجد إبن له يتلو عليه صلاة الموتى بعد موته.

---

(1) Meaningfulness.

(2) Logos is deeper than logic.

لكني لم أتخل عن ذلك الموقف؛ فقد قمت بمحاولة أخيرة لمساعدته عن طريق سؤاله عما إذا كان يأمل أن يرى أولاده مرة ثانية في السماء. أعقب سؤالي انفجاره بالبكاء والدموع، وبدا جلياً السبب الحقيقي ليأسه: لقد أوضح أن أطفاله، منذ أن ماتوا كشهداء أبرياء، يستحقون الجنة، ولكن بالنسبة لنفسه فإنه لا يتوقع، كرجل مسن متورط في الخطيئة، أن يحظى بنفس المكانة. لم أكتف بذلك بل رددت عليه بحجة أخرى: "أليس من المعقول أن يكون هذا بالضبط هو معنى بقائك حياً بعد أبنائك، بحيث أنك سوف تتطهر خلال سنوات المعاناة هذه، لكي تصبح في النهاية أيضاً، رغم أنك لست بريئاً مثل أطفالك، مستحقاً للحاق بهم في الجنة؟ لذا، فإن أي معاناة من معاناتك لن تذهب هباءً". ولأول مرة منذ سنوات كثيرة لقي ارتياحاً من معاناته من خلال النظرة الجديدة التي استطعت أن أُبَصّره بها.

زوال الحياة

هناك أشياء يبدو أنها تنتزع المعنى من الحياة الإنسانية؛ ومن بين هذه الأشياء المعانـــاة وفقدان الحياة، كما أن من بينها الضيق والكدر والموت. وأني لا أَكَلُّ أبداً مـــن القول بأن الجوانب الوقتية القابلة للزوال من الحياة في الحقيقة هي الإمكانات الكامـــنة لـــدى الإنـــسان؛ غير أنها حالما تتحقق، فإنها تصير في تلك اللحظة ذاتها حقائق واقعية؛ وبذلك يتم إنقاذها ويتم تسليمها للماضي، حيث تكون صيانتها وتكون المحافظـــة علـــيها مـــن الزوال. فلا شيء يضيع في الماضي بطريقة يتعذر معها استرداده، بل إن كل شيء يُحفظ فيه ويُصان بطريقة تتعذر معها إزالته أو محوه.

لـــذا، فـــإن زوال وجودنا لا يحتم أن يجعل وجودنا هذا بلا معنى، لكنه يحدد التـــزاماتنا بالمسئولية واستعدادنا لتحملها؛ ذلك أن كل شيء يتوقف على تحقيقنا لما عـــندنا من إمكانات مؤقتة سمتها الأساسية أنها قابلة للزوال. ويسعى الإنسان دائماً ليقرر اختياراته المتعلقة بذلك القدر الهائل من الإمكانات الحالية – فمنها ما سيذهب إلى الانتهاء والعدم ومنها ما سوف يتحقق ويعيش؟ وهناك من الاختيارات ما يصير حقـــيقة إلى الأبد، "كأثر قدم أبدي على رمال الزمان"! فينبغي أن يقرر الإنسان في كل لحظة، ما سيتركه من أثر لوجوده وذكريات لحياته، سواء أكانت آثاراً حسنةً أم سيئةً، وذكريات عطرة أو بغيضة.

ولا ريـــب، أن الإنـــسان يهتم عادة بالمجال السطحي من الزوال دون غيره، وبذلك يغفل الماضي بما فيه من مخزونات هائلة، حيث أنقذ أفعاله ومباهجه وكذلك معاناتـــه وحـــيث صانها. ولا شيء من الماضي يمكن إزالته ومحوه كما لا يمكن عمل شيء بمعزل عن الماضى. وهنا ينبغى أن أقول أن الوجود الواقعي هو النوع الأرسخ للوجود.

وإذا كـــان العـــلاج بالمعنى يضع في اعتباره أن قابلية الزوال للوجود ظاهرة حتمية،فلـــيس معنـــى هذا أنه اتجاه تشاؤمي ولكنه اتجاه فعَّال واقعي. ولكي نوضح هـــذه الـــنقطة بشكل مجازي يمكننا القول: إن المتشائمين شأنهم شأن الشخص الذي يراقب نتيجة الحائط أو التقويم المعلق على الحائط بشيء من الخوف والحزن حين يراها تتناقص إذ ينزع منها ورقة في كل يوم يمر عليه يوماً من أيام عمره، وبهذا تتضاءل نتيجة الحائط ويرى عمره يتضاءل معها. ومن ناحية أخرى، فإن الشخص الـــذي يتصدى لمشكلات الحياة بفاعلية هو أشبه بالشخص الذي يزيل كل ورقة من نتيجـــته ويـــضبرها بدقة ويحفظها بعناية بعيداً مع مثيلاتها من أوراق سابقة، وذلك

بعـــد أن يدون خلفها بعض المذكرات اليومية. وهو يستطيع أن يفكر ملياً باعتزاز وبهجـــة فـــي كـــل النفائس الغنية التي تتضمنها هذه المذكرات، في كل الحياة التي عاشها بالفعل إلى الحد الأكمل. وما الذي يشغل باله إذا لاحظ أنه آخذ في التقدم في الـــسن؟ هل لديه أي سبب لكي يحسد الشباب صغير السن الذي يراه، أو يتوق حنيناً إلى شبابه الذي ولَّي؟ ما هي الأسباب التي تجعله يحسد شاباً صغير السن؟ هل ذلك لأن الفـــرص المتاحة أمام الشاب تجعل المستقبل ذخراً له؟ عندئذ سوف يقول: "لا، أشكرك. فبدلاً من هذه الاحتمالات، فإن عندي في حياتي في الماضي حقائق واقعية – عـــندي حقـــيقة العمل الذي عملته، وحقيقة الحب الذي أحببته، وعندي فوق هذا وذاك، حقـــيقة المعانـــاة التي عانيتها. تلك هي الأشياء التي أشعر معها بأعظم فخر واعتزاز؛ وهذه هي الأشياء التي لا تستطيع أن تستثير حسد الناس أو حقدهم".

العلاج بالمعنى كأسلوب

إن الخـــوف الواقعـــي، كالخوف من الموت، لا يمكن تهدئته بواسطة تفسيره تفـــسيراً نفسياً – دينامياً؛ ومن ناحية أخرى، فإن الخوف العصابي (المرضى)، مثل رُهـــاب الأمـــاكن الفـــسيحة، لا يمكن علاجه بواسطة فهم فلسفي. إلا أن، العلاج بالمعنى قد طور أسلوباً خاصاً أو فنية خاصة لتناول تلك الحالات أيضاً. ولكي نفهم مـــا يجري حينما تُستخدم هذه الفنية، نتناول كنقطة انطلاق حالة نقابلها مراراً عند المرضـــى النفسيين، ونعني بها "القلق التوقعي"(١). فمما يميز هذا الخوف أنه يخلق تماماً ما يكون الفرد خائفاً منه(٢). فعلى سبيل المثال، الشخص الذي يكون خافاً من إحمرار وجهه عند دخوله حجرة كبيرة ومواجهته لأشخاص كثيرين، فسوف يحمر وجهـــه بالفعـــل. وفـــي هذا الصدد، يمكن تحويل العبارة التي تقول بأن "الرغبة أم الفكرة" إلى عبارة تقرر بأن "الخوف أبو الحدث".

وبـــنفس الطريقة التي يجلب بها الخوف إلى الشخص ما يخاف منه، فإن "النية القـــسرية أو القـــصد القـــسري"(٣) يجعل من المستحيل تحقيق ما يبتغيه الفرد قسراً واضـــطراراً. هذه النية المفرطة، أو كما أُطلق عليها مصطلح "فرط النية"(٤)، يمكن ملاحظـــتها خاصة في حالات العصاب الجنسي. فبقدر ما يحاول الرجل أن يظهر فحولـــته الجنـــسية، أو بقـــدر مـــا تحاول المرأة أن تستعرض قدرتها على الإمتاع الجنـــسي، بقـــدر مـــا تقل قدرتهما على تحقيق النجاح الذي يبتغيانه. فلابد للذة أن تكـــون، بل ينبغي أن تكون، أثراً جانبياً أو محصلة ثانوية؛ وهي تَفْسُد وتتبدد حين تغدو، وبقدر ما تغدو، كغاية في حد ذاتها.

وعـــلاوة علـــى النية المفرطة كما وصفتها عاليه، فإن الانتباه المفرط، أو كما يـــسمى بـــــ "فـــرط التفكـــر"(٥) في العلاج بالمعنى، قد يكون أيضاً مما يؤدي إلى المرض. ويوضح التقرير الإكلينيكي التالي ما أعنيه في هذا الصدد: شابة حضرت إلـــيَّ تـــشكو مـــن بـــرودها الجنسي. وقد أوضح تاريخ الحالة أنها في طفولتها قد تعرضـــت لبعض الاعتداء الجنسي من أبيها. ومع ذلك، فإن هذه الخبرة لم تكن في حـــد ذاتهـــا كمـــا يبدو هي مصدر الخبرة الصدمية التي تمخضت في النهاية عن

---

(1) anticipatory anxiety

(٢) يقول المثل العامي المصري: "اللي يخاف من العفريت يطلع له".

(3) forced intention

(4) "hyper-intention"

(5) hyper-reflection

عــصابها الجنــسي. فهذه الحالة قد تحولت، من خلال قراءة الكتابات الشائعة عن التحلــيل النفــسي، إلـــى أن هذه المريضة قد عاشت كل الوقت في التوقع المخيف للــضريبة التــي ســتدفعها يوماً ما جزاء خبرتها الصدمية. وقد تمخض هذا القلق التوقعــي عن نية مفرطة لتأكيد أنوثتها، وكذلك عن انتباه مفرط متمركز حول ذاتها بــدلاً مــن أن يكــون متمركزاً حول قرينها. وكان في هذا ما يكفي لتعويق قدرة المــريض على الوصول إلى الخبرة الذروية للذة الجنسية وذلك لأن الشبق الجنسي قــد صـــار موضع النية وموضوع الانتباه على حد سواء، بدلاً من أن يظل نتيجة غيــر مقــصودة لاهــتمام غير مقصود بالشريك. وبعد أن خضعت لعلاج بالمعنى قــصير المــدى، تخلت عن تفكيرها المصحوب بانتباهها وعزمها المفرطين بشأن قــدرتها علـــى أن تَخْبُر ذروة الإمتاع الجنسي. فحينما جرت إعادة تركيز انتباهها نحو الموضوع الملائم، وهو الشريك، أقر الإمتاع الجنسي نفسه تلقائياً[١].

واســتناداً إلـــى هذه الحقيقة ذات الشقين، بأن الخوف يجلب إلى الشخص في الحقــيقة مـــا يخـــاف منه وبأن فرط النية يحول دون تحقيق الفرد لما يبتغيه، يقيم العـــلاج بالمعنـــى طريقته التي تعرف بفنية القصد ظاهري التناقض[٢]. وفقاً لهذه الطــريقة تجــري دعوة المريض بالرُهاب (الفوبيا) لكي ينوي عن قصد، حتى ولو لدقيقة فقط، على ذلك الذي يخيفه على وجه التحديد.

والآن، فلأوضح بشرح إحدى الحالات: لجأ اليّ طبيب شاب طلباً لاستشارتي بسبب خوفه من التَعَرُّق. فحينما يتوقع تصبب العرق منه، فإن هذا القلق التوقعي كـــان كافــياً للاسراع بإفراز العرق. ولكي أقطع الطريق أمام تكوين هذه الدائرة المفرغة نصحت المريض، في حالة عودة تصبب العرق، بأن يعتزم بصدق على أن يظهر للناس مقدار العرق الذي يتصبب منه. بعد أسبوع عاد ليقرر أنه حينما كـــان يلتقـــي بـــأي شـــخص يفجـــر فـــيه قلقـــه التوقعي، كان يقول لنفسه: "لقد تصببت عرقاً بمقدار قليل فقط من قبل، ولكني الآن سوف أتصبب بمقدار كبير!" وكانت النتيجة أنه، بعد المعاناة من خوفه المرضي لمدة أربع سنوات كاملة، كان قـــادراً بعـــد جلسة واحدة على أن يحرر نفسه نهائياً من هذا الرُهاب في غضون أسبوع واحد.

---

(١) لعـــلاج حالات العنة الجنسية، فإن طريقة معينة في العلاج بالمعنى قد تطورت، استناداً إلى نظريتنا الخاصة بفرط النية وفرط التفكـــر كمـــا أشرنا إلى ذلك عاليه. ومن الطبيعي، أنه في هذا العرض الموجز لمبادئ العلاج بالمعنى، لا يتسع المجال لتناول هذا الأسلوب بتفصيلاته.

(2) "paradoxical intention"

يلاحـــظ القارئ أن هذا الإجراء يقوم على إبدال اتجاه المريض بعكسه، وذلك بقـــدر ما يجري إحلال "الرغبة ظاهرية التناقض" محل خوفه. بهذا العلاج، يجري تخليص القلق مما يعززه، وبعبارة أخرى يجري تخليص أشرعة القلق من الرياح.

ومـــع ذلك، فإن مثل هذا الإجراء ينبغي أن يفيد من المقدرة الإنسانية المتميزة الخاصة بالتحرر الذاتي[١] الكامن في روح المرح عند الإنسان. فقدرة الإنسان على أن يتحرر من نفسه هي قدرة إنسانية أساسية؛ ويكشف عنها وينميها استخدام طريقة العـــلاج بالمعنـــى المعروفة بمصطلح "طريقة القصد ظاهري التناقض". وفي نفس الـــوقت، يـــتمكن المريض من أن يضع نفسه في موقع يعلو به فوق عصابه. وفي ذلـــك تصدق عبارة نجدها في كتاب "جوردون أولبورت" (الفرد ودينه)[٢]، مفادها: "أن الـــشخص العـــصابي الذي يتعلم أن يضحك على نفسه قد يكون في سبيله إلى ضـــبط ذاتـــه وعلاجها، وربما إلى الشفاء". وطريقة "القصد ظاهري التناقض" هي الصدق التجربي الإمبيريقي والتطبيق الإكلينيكي لعبارة أولبورت.

ويمكـــن أن نـــستخدم مزيداً من تقارير بعض الحالات لمزيد من إيضاح هذه الطريقة. وفيما يلي حالة لمريض: كان يعمل كاتب حسابات، وقد تلقى علاجاً على أيـــدي أطباء كثيرين وفي عيادات مختلفة دون أي نجاح في العلاج. وحينما حضر إلـــى عيادتـــي، كان في حالة يأس مفرط، معترفاً بأنه كان على وشك الإقدام على الانتحار. ولعدة سنوات كان يعاني من ظاهرة مرضية تعرف بـــ "عُقال الكاتب"[٣]، اشـــتدت عليه حديثاً بحيث صار في خطر من فقدان وظيفته. لذا فإن علاجاً مباشراً قصير المدى يمكن أن يخفف من الموقف. عند بداية العلاج أوصاه مساعدي بأن لا يفعل إلا عكس ما كان يفعله عادة؛ فبدلاً من أن يحاول الكتابة بدقة ووضوح، عليه أن يكـــتب بأســـوأ نمـــط ممكن من الكتابة. ونصحناه بأن يقول لنفسه: "الآن سوف أظهر للناس كيف أني كاتب جيد ولكن رديء الخط!" وفي اللحظة التي حاول فيها عامـــداً أن يكـــتب بغير عناية، كان عاجزاً عن أن يفعل ذلك. ففي اليوم التالي قال لي: "لقد حاولت الكتابة بغير عناية وبخط رديء، ولكني ببساطة لم أستطع أن فعل ذلـــك". وفـــي خلال ثمان وأربعين ساعة تخلص المريض بهذه الطريقة من "عقال

(1) self-detachment

(2) G.W.Allport: The individual and his Religion. New York: The Mackmillian Co. 1956, p. 92.

(٣) writer's cramp، وهـــو تـــشنج مـــؤلم في عضلات اليد والأصابع ينتج عادة عن مقاومة لا شعورية ذات علاقة بالإفراط في الكتابة وتجعل صاحبها يبرر إحجامه عنها.

الكاتــب". وظــل مُبــراً من هذه الظاهرة أثناء فترة الملاحظة التي خضع لها بعد العلاج. والآن هو شخص سعيد مرة أخرى، وقادر تماماً على العمل.

وثمــة حالــة أخــرى، تــتعلق بالكلام وليس بالكتابة، أحالها اليّ زميل بقسم أمــراض الحنجــرة بالمستــشفى البوليكلينيكي. تلك كانت أشد حالات اللجلجلة في الكــلام مما قابله زميلي في سنوات عمله الكثيرة. لم يحدث في حياة هذا الشخص المــتلجلج أبداً، بقدر ما يتذكر ذلك، أن كان مُبْراً من اضطرابه الكلامي، حتى ولو لمــدة دقــيقة، عــدا مرة واحدة. حدث ذلك عندما كان في الثانية عشر من عمره، وحاول ركوب سيارة دون أن يدفع ثمن التذكرة. وحينما أمسك به محصل الأجرة، إعــتقد أن الطريقة الوحيدة التي يتخلص بها من هذا الموقف هي أن يستدر عطف المحصل وشفقته، ولذا حاول أن يوضح أنه ولد مسكين يتلجلج في الكلام. وفي ذلك الوقت الذي حاول فيه أن يتلجلج، لم يكن قادراً على أن يفعل ذلك. وفي الواقع، أنه قــد مــارس، وبــدون قصد، طريقة "القصد ظاهري التناقض" رغم أن هذا لم يكن لأغراض علاجية.

ومــع ذلــك، فــإن ما عرضنا له من حالات ينبغي ألا يترك فينا انطباعاً بأن طــريقة "القــصد ظاهري التناقض" طريقة فعالة في علاج "الحالات ذات العَرَض الــواحد"[١] دون غيــرها. ذلك أنه بواسطة استخدام هذه الطريقة من طرق العلاج بالمعنــى، نجح مساعدي بمستشفى فيينا البوليكلينيكي في علاج حالات الوسواس – القهــري[٢]، بل كذلك والحالات المزمنة والأشد درجة من هذه الأمراض النفسية. وفي ذلك أشير، على سبيل المثال، إلى حالة سيدة كانت تناهز الخامسة والستين من العمــر، وقــد ظلــت تعانــي لفترة ستين سنة من أفعال قسرية تتمثل في وساوس الاغتــسال. وكانــت هــذه الأفعــال القسرية من الشدة بحيث أني توقعت أن القيام "بجــراحة فَصّية"[٣] هو الإجراء المتيسر الوحيد لعلاج حالتها. إلا أن أحد مساعدي قــد بدأ معها علاجاً بالمعنى بواسطة طريقة القصد ظاهري التناقض. وبعد مضى شهرين، كانت هذه السيدة قادرة على أن تزاول حياتها العادية.

ولقد اعترفت قبل ترددها على العيادة: "أن الحياة بالنسبة لها جحيم لا يطاق". وكــان من نتيجة أفعالها القسرية ووساوس الرُهاب من الميكروبات[٤]، أن أعيقت

---

(1) monosymptomatic cases.

(2) obsessive-compulsion.

(٣) lobotomy – جراحة تجري في فصوص المخ الجبهية.

(4) bacterio-phobic obsession.

تماماً وبذلك كانت في النهاية تلازم الفراش طيلة اليوم عاجزة عن أن تقوم بأى عمل من أعمال المنزل. ولا نستطيع القول على وجه الدقة أنها الآن قد برأت من هذه الأعراض، لأن الوساوس قد تراود عقلها مرة أخرى. ومع ذلك، فهي قادرة على "أن تضحك عليها" كما تقول؛ وباختصار، فهي قادرة على تطبيق طريقة القصد ظاهري التناقض.

يمكن أيضاً تطبيق طريقة "القصد ظاهري التناقض" على حالات اضطرابات النوم. فالخوف من الأرق[١] يتمخض عن فرط النية في أن يخلد الإنسان إلى النوم؛ وهذه النية المفرطة بدورها تجعل المريض غير قادر على النوم. للتغلب على هذا الخوف، أنصح المريض عادة بألا يحاول أن ينام ولكن عليه بالأحرى أن يحاول أن يفعل العكس، أي أن يظل يقظاً لأطول فترة ممكنة. وبعبارة أخرى، فإن فرط النية في الخلود إلى النوم ينشأ من القلق التوقعي؛ ذلك أن الإصرار المفرط على النوم يعني أن الشخص سوف يعجز عن أن يخلد إلى النوم، ولهذا ينبغي أن يحل محله طريقة "القصد ظاهري التناقض" بألا يخلد إلى النوم، مما سيؤدي إلى حلول النوم في الحال.

تثبت طريقة "القصد ظاهري التناقض" أنها أداة مفيدة في علاج حالات الوسواس – القهري والمخاوف المرضية (الرُهاب)، وخاصة تلك الحالات التي يكمن وراءها القلق التوقعي. وعلاوة على ذلك، فهي أسلوب علاجي قصير المدى. ومع ذلك، فلا يجوز أن نخلص إلى نتيجة بأن ذلك العلاج قصير المدى يتمخض بالضرورة عن آثار علاجية وقتية فحسب. وفي ذلك نجد أن "أحد الأوهام الشائعة عن المدرسة الفرويدية الكلاسيكية – كما يقرر إميل جوثيل Emile A. Gutheil – هي أن استمرار فاعلية النتائج يتفق مع طول فترة العلاج"[٢]. ومع ذلك، فإني أجد في سجلاتي،على سبيل المثال، تقريراً عن حالة مريض استخدمت معه طريقة "القصد ظاهري التناقض" منذ أكثر من عشرين عاماً؛ ومع ذلك، فإن الأثر العلاجي قد أثبت استمراره وبقاءه عند هذه الحالة.

ومن الحقائق البارزة أن "طريقة القصد ظاهري التناقض" طريقة فعالة بصرف النظر عن مصدر العلة (الإتيولوجيا) وأساسها في الحالة موضوع العلاج.

---

(١) يرجع الخوف من الأرق، في معظم الحالات، إلى عدم معرفة المريض بالحقيقة بأن الكائن الحي (الأورجانزم) يزود نفسه بالحد الأدنى من مقدار النوم الذي يحتاجه في الواقع.

(2) American Journal of Psychotherapy, 10: 134, 1956.

يؤكد ذلك ما يقرره "اديث فييسكوف جولسون"[١]: "رغم أن العلاج النفسي التقليدي يصر على أن الممارسات العلاجية ينبغي أن تستند إلى نتائج البحث في مصدر العلة (الإتيولوجيا)[٢]، فإنه من الممكن أن تكون هناك عوامل معينة تؤدي إلى العصاب إبان فترة الطفولة المبكرة، في حين أن ثمة عوامل مختلفة تماماً قد تؤدي إلى علاج العصاب إبان فترة الرشد".

فما يعتبر غالباً على أنه سبب للعصاب، ونعني به العقد النفسية والصراعات والصدمات، هو في بعض الحالات عَرَض للعصاب أكثر من أن يكون سبباً له. إن الحيد البحري (سلسلة صخور قرب سطح الماء) الذي يظهر في حالة المد المنخفض ليس بكل تأكيد هو سبب المد المنخفض؛ ولكن الواقع أن المد المنخفض هو الذي يسبب ظهور الحيد البحري. والآن، ماذا نعني بمرض الانقباض السوداوي (الميلانخوليا) إن لم يكن نوعاً من المد الانفعالي المنخفض؟ مرة أخرى، إن مشاعر الذنب التي تظهر على نحو نمطي في أشكال "الاكتئاب داخلي المنشأ"(٣) (والذى ينبغي ألا يختلط بالأشكال العصابية للاكتئاب!) ليست هي السبب لهذا النمط الخاص من الاكتئاب؛ ولكن العكس هو الصواب، فبقدر ما يؤدى هذا المد الانفعالي المنخفض إلى جعل مشاعر الذنب تظهر على سطح الوعي؛ فإن هذا المد الانفعالي المنخفض هو الذى يدفع هذه المشاعر إلى الأمام.

أما بالنسبة للتعليل الحقيقي للأمراض النفسية، بصرف النظر عن العناصر التكوينية، سواء أكانت جسمية أم نفسية من حيث طبيعتها، فإن آليات التغذية الراجعة كالقلق التوقعي تبدو على أنها العامل الأكبر الذي يكمن وراء هذه الأمراض النفسية ويُوجِدها. فَالعَرَض يُستجاب إليه في شكل خوف مرضي (رُهاب)، والخوف المرضي يفجر العَرَض، والعرض بدوره يدعم الخوف المرضي. ويمكن أيضاً أن نلاحظ سلسلة مماثلة من الأحداث في حالات الوسواس – القهري، التي فيها يحارب المريض الأفكار التي تستحوذ عليه[٤]. وهو بذلك يزيد من قوتها على إحداث الاضطراب فيه، طالما أن الضغط يُعَجِّلُ بإحداث ضغط

---

(1) "Some Comments on a Viennese School of Psychiatry", The Journal of Abnormal and Social Pscyhology,51, 701-703, 1955.

(2) Etiology.

(3) endogenous depressions.

(٤) ينشط هذا غالباً نتيجة لخوف المريض من أن وساوسه تدل على مرض عقلي وشيك الوقوع أو حتى مرض عقلي حقيقي؛ والمريض بذلك غير واع بالحقيقة الإمبيريقية بأن عصاب الوسواس – القهري يقيه ضد مرض عقلي شكلي، أكثر مما يعرضه للخطر في هذا الاتجاه.

مضاد. وبذلك، يتدعم العَرَض مرة ثانية! ومن ناحية أخرى، حالما يتوقف المريض عــن محاربة وساوسه ويحاول بدلاً من ذلك أن يهزأ منها بواسطة تناولها بطريقة ســاخرة، أي بواسطة تطبيق طريقة "القصد ظاهري التناقض"، فإن الدائرة المفرغة تتكــسر وتتفك، وبذلك يتضاءل العَرَض وينقص وفي النهاية ينمحي. وفي الحالات المحظوظة، حيث لا يوجد فراغ وجودي يستدعي العَرَض ويستثيره، فإن المريض ســوف لا يــنجح فحــسب في السخرية من خوفه العصابي ولكنه سوف ينجح في النهاية في تجاهل رُهابه تجاهلاً كلياً.

وكمــا نرى، فإن القلق التوقعي ينبغي أن يخضع لفعل مضاد بواسطة "القصد ظاهــري التــناقض"؛ أمــا فرط النية وفرط التفكر فينبغي أن يُعَرَّضا لفعل مضاد بوســاطة "خفــض التفكــر"[١]. ومع ذلك، فإن خفض التفكر يكون في النهاية غير ممكــن إلا إذا قــام على أساس "إعادة توجه"[٢] المريض نحو عمله أو مهنته ونحو رسالته في الحياة"[٣].

وعلى ذلك، فإن الاهتمام الذاتي عند المريض النفسي، سواء أكان هذا الاهتمام فــي شــكل شفقة أو أسف أو في شكل ازدراء، ليس هو الذي يكسر تكوين الدائرة المفــرغة؛ وإنمــا السبيل إلى الشفاء هو الالتزام الذاتي واضطلاع الفرد بمسؤولية نفسه[٤].

---

(1) dereflection.

(2) reorientation.

(٣) يــؤيد هذا المبدأ ما يقرره "أولبورت" من أنه "كلما انتقل مركز الاهتمام والسعي من الصراع إلى أهداف غير ذاتية selfless goals، فإن الحياة ككل تصبح أكثر سلامة رغم أن العصاب ربما لا يختفي كلية".

(4) self-commitment.

العُصاب الجمعي

The Collective Neurosis

لكـل عـصر عُصَابه الجمعي الخاص؛ لذا كان كل عصر بحاجة إلى علاجه النفـسي الخاص لمواجهة عصابه. وفي ذلك يمكن وصف الفراغ الوجودي، الذي هـو العـصاب الجمعي المميز للعصر الحالي، على أنه شكل خاص وشخصي من أشكال "العَدَمية"[١]، التي يمكن تعريفها على أنها الاعتقاد بأن الوجود منعدم المعنى أو لا معنـى لـه. أمـا بالنسبة للعلاج النفسي فسوف لا يكون في مقدوره مع ذلك مـواجهة هـذه الحالـة علـى نطاق جماعي إذا لم يحتفظ بنفسه متحرراً من تأثير الاتجاهـات المعاصـرة للفلسفة العَدَمية، وإلا فإن العلاج النفسي ذاته سوف يمثل عَرضَـاً للعـصاب الجمعي أكثر من أن يكون العلاج المحتمل له. كما أن العلاج النفـسي لا يعكس الفلسفة العدمية فحسب، ولكنه ينقل إلى المريض، دون أن يقصد ودون أن يـدرك، صـورة كاريكاتورية عن الإنسان أكثر من أن ينقل إليه صورة حقيقية.

فهـناك، أولاً وقـبل كـل شـيء، خطورة كامنة في الأخذ بمذهب "العَدَمية المـشروطة"[٢] للإنسان، وهي تلك النظرية التي تذهب إلى أن الإنسان لا شيء إلا نتـيجة للظروف البيولوجية والنفسية والاجتماعية، أو هو نتاج الوراثة والبيئة. فمن شأن تلك النظرة إلى الإنسان أن تجعل منه كائناً آلياً، وليس كائناً إنسانياً. ومن شأن هـذه "القَدَرية العُصابية"[٣] أن تتكون وتتقوى بواسطة العلاج النفسي الذي ينكر أن الإنسان حر.

ولا ريـب فـي أن الكائن الإنساني هو شيء متناه، وأن حريته مقيدة، وليست هذه الحرية تحرراً من الظروف، ولكنها حرية اتخاذ موقف إزاء هذه الظروف. فلا شك أني لا أجد نفسي مسؤولاً عن الحقيقة بأن لدى شعر أشيب، ولكني أعتبر نفسي مـسؤلاً عـن الحقـيقة بأني لا أذهب إلى الحلاق لكي يصبغه لي مثلا، كما تفعل السيدات. فهناك إذن قَدْر معين من الحرية متروك لكل شخص، حتى ولو كان هذا القَدْر قاصراً على اختياره للون شعره.

---

(1) nihilism.

(2) nothingbutness.

(3) neurotic fatalism.

نقد الحتمية الشمولية

يـوجه اللـوم غالـباً إلـى التحليل النفسي على ما يعرف بالمنحنى الجنسي الـشمولي[١]. وإني بالأصالة عن نفسي لأشك فيما إذا كان هذا اللوم مشروعاً. ومع ذلك، ثمة شيء يبدو لي على أنه افتراض أكثر مغالطة وخطورة، ألا وهو ما أطلق علـيه مصطلح "الحتمية الشمولية"[٢]، وأعني بذلك تلك النظرة إلى الإنسان مما لا تـضع فـي الاعتبار مقدرته على أن يتخذ موقفاً إزاء أى ظرف مهما كان الحال. فالإنـسان لـيس مشروطاً أو محتوم السلوك بصورة كلية ولكنه يقرر نفسه سواء استـسلم كـاملاً للظروف أو اتخذ بشأن هذه الظروف موقفاً. فالإنسان يقرر لنفسه مـدى الغاية التي ينشدها، فهو "المقرر لنفسه"[٣] – وهذا هو جوهره. فالإنسان ليس ببـساطة أمراً موجوداً، ولكنه يقرر دائماً وجوده الذي سيكون عليه، ويقرر ما الذي سوف يصير إليه في اللحظة التالية.

وقياسـاً إلـى ذلك، فإن لكل كائن إنساني حريته في أن يتغير في كل لحظة. ولـذا، فإنه لا يمكننا التنبؤ بمستقبله إلا داخل الإطار الواسع لمسح إحصائي يشمل جماعـة كلـية. ومع ذلك، فإن الشخصية الفردية تظل في أساسها غير قابلة للتنبؤ بهـا. فالأسـاس لأي تنـبؤات ينبغي أن يتحدد بالشروط البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعـية. إلا أن إحدى الخصائص الأساسية للوجود الإنساني هي مقدرته على أن يرقى فوق تلك الظروف أو الشروط ويتجاوزها أو يسمو عليها. وبنفس الطريقة يـتجاوز الإنسان نفسه أو يسمو بها في النهائية. فالكائن الإنساني هو كائن يتجاوز ذاته أو يسمو بذاته[٤].

والآن، يمكننـي أن استشهد بحالة الدكتور "ج". لقد كان هذا هو الرجل الوحيد الـذي قابلته في كل حياتي، والذي تجرأت على أن أسميه بالكائن "المفيستوفيلي"[٥]، أي الـشيطان. كـان يطلـق عليه في ذلك الوقت بصفة عامة اسم "قاتل شتاينوف بالجملـة"، وشـتاينوف هو المستشفي الكبير للأمراض العقلية في فيينا. حينما بدأ النازيون "برنامج القتل الرحيم"[٦]، أمسك بكل الخطوط في يديه، وكان متعصباً في

---

(1) pan-sexualism.
(2) pan-determinism.
(3) self - determining.
(4) self - transcending being.
(٥) Mephistopheles: وهو أحد الشياطين السبعة الرئيسيين في أساطير العصور الوسطى.
(٦) Eutanasia Programme: برنامج نازي للتخلص ممن يشكو بمرض عضال عن طريق القتل الخال من الألم.

المهمـــة المـــوكلة إليه بحيث أنه حاول ألا يدع مريضاً عقلياً واحداً ينجو من غرفة الإعـــدام ..... وبعد الحرب، عندما عدت إلى فيينا، وبعد أن نجوت بنفسي من هذا الإعـــدام فى معسكر آوشويتز، سألت عما حدث للدكتور ج. فقالوا لي: "أنه قد ألقي فـــي الـــسجن على أيدي الروس في إحدى زنزانات العزل في مستشفى شتاينوف. وفـــي اليوم التالي لسجنه ظهر باب زنزانته مفتوحاً ولم نعد نرى الدكتور "ج" مرة ثانـــية. وقد اقتنعت فيما بعد، مثل غيري، بأنه قد استطاع بمساعدة زملائه الهرب إلـــى أمريكا الجنوبية. إلا أنه حدث أن لجأ إلى استشارتي دبلوماسي نمساوي سابق كـــان قد سجن وراء الستار الحديدي لسنوات كثيرة، أولاً في سيبيريا، ثم في سجن ليوبلـــيانكا المـــشهور في موسكو. وبينما كنت أفحصه عصبياً، سألني فجأة عما إذا كـــان قـــد حـــدث بالصدفة أن تعرفت على الدكتور ج. وبعد إجابتي بالتأييد استمر يقـــول: "لقد تعرفت عليه في سجن ليوبليانكا، حيث توفي عن عمر يناهز الأربعين مـــن ســـرطان فـــي المثانة. إلا أنه قبل موته، قد أثبت أنه أفضل زميل يمكن أن تتخـــيله! لقـــد كـــان يقدم السلوى والمواساة لكل شخص. وقضى حياته وفق أسمى معـــيار أخلاقـــي معـــنوي يمكن تصوره، وكان أحسن صديق قابلته أثناء سنواتي الطويلة في السجن!".

تلـــك هـــي قصة الدكتور ج، "قاتل شتاينوف بالجملة". فكيف يمكننا أن نجرؤ علـــى التنـــبؤ بـــسلوك إنسان! ربما تتنبأ بحركات ماكينة، بل أكثر من ذلك، ربما تحـــاول أن تتنبأ بآليات أو "ديناميات" النفس الإنسانية كذلك. ولكن الإنسان أكثر من نفس[1].

ومـــن الواضـــح أن الحتمية الشمولية مرض معد أصاب المربين؛ كما أنه قد أصـــاب الكثير من المدافعين عن الدين ممن هم على غير وعي بأنهم بهذه الطريقة يقوضـــون الأساس الحقيقي لمعتقداتهم. فإما الاعتراف بحرية الإنسان في أن يتخذ قـــراراً بالتقـــرب إلى الله أو التباعد عنه، وكذلك إما الاعتراف بحرية الإنسان في اتخـــاذ قـــرار لصالح الإنسان أو ضده، وإلا فإن الدين يكون خدعة، وتكون التربية وهماً. فالحرية تتقرر بكليهما؛ وإلا فإنهما عرضة لسوء الفهم.

ومـــع ذلك، فإن التقويم الحتمي الشمولي يؤكد أن الحياة الدينية للفرد مشروطة بالقـــدر الـــذي تعـــتمد فيه على خبرات الطفولة المبكرة، وأن مفهوم الله عند الفرد يـــتوقف على صورة الأب عنده. وخلافاً لهذه النظرة، فمن المعروف جيداً أن ابن السكير لا يكون بالضرورة هو نفسه سكيراً؛ وعلى هذا النحو أيضاً، فإن الإنسان قد

---

(1) Man is more than psyche.

يقـــاوم التأثير الضار للصورة البشعة للأب ويقيم علاقة سليمة مع الله. بل أن أسوء صورة للأب لا تمنع الفرد من أن يقيم علاقة طيبة مع الله؛ وإنما الصحيح أن الحياة الدينية العميقة تزود الإنسان بما يعاونه في التغلب على كراهيته لوالده. ونجد على العكـــس مـــن ذلك، أن الحياة الدينية الضعيفة لا تُعْزى بالضرورة في كل حالة إلى عوامل نمو في الفرد من طفولته[١].

فعـــندما نفـــسر الدين على أنه مجرد نتاج لديناميات نفسية، في ضوء عوامل دافعـــية لا شـــعورية، فإنـــنا نضل السبيل ونفقد البصيرة بظاهرة لها أصالتها ولها وجـــودها الحـــق. وبهذا الفهم الخاطىء يتحول علم نفس الدين ويصير في الغالب تـــصوراً لعلم النفس كدين. وقد حدث هذا بالنسبة لبعض مدارس علم النفس، وهي المـــدارس التي سعت إلى التأليه من علم النفس وطرحت عن طريقه تفسيرها لكل شيء ولكل ظاهرة.

(١) تكـــشف دراســـة مـــستعرضة إحصائية، قام بها زملائي ممن يساعدونني في مستشفى فيينا البوليكلينيكي، أن حوالي ثلث المرضـــى الذين خبروا صورة إيجابية عن الأب قد ابتعدوا عن الدين في حياتهم فيما بعد؛ في حين أن معظم أولئك المرضى المفحوصين الذين كانت عندهم صورة سلبية عن الأب قد أمكنهم رغم ذلك تكوين اتجاه إيجابي نحو الأمور الدينية.

فلسفة الطب النفسي

ليس هناك ما يمكن تصوره من حيث تأثيره الحتمي في الإنسان أكثر من أن نتركه بدون أبسط درجة من درجات الحرية. ذلك أن بقية من بقايا الحرية، مهما كانت محدودة، تبقى للإنسان في الحالات العصابية وحتى الذهانية. ومعنى ذلك في الواقع، أن المحور الأعمق من شخصية المريض لا يتأثر حتى بالمرض العقلي. وبهذه المناسبة أتذكر شخصاً كان يبلغ من العمر ستين عاماً وكان يتردد عليَّ طلباً للعلاج بسبب هلوساته السمعية التي استمرت معه لسنوات طويلة. وقد وجدت نفسي حينذاك أمام شخصية محطمة. ذلك أن كل فرد في بيئته كان يعتبره معتوهاً. ومع ذلك، فإنه يصعب تصور ما كان يشع من هذا الشخص من فتنة خلابة ومن جمال راق! كان يود حينما كان طفلاً أن يكون رجل دين. ومع ذلك فقد كان راضياً بالبهجة الوحيدة التي كان يَخْبُرها، وهي اشتراكه في فرقة الإنشاد الديني بالكنيسة في صباح أيام الآحاد. والآن، تقول أخته التي صاحبته أنه في بعض الأحيان كان يصير متهيجاً وثائراً للغاية؛ إلا أنه في اللحظة الأخيرة يكون قادراً دائماً على أن يسترد ضبطه لذاته.

لقد صرت مهتماً بالديناميات النفسية الكامنة وراء الحالة، لأني اعتقدت أن عند هذا المريض تثبيت قوي على أخته؛ لذا سألت كيف تَأَتىَّ له أن يسترد ضبطه لذاته وسألته: "لأجل من تفعل ذلك؟" هنا كانت وقفة لبضعة ثوان، ثم أجاب المريض: "من أجل الله". وفي ذلك الوقت، كشف عمق شخصيته عن حقيقتها، حيث أُميط اللثام في قاع هذا العمق بصرف النظر عن فقر عطائه الذهني، عن حياة دينية حقيقية أصيلة.

فثمة مريض عقلي غير قابل للشفاء قد يفقد كل ما يُرْجى منه من نفع وفائدة، إلا أنه لا يزال يحتفظ بعزته وكرامته وقيمته ككائن إنساني. وتلك هي "فلسفتي في الطب النفسي"[1]. وبدونها ينبغي ألا أتصور أنه يجدر لي أن أكون طبيباً نفسياً. لأجل من؟ هل يكون هذا فقط من أجل ماكينة العقل المتعطلة التي لا يمكن إصلاحها؟ فإذا لم يكن الإنسان بالفعل أكثر وأعظم من مجرد هذه الماكينة، لاستحق القتل الرحيم.

---

(1) Psychiatric Credo.

إعادة أنسنة الطب النفسي

لقـد حـاول الطب النفسي، لفترة زمنية كانت أطول مما يجب واستغرقت في الواقـع نصف قرن من الزمان، أن يفسر العقل الإنساني على أنه مجرد نظام آلي (ميكانـزم)، واتجـه بالتالي إلى أن يجري علاج الأمراض العقلية على أساس أنه مجـرد فنيات. وأعتقد أن هذا الحلم قد تبدد. فما يلوح في الأفق في هذا الصدد في الـوقت الحاضـر، ليس هياكل للطب المتحلي بسمات علم النفس(طب متنفسن)(١)، وإنما هو بالأحرى هياكل لطب نفسي إنساني النزعة (طب نفسي متأنسن)(٢).

ومـع ذلـك، فـإن الطبـيب الـذي لا يزال يرى دوره أساساً على أنه دور الإخـصائي الفنـي، فسوف يعترف بأنه لا يرى في مريضه شيئاً أكثر من ماكينة، بدلاً من أن يرى الكائن الإنساني خلف ذلك المريض!.

فالكـائن الإنساني ليس شيئاً واحداً بين أشياء أخرى؛ مما يحده بعضها البعض الآخر، ولكن الإنسان هو الذى يحدد في النهاية ذاته. فما يصير عليه – داخل حدود الـوراثة والبيـئة – إنمـا يكون قد حققه إنطلاقاً من ذاته. على سبيل المثال، في معـسكرات الاعـتقال – أي فـي هذا المعمل الحي وفي هذا المجال الاختباري – لاحظنا وشهدنا بعضاً من زملائنا يسلكون كالخنازير، في حين يسلك البعض الآخر كالملائكة. ويوجد هذان النمطان من الإمكانات كلاهما بداخل الإنسان؛ ولكن النمط الـذي يـتحقق مـنها إنما يتوقف على ما يتخذ من قرارات ولكنه لا يتوقف على الظروف.

إن جيلـنا لجـيل واقعـي لأننا قد توصلنا إلى أن نعرف الإنسان كما هو في الواقع. ومع كل ذلك، فالإنسان هو ذلك الكائن الذي ابتدع غرف الإعدام بالغاز في آوشـويتز؛ وبالـرغم من ذلك فإنه هو أيضاً، ذلك الكائن الذي دخلها شامخ الأنف، مرفوع القامة، شاكراً ربه.

---

(1) psychologised medicine.

(2) humanised psychiatry.